الشعر الجاهلي

خصائصه وفنونه

الأستاذ للدكتور

يحيى الجبوري



الشعر الجاهلي

خصائصه وفنونه

الشعـــر الجاهلـــي

خصائصـــه وفنونـــه

أ. د. يحيى الجبوري



الطبعة الأولى
2014 م – 2015م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/8/2888)

811.1

الجبوري، يحيى وهيب

الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه/يحيى وهيب الجبوري

– عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2013

(   ) ص.

ر.إ.: (2013/8/2888)

الواصفات: /الشعر العربي// النقد الأدبي// العصر الجاهلي/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN(ردمك) 978-9957-02-530-4

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس: ٥٣٤٩٤٩٧ – ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الأردن



Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan

www.majdalawibooks.com
E-mail: customer@majdalawibooks.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الدار الناشرة.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: الجاهلية	11- 112

الموضوع الصفحة

الباب الأول

الجاهلية

مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي

مقدمة

الباب الأول

هذا الباب في حقيقته مقدمة لباب بعده في أدب العصر الجاهلي واتجاهاته، وقد حاولت ان اقدم لأدب الجاهلية بدراسة موجزة بعض الايجاز عن حياة العصر، تلقى الضوء على أهم الجوانب التي تعين على فهم الأدب وتوضح قضاياه وتفسر ظواهره. وحين مضيت في بحث هذه الجوانب، وجدت ان الموضوعات التي علي ان اطرقها أو أرى ضرورة في بحثها قد كثرت وبرزت أهمية توكيدها وتوضيحها.

وقد توفرت أثناء البحث مادة غزيرة وصفحات طوال، فأجريت القلم فيها حذفاً وتشذيباً واختصاراً، فبقى بين يدي ما لابد من بقائه، إذ يتعذر الاستغناء عنه والتلاعب به، فإن في ذلك ثلما للفكرة الأساسية وجوراً على الموضوع الذي اريد.

وقد وجدت ان هذه الفصول التي تراها بين يديك قد اكتملت وتحددت وجمعتها وحدة فكرية وموضوعية، وإن ضمها الى دراسة اخرى سيخرجها عن وحدتها ويحملها ما لا تطيق. فكان -لكل ذلك- ان افردت هذه الدراسة في كتاب مستقل مستكمل الجوانب واضح المنهج.

ولا شك ان دراسة العصر الجاهلي على أهميتها، تحف بها كثير من المشكلات، ولذلك فلابد للباحث ان يكون حذراً من اطلاق الاحكام والفرضيات بالنسبة لطبيعة الحياة وظروف العصر، وليس من شأن هذا لبحث ان يفيض في دراسة العصر، فإن في ذلك سعة لمن يريد ان يفرغ للعصر الجاهلي فيدرس تاريخه ولغته وأحواله العامة، وذلك أمر

يخرج بي عن طبيعة المنهج الذي رسمت، وإنما همي هنا أن ادرس العصر بالقدر الذي يعين على فهم الشعر الجاهلي وحياة الشعراء ويبين نزعاتهم ويفسر كثيراً من المثل والتقاليد التي يتردد صداها -وما زال- في الشعر العربي.

لقد نظرت في قضايا الجاهلية فوجدت أن لي رأياً في كثير منها قد يخالف ما تعارف الناس عليه، وقد كان في نفسي شيء من بعض القضايا التي يظنها الناس اموراً بديهة مسلماً بها، فأردت ان اعرف وجه الحق أولاً، واثبت ما هداني اليه البحث ثانياً، وأبين ما ارتضيت من آراء كونتها الدراسة الفاحصة الممحصة ثالثاً. وقد دللت على وجهة نظري بكثير من الادلة والشواهد، معتمداً في ذلك على مصادر بحث اصيلة متقدمة.

وقد بنيت هذه الدراسة على خمسة فصول متكاملة مترابطة، ففي فصل عرب الجاهلية وقفت عند مفهوم الجاهلية وحددت معناها وناقشت الآراء في تسميتها ودلالتها أوضحت الرأي الذي ارتئيه. وكذلك وقفت عند اهل تلك الجاهلية وميزت بين عرب الحاضرة وأعراب البادية وبينت الفارق بينهما وصلة هؤلاء بأولئك، وكيف نظر الاسلام والمسلمون الى العرب والأعراب، حتى إذا اطمأن البحث الى تحديد المفهوم وإزالة اللبس ودفع الوهم، مضيت في دراسة العصر الجاهلي وكان أول ما يجب معرفته ان اتعرف على القبائل العربية واثبت مواضعها واعرف تحركاتها وابين علاقاتها وصلاتها وما يترتب على هذه الصلت من تحالف وحروب وهجرات واسفار، وكذلك علاقة هذه القبائل بالامارات العربية التي قامت في العراق والشام ودومة الجندل، وقد وقفت قليلاً عند هذه الامارات وبينت طبيعة تكوينها وأثرها في حياة الجزيرة وحياة أبنائها أهل المدر منهم وأهل الوبر، لما كان بينهم وبين ملوك هذه الدول من صلات ودية

حينا وحربية في اكثر الاحايين.

ونظرت في حياة العرب الاجتماعية فتعرفت على طبيعة حياتهم وعيشهم، ونصيبهم من الحضارة، وقد ازحت الصورة الخاطئة التي تصور العرب في البادية جفاة متبدين اصحاب رحلة ونقلة، واوضحت ان لكل قبيلة منازل في الصيف ومنازل في الشتاء فاذا تنقلت في الصحراء فإنها تنتقل ضمن رقعة محددة مبينة، وبينت ان البادية لم تكن منقطعة عن الحاضرة، بل متصلة بها تأخذ منها وتعطيها، فبينهما صلات وثيقة وتبادل وزواج، وكثير من القبائل لها بادية وحاضرة. وإذا امعنا النظر في طبيعة المجتمع العربي نجد ثمة صلات تجمع بين القبائل وتؤلف قلوبهم على مثل عليا يحترمونها ويجلونها، ويستوي في ذلك السادة منهم والعبيد، البدو والحضر، وجماع تلك المثل: الكرم والشجاعة والمروءة وحماية الجار والوفاء والحلم والتسامح.

ونظرت في معايش القوم فوجدتهم يختلفون في ارزاقهم سواء في الحاضرة ام في البادية، فمنهم الغنى الميسور ومنهم الفقير المدقع، وكانت طبيعة حياتهم قد حددت معاشهم وابرز مواردهم في البادية الغارة والصيد والاعتماد على ما تدره حيواناتهم، أما في الحاضرة فقد نشطت التجارة وقامت الزراعة والصناعة، ولكل ذلك مواضع معينة وأناس معروفون. وكان لمكة النصيب الاكبر من التجارة، كما كان لرجالها اليد الطولى في تنشيط التجارة وتوسيع رقعتها.

أما الناحية الحضارية والعقلية من حياة العرب فقد حاولت أولاً ان افند المزاعم الباطلة حول العصر الجاهلي ووصف اهله بالتأخر والبدائية والانعزال، وحاولت ان اجلو الغشاوة المفتعلة عن الصورة الاصيلة لحياة العرب، فهم اولو حضارة عريقة وصلات بالعالم المجاور، وقد ساعد ذلك

اتصالهم بجيرانهم من الامم التي تتجر واياها او تحضر اسواقها. فكان هنالك تبادل ثقافي بين العرب والفرس وبينهم وبين الروح والحبش والهنود وغيرهم من الامم. وقد ساعد ذلك الاسواق والتجارة وكثرة الأسفار التي يقوم بها تجار العرب، ثم وجود الجاليات الاجنبية في قلب البلاد العربية.

وظهرت عند العرب جملة علوم كان اهمها معرفتهم بالنجوم ومواقعها وأنوائها، والرياح ومهابها، وقد غنيت اللغة العربية باسماء المطر والسحاب والرياح، والفوا كتباً كثيرة في ذلك. كما برعوا بالطب والبيطرة، وان خالطت الخرافة بعض علومهم، وكان لهم بصر بالفراسة والقيافة، ولهم علم واسع بالتاريخ والاخبار والايام منذ اقدم الازمنة اما الانساب فقد برعوا بمعرفتها وضبطها، فعرفوا اصول كل قبيلة وفروعها واخبارها وايامها واولوا ذلك عناية فائقة. وقد ظهرت لديهم الحكم والامثال التي يصح ان نستدل بها على رقي عقليتهم ونضج تجاربهم ونظرتهم الصائبة الى الحياة.

ووقفت عند الحياة الدينية لعرب الجاهلية، وناقشت مفهوم الشرك الذي يطلق على اهل ذلك العصر، وتوصلت الى ان الشرك يفهم من تقديس معبودات مع الله سبحانه على انها وسائط يتخذونها لتشفع لهم عند ربهم، لا على انها شريكة في ملك الله او انها خالقة مدبرة. وان العرب كانوا على دين ابراهيم دين التوحيد، وهم بعد يؤمنون بالله الواحد القادر الخالق الرازق الذي بيده امر كل شيء. وقد دخلت الاصنام في حياتهم في عصر متأخر، وبينت سبب دخولها وكيفيته. ونظرت في مدى تمسك العرب بدينهم فوجدت ان الاعراب اقل احتفالاً بالدين واهتماماً بالاصنام من العرب المتحضرين.

وقد تبينت لدينا ديانات في الجزيرة كانت تنافس الوثنية الدين

العام للعرب، منها الحنيفية دين ابراهيم، وقد شهدت المدن بخاصة مجموعة من هؤلاء الاحناف، الذين كانوا يترقبون الدين الجديد ويبشرون به. وهناك ديانتان اخريان موحدتان كان تأثيرها محدوداً ضيقاً، هما: اليهودية والنصرانية اللتان لم تستطيعا ان تدحرا الوثنية او تقللا من شأنها. وكان الى جانب ذلك كله ديانات جاءت من الامم المجاورة، مثل المجوسية والدهرية وعبادة النجوم والكواكب وغيرها.

وبعد:

فارجو ان اكون قد قدمت في هذا البحث بعض ما أصبو اليه من خدمة العربية وتراثها، فلها عليَّ يد لا تجحد وفي قلبي لها حب لا يفنى، وقد نشدت وجه الحق في كل سطر كتبته، وكل رأي ارتأيته، وقد وزعني اليقين الصادق عن الحماس الضال الكاذب، فان اصبت فذلك حسبي، وان اخطأت فما انا الا امرؤ ضعيف يصيب قليلاً ويخطئ كثيراً، وسبحان من له الكمال وحده، فمنه السداد وبه التوفيق.

والحمد لله أولاً وآخراً

يحيى الجبوري

تمهيد

بلاد العرب

جزيرة العرب او شبه جزيرة العرب، اكبر شبه جزيرة في العالم، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلو متر مربع وكانت في الازمنة الغابرة الموغلة في القدم خصبة مزروعة عامرة بالسكان، اذ تأتيها الرياح الغربية المشبعة بالغيوم والتي تمطر مرتفعات سورية وفلسطين، فتمطر الجزيرة ايضاً مطراً غزيراً تجرى به السيول في الاودية الكثيرة، وقد بقيت الاودية العميقة في قلب الجزيرة وانحائها من آثار تلك السيول الجارفة والامطار الغزيرة التي هي سبب الحياة فيها.

ويتميز سطح الجزيرة بسهل منحدر من الغرب نحو الخليج العربي ومنخفضات ارض الرافدين وترتفع على هذه المهامه والبطاح الواسعة الشاسعة سلسلة جبال محاذية لساحل البحر الاحمر، ترتفع ارتفاعاً شاهقاً اذ يبلغ في الشمال عند مدين تسعة آلاف قدم، ويشمخ في الحجاز جبل السراة الذي يبلغ عشرة آلاف قدم وفي اليمن جنوباً اثنى عشر الف قدم وتنحدر الارض انحداراً تدريجياً نحو الشرق، وانحداراً فجائياً قصيراً نحو الغرب حيث البحر الأحمر[1].

وترتفع هضبة نجد في المنطقة الشمالية الوسطى حوالي 2500 قدم وفيها سلسلة جبال تعرف بجبال شمر، واهم قممها جبل أجأ وهو من

---

(1) انظر الهمداني –صفة جزيرة العرب ص67 ط ليدن وقد افدنا في هذا الفصل من جملة مراجع حديثة أهمها: جزيرة العرب– حافظ وهبة وتاريخ العرب جواد علي الجزء الأول وتاريخ العرب فيليب حتي وجرجي وجبور 1/15- 27 ومحاضرات في تاريخ العرب- صالح احمد العلي، 1/13- 15 وتاريخ الجاهلية –عمر فروخ ص26- 36.

الغرانيت الاحمر ويبلغ ارتفاعه 5550 قدماً فوق سطح البحر، وهناك جبال اخرى تمتد وراء السهول الساحلية من جهات الجزيرة الثلاث تتفاوت في الارتفاع أعلاها الجبل الاخضر الذي يبلغ 9900 قدم وهو الموضع الوحيد المرتفع من الناحية الشرقية اذ ان المنطقة الشرقية هي منطقة الانحدار.

اما بقية الارض غير الجبال والهضاب فإنها في الغالب صحارى ودارات، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه، منها بادية الشام التي يعرف قسمها الجنوبي بالحماد، وكذلك بادية العراق التي تعف ببادية السماوة.

وتتميز الصحراء العربية بثلاثة أنواع من الاراضي هي:

أولاً: النفوذ:

وهي بادية متسعة تزيد رقعتها على مائة الف كيلو متر مربع ذات رمال متموجة بيضاء تضرب الى الحمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثبانا او تلالا تغطي الجزء الشمالي من الجزيرة بين نجد وبادية الشام وبين نجد والاحساء في جنوب الجزيرة في الربع الخالي، ويمكن تحديد النفوذ[1] بوادي السرحان شمالاً، وجبلي أجأ وسلمى (جبل شمر) جنوباً وتقع واحة تيماء في الجنوب الغربي من صحراء النفوذ ومدينة حائل في الجنوب الشرقي. وهي على العموم جافة الا في مناطق قليلة هي الواحات التي تصيبها الامطار احياناً فتنبت فيها المروج الخضر فيكثر خيرها وترعاها ابل البادية وانعامها.

---

(1) النفود او النفوذ بالذال المعجمة: التي يصعب اجتيازها والطريق النافذ هو الطريق السالك انظر اللسان والقاموس: نفذ.

ثانياً- الدهناء:

وهي أرض ذات رمل ناعم لا تصلح للنبات ولو سقطت عليها الامطار، تحتل وسط الجزيرة على شكل قوس كبير يمتد من الشرق حتى الغرب، وتنحصر الدهناء بين النفود شمالاً والربع الخالي جنوباً، والربع الخالي جزء من الدهناء منحصر بين عمان شرقا واليمن غرباً، وقد عرف الجانب الغربي من الدهناء باسم الاحقاف(1)

وتصيب الأمطار هذه المنطقة في الشتاء، فتنتشر فيها الخضرة وترعاها الماشية، أما في الصيف فتقفر الارض ويصيبها الجدب فلا تصلح للحياة. أما الربع الخالي فما زال مجهولاً والمعلومات عنه قليلة، وقد قام برترام توماس بمحاولة -سنة 1931- لقطعه واجتيازه من البحر العربي نحو الخليج واستغرقت رحلته ثمانية وخمسين يوماً، ووصف رحلته ثمانية وخمسين يوماً، ووصف رحلته هذه في كتابه (العربية السعيدة)(2) فذكر الرمال المفردة التي كان العرب يظنونها اصوات الجن، واكتشف بحيرة من المياه المالحة عرفت فيما بعد انها من متفرعات خليج العرب جنوبي قطر.

ثالثاً- الحرار:

الحرار جمع حرة وتسمى اللوبة او اللابه، ارض ذات حجارة نخرة سود تتكون من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين(3)،

---

(1) الحقف: المعوج من الرمل او الرمل العظيم المستدير او المستطيل المشرف. انظر اللسان والقاموس والتاج مادة (حقف) وهو منطقة الشمر قرب حضر موت اليمن، السورة قال تعالى: "واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف" سورة الاحقاف 21 واخو عاد هو هود عليه السلام.

(2) Bertram Thomas:

Arabia Felix Across The Empty Quarter of Arabia (New York 1932).

(3) لسان العرب والقاموس المحيط (حرر).

وتكثر الحرار في المناطق الغربية والوسطى من الجزيرة وتتجه نحو الشمال حتى حوران الشرقية، وفي معجم البلدان ذكر لحرار كثيرة تبلغ الثلاثين واشهرها حرة المدينة التي نشبت فيها وقعة الحرة المشهورة سنة 63هـ وتعرف بحرة النار قرب خيبر، ويقال بل حرة واقم التي تنسب اليها وقعة الحرة[1]. ومن الحرار المشهورة في الجزيرة: الخدرية حرة لبني سليم، وحرة واقم في المدينة وحرة ليلى بديار قيس وحرة الحوض بين المدينة والعقيق وحرة شوران وغيرها[2] وهناك حرار كثيرة منبثة في وسط الجزيرة وغربيها تصعد الى الشمال حيناً وتهبط الى الجنوب في حين آخر، ويقال ان البراكين التي قذفت هذه الحمم والحجارة كانت تثور بين آونة واخرى فتقذف بنيرانها، وكان آخرها في الإسلام في عهد عمر سنة 19هـ فامر عمر بالصدقة فتصدق الناس فانطفأت[3]

هذه انواع الصحاري في بلاد العرب، وفي وسط هذه الصحاري والدارات تنفسح هضبة نجد التي تتكون من طبقة من الحجارة الكلسية تتخللها بعض البقع الرملية[4].

هذا التقسيم الذي شهدناه من حيث طبيعة الأرض، اما التقسيم الذي اصطلح عليه الجغرافيون من حيث اثر البيئة الجغرافية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإنهم يقسمون بلاد العرب الى المناطق او الأقاليم الخمس التي هي:

---

(1) ياقوت –معجم البلدان (حرر).

(2) المصدر السابق ومعجم ما استعجم- البكري 435/2- 438 والقاموس واللسان (حرر).

(3) ابن الاثير –الكامل في التاريخ 228/2 ط القاهرة 1292هـ

(4) تاريخ العرب فيليب حتى 19/1.

1.الحجاز:

وأرضه جبلية خصبة كثيرة المياه، وبها وديان كثيرة اشهرها وادي القرى بين العلاء والمدينة. والقسم الشمالي من الحجاز يسمى ارض مدين وكانت تسكنها جذام[1] وأرض حسمى وبها آثار لامم بادت ومن جبالها ارم الذي ورد ذكره في القرآن كما يرجح[2] وتكثر في الحجاز المواضع البركانية والحرات، وتنتشر فيه الآبار والعيون وبخاصة في القرى والمدن حيث يحدث الخصب والزرع، مثل يثرب او المدينة كما سميت حين دخلها الرسول الكريم، ووادي القرى شمالي يثرب، ومثل مدينة قرح التي كانت تقوم فيها سوق عظيمة في الجاهلية، وكذلك مدينة الحجر او مدائن صالح وقومه ثمود، وحول المدينة قرى ذات زرع سكن اكثرها اليهود مثل خيبر وفدك، وقد سكنت هذه المنطقة بعض القبائل العربية قبل الإسلام مثل عذرة وبلى وجهينة، اما قضاعه فكانت عشائرها منتشرة نحو الشمال حتى شبه جزيرة ميناء ومن مدن الحجاز المهمة مكة ذات المركز التجاري والديني، وفي جنوبي مكة الطائف وهي مصيف المكيين منذ القديم وتبعد عن مكة حوالي خمسة وسبعين ميلا، والطائف عند جبل غزوان وتحيط بها اودية وآبار كثيرة.

2. تهامة:

وهي المنطقة الساحلية الممتدة على البحر الأحمر او بحر (القلزم)، وتسمى الغور او السافلة لانحدارها[3] وتعرف في الجنوب بـ (تهامة اليمن) وهي ارض رملية شديدة الحرارة، وفي تهامة بعض الثغور والمرافئ مثل الحديدة في اليمن، وجدة وينبع في الحجاز، وشمالي الحجاز ثغر صغير

---

(1) اللسان (جذم).

(2) ياقوت- معجم البلدان 277/3.

(3) معجم البلدان 437/2 و311/6.

يعرف بالوجه ويقال انه ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن بمدائن صالح، وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء. وتمتد جبال السراة شرقي تهامة من الشمال الى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة اقليم الحجاز.

3. اليمن:

وتشمل اليمن مدناً كثيرة منها حضر موت ومهرة والشحر وظفار وعمان، وبهذا كان الجنوب كله يدعى اليمن، وقد يخصص بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة وهي بلاد اليمن المعروفة الآن، ويعرف القسم الساحلي بتهامة اليمن، تفصل بينها وبين هضبة اليمن جبال هي امتداد لسلسلة جبال السراة، وفي اليمن كثير من الاودية والسهول والاراضي الخصبة التي ترويها الامطار الموسمية، وبذلك عم فيها الخير وقامت حضارتها منذ القديم حتى جاء وصفها في القرآن الكريم: (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)[1]، ومن أشهر أودية اليمن الخصبة تبالة، وبيشة المشهورة بالاسود والمنسوبة اليها فقالوا: (أسد بيشة). وتعرف المنطقة الشمالية من اليمن المجاورة للحجاز باسم عسير وفيها منازل بجيلة في الجاهلية، ومن مدن اليمن المشهورة صنعاء وعدن ونجران وظفار وزبيد.

4. العروض:

وهي صحار وسهول ساحلية وتشمل اليمامة[2] والبحرين وما والاها وقطر ومنطقة الاحساء والقطيف وفيها كثير من العيون[3] وفي الجنوب الغربي من القطيف تقع (العقير) وهي ميناء صغير[4] وعلى مقربة منها تقع

---

(1) سورة سبا 15.

(2) وقد عدها ياقوت في نجد كما سيأتي انظر معجم البلدان 516/8.

(3) جزيرة العرب في القرن العشرين –حافظ وهبة ص68 ط لجنة التأليف 1946م

(4) المصدر السابق ص72- 73.

(الجرعاء) وهي مدينة تجارية قديمة وسدوس ومنفوحة ويظن ان موطن قبيلتي طسم وجديس البائدتين في هذه المنطقة، وتمتد البحرين من البصرة الى عمان وبها منازل قبيلة عبد القيس في الجاهلية. ومن أعمال عمان صحار ودبا وكانت تقام فيها سوق مشهورة في الجاهلية، وتشمل العروض منطقة الكويت الحاضرة وكانت تعرف بكاظمة، ومن المدن القديمة هجر المشهورة بكثرة تمرها حتى قالوا في الامثال: (كجالب التمر الى هجر) اما الخط التي تنسب اليها الرماح الخطية فهي القطيف نفسها.

5. نجد:

تقع نجد وسط الجزيرة وتشمل وادي الرمة، وما حاذى الحجاز وتهامة من نجد يعرف بنجد العالية، وما جاور العراق منها يعرف بنجد السافلة، والمنطقة الشرقية منها عند اليمامة تعرف باسم الوشوم اما شماليها الى جبلي طي (أجأ وسلمى) فيعرف باسم القسيم وهو الرمل الذي ينبت فيه الغضا، والغضا ضرب من الأثل واليه ينسب اهل نجد فيسمون اهل الغضا، وتشمل نجد اليمامة عند ياقوت[1] وتسمى بـ (جو) ومركزها حجر وهي موطن طسم وجديس ومن مدنها منفوحة وبها قبر الأعشى الشاعر، وسدوس وهي مدينة قديمة.

وتنفسح ارض نجد من الشمال على بادية الشام التي تكثر فيها الاودية والواحات، وبادية العراق او بادية السماوة، وتتصل بينهما وبين نجد صحراء النفود الواسعة، اما من الناحية الشرقية فتكون صحراء النفود فاصلاً بين نجد وبين البحرين وتسمى هنا الدهناء او (رملة عالج) وهي منازل تميم وضبة في الجاهلية والاسلام.

المناخ:

مناخ الجزيرة بعامة جاف حار قليل المطر صيفاً، وبارد شديد البرودة شتاء، وعلى الرغم من ان البحار تحيط بالجزيرة من جوانبها

---

(1) معجم البلدان 516/8.

الثلاث، فإن جو الجزيرة بقي جافاً حاراً، فرياح السموم التي تهب صيفاً تمتص الرطوبة قبل ان تتمكن من التوغل داخل الجزيرة، فلذلك لم تستطع هذه البحار تلطيف جو الجزيرة، اللهم الا سواحل المحيط الهندي التي تسقط عليها الامطار التي تحملها الرياح الموسمية في الصيف وخاصة في اليمن. اما الحجاز فالامطار فيه قليلة، وقد يستمر الجفاف اكثر من موسم، واذا جاءت الامطار في بعض المواسم فقد تأتي غزيرة تنشأ منها السيول، ويتحدث البلاذري عن سيول مكة فيخصص لها فصلاً في كتابه فتوح البلدان[1]، وامطار الحجاز تحملها الرياح الغربية التي تهب من الناحية الغربية الشمالية وهي امطار شتوية، اما المناطق الداخلية الوسطى فامطارها قليلة ولذلك صارت امطار نجد غزيرة يتمناها الناس فأسموها غيثاً[2]

واهم المناطق التي ينزل عليها المطر مدراراً، اليمن وعسير، فاكتست لذلك ارضها بالخضرة وانتظمت الزراعة فيها وامتلأت اوديتها بالمياه. اما اقاليم الجزيرة الوسطى وجبل شمر فتسقيها الامطار المتأتية من مياه الخليج العربي وكذلك عمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة فإن الامطار تسقط فتسقى الارض الزراعية الخصبة.

وحين ينقطع مدد السماء عن الجزيرة وتحتبس الامطار، يعم الجدب والجفاف ويحل المحل والهلاك ولذلك سمي الجدب سنة بالنسبة للموسم فيقولون (اصابتنا سنة اتت على الاخضر واليابس). وقد دفعتهم قلة الامطار الى النقلة –وخاصة في نجد– في طلب العشب والكلأ والماء.

ومن هنا نجد ان الزراعة المنتظمة التي تعتمد على الامطار الموسمية هي في المناطق الساحلية الجنوبية والشرقية، وهي في مناطق الحضر المستقرين، على نقيض المناطق الشمالية الي تعتمد على المراعي، وقد قام

---

(1) ص53- 55 ط ليدن 1866م

(2) واسموها جودا وحيا لما في ذلك من معنى العون والنصرة والخير والكرم والحياة.

الاستقرار في المناطق الشمالية في الواحات المنتشرة في أنحاء من الجزيرة[1] وبعض المدن التي تكثر فيها الآبار والمياه الجوفية، ويمكننا ان نعزو سكن كثير من القبائل الكبيرة في نجد الى هذه الواحات والمياه الجوفية، حيث يمتد وادي الرمة ذو المياه الجوفية في قلب نجد.

وكذلك يعود الفضل في خصوبة حضر موت وزراعتها الى الاودية العميقة التي تحوي المياه في باطنها. فالجزيرة وان حرمت من الانهار الجارية، فانها تسقى من العيون الثرة والمياه الجوفية والوديان التي تملؤها السيول شتاء، وما تجود عليها السماء من مطر غزير في السواحل، عزيز قليل في نجد والحجاز. ولم تعدم قمم الجبال من الاجواء الباردة التي ربما جمد الماء فيها كما هو معروف عن جبل غزوان بجوار الطائف[2]، وقد تسقط الثلوج في صنعاء شتاء، كما تسقط على قمة جبل حضور الشيخ في اليمن[3].

وقد رسمت هذه الوديان[4] والآبار ومواقع الواحات اتجاه الطرق لقوافل التجارة والمواصلات، فالقوافل عادة تتبع طرق المياه وتحاذيها وبذلك كان طريق العراق محاذياً وادي الرمة ماراً ببريدة في نجد، أما طريق الشام فيمر بوادي سرحان متاخماً لساحل البحر الأحمر، وهناك

---

(1) الواحات هي الدارات التي يكثر ذكرها في الشعر الجاهلي كدارة جلجل ودارة الارام والابريق وغيرها والدارة كل ارض واسعة بين جبال، ويصف الشعراء الدارات على ان فيها مياها غامرة يقصدونها للهو والشرب كما نعرف من وصف أمرئ القيس لدارة جلجل ودمون ودارات العرب كثيرة احصى الفيروز ابادي اكثر من مائة وعشر. انظر القاموس المحيط (دارة) 31/2.

(2) مسالك الممالك ص19 ط ليدن 1870م.

(3) تاريخ العرب حتي 21/1.

(4) يرجح الدكتور صالح العلي ان هذه الوديان كانت في الأزمنة القديمة مجاري انهار. محاضرات في تاريخ العرب 14/1ط3.

خطوط اخرى معظمها ساحلية حول الجزيرة، وبعضها داخلية تخترق الجزيرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي متابعة الواحات الوسطى ومبتعدة عن مناطق الجفاف والربع الخالي على الخصوص[1].

نبات الجزيرة:

ان طبيعة المناخ هذه بما فيها من جفاف الهواء وقلة المياه وملوحة التربة، لم تساعد النباتات على النماء والازدهار والانتشار، ولذلك توزعت النباتات في الاماكن الخصبة ذات العيون والامطار. وأهم نبات الجزيرة هو النخل الذي يكثر في الحجاز، وتمر النخيل او البلح هو اهم طعام البدوي واكثره، فإن قوام الحياة في البادية هو التمر واللبن وفي القليل لحم الابل، فالتمر هو الطعام الصلب الوحيد الذي يتناوله ابناء الجزيرة[2]، وبحسب البدوي الاسودان: الماء والتمر، ونوى التمر يسحق ويصنع منه اقراص لعلف الابل، ومنه يصنع النبيذ وخاصة في الطائف.

اما الحبوب فيزرع الشعير في وادي القرى وفدك وخيبر والمدينة، وتكثر الحنطة في اليمن واليمامة وبعض الواحات، وتزرع الذرة في عسير، والارز في عمان والحسا.

وموطن الافاوية في اليمن، كالمر والمر المكاوي وأنواع البخور والطيب. وينمو شجر اللبان على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي ولاسيما في مهرة. ويكثر الصمغ في عسير، اما شجرة البن فقد دخلت اليمن من الحبشة في القرن الثامن الهجري وتسمى خمر الإسلام[3].

وتنمو في الجزيرة أنواع اخرى من النباتات منها الطلح الذي ينتج الصمغ العربي، والغضا الذي منه الفحم الجيد، والسمح الذي تطحن

---

(1) تاريخ العرب –فيليب حتى 21/1.

(2) عيون الاخبار– ان قتيبة 209/3– 213 ط القاهرة 1930.

(3) الكواكب السائرة– نجم الدين الغزي 114/1 ط بيروت 1945.

حبوبه فتصنع منه العصيدة. أما الكروم فموطنها المشهور الطائف حيث اشتهرت بالنبيذ المعروف بنبيذ الزبيب. وفي المدن الساحلية وبعض الواحات تنمو الفواكه كالرمان والتفاح والمشمش والموز والبرتقال والليمون الحامض والبطيخ وكذلك قصب السكر[1].

وتنمو الاشجار الصحراوية في بادية نجد كالطلح وهو شجر عظام ترعاه الابل، والدوم وهو شجر المقل، والسدر البري او الضال، والسلم والأرطى، وهناك اشجار ضخمة من الاثل وهي الطرفاء والشوحط والشريان والنبع والغرب، ويتخذ من هذه الاشجار القسي والسهام، اما الاراك فهو شجر من الحمض تتخذ من هذه الاشجار القسي والسهام، اما الاراك فهو شجر من الحمض تتخذ منه المساويك وتتفكه به الابل بعد ان تشبع لما فيه من ملوحة ومرارة وللاراك ثمر يدعي الكباث. ومن نبات البادية ايضاً الشيح والقيصوم والعرمض وهو صغار شجر الاراك والسدر، ومن مراعي الابل اللذيذة السعدان والبرسيم وهو حب القرظ وهو نوع من كراث المائدة وكذلك الفقع وهو نوع من الكمأة[2] ومن الاصباغ النيل والورس والحناء. ويستعمل الحنظل وهو نبات صغير مر يشبه البطيخ، لدبغ الجلد وكذلك القرظ وهو ورق شجر السلم، ويستعمل الاشنان في التنظيف كالصابون، ويستعمل نبات السنا دواء مسهلا. ومن النباتات الطيبة الرائحة الآس والعرار وهو بهار البر –زهر بري أصفر– والخزامى وشقائق النعمان وغيرها.

---

(1) تاريخ العرب- فيليب حتى 22/1- 23.

(2) تاريخ الجاهلية- عمر فروخ ص33 ط بيروت 1964.

الفصل الأول

عرب الجاهلية

أريد هنا أن أقف عند نقطتين اراهما على قدر كبير من الاهمية، أولاهما: الجاهلية حدها ومفهومها. والثانية: أهل هذه الجاهلية من عرب وأعراب والفرق بينهما، فقد اضطرب مفهوم الجاهلية في كثير من كتابات الكتاب والباحثين، وراح فريق من الناس يخلط في هذا المفهوم ويضيف اليه ما ليس له، ويصمه بما ليس فيه، حتى غدت صورة الجاهلية في الاذهان صفة للجهل والجور والبداثية. ولاشك ان ثمة كثيراً من الدوافع املت على الناس ان يفسروا الجاهلية هذا التفسير، من ذلك العصبية الدينية والعصبية العرقية.

وكذلك اضطرب الناس وخلطوا بين معنى العرب والاعراب، فنجد ان اسم الاعراب ومدلوله يطلقان على العرب، ومعنى العرب ينصرف الى الاعراب والبدو الجفاة. وهذا الخلط قديم، تجده عند ابن خلدون وغير ابن خلدون ممن كتبوا عن العرب وبحثوا في حياتهم، سواء في ذلك عرب الجاهلية ام عرب الإسلام.

وأحاول هنا ان احدد هذه المفاهيم واوضح دلالتها على ضوء النظرة الاسلامية مستأنساً بآراء الكتاب القدامى والمحدثين:

(1)

الجاهلية:

يطلق لفظ الجاهلية على عهد ما قبل الإسلام، وقد افتن المتعصبون من المسلمين وغير المسلمين في ذمها واطلاق شتى النعوت التي يراد بها الانتقاص والتهوين من امر ذلك العهد حتى ليخيل للناظر في اقوالهم ان الباطل كان سمة العصر والضلال طابعه فقالوا: انه الزمان الذي كثر فيه الجهال[1]، وهو عهد الجهل الذي لا علم فيه أو حرم اهله من آن يجيدوا ضرباً منه وإن قل شأنه، وقد قسم الألوسي ذلك الجهل الى جهل بسيط وجهل مركب فقال: "فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلاً بسيطاً فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق او غير عالم فهو جاهل ايضاً كما قال تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا كان احدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل)[2] ومن هذا قول عمرو ابن كلثوم في قصيدته:

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

اي لا يسفه احد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم اي نجازيهم بسفههم جزاء يربي عليه... وكذلك من عمل الحق فهو جاهل وان علم انه مخالف للحق، كما قال سبحانه: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب".

فعنده أن الجاهلية العهد الذي فيه الجهل وفيه الضلال الذي هو عدم الحق وعدم معرفة الحق، ولذلك يفسر وفق هذا الفهم قول الله تعالى في الجاهلين وقوله في الجهالة وإن كانت الايتان لا يراد بهما المعنى الذي

---

(1) محمود شكري الألوسي –بلوغ الأرب 15/1.

(2) المصدر السابق 16/1.

ذهب اليه الالوسي، وكذلك توجيهه لبيت عمرو ابن كلثوم الى السفه مع ان البيت ينصرف الى الظلم. وقد افتن كذلك الاستاذ احمد امين في اختيار اقسى الالفاظ وأوحشها لرجم الجاهلين: بالسفه والغضب والانفة فيفسر الآية الكريمة: "وعباد الرحمن الذي يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"[1] وفق معناه الذي يريد، ولا يفوته ان يستفيد من قول عمرو ابن كلثوم:

آلا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ليصف حياة العرب في ذلك العهد بانها مصداق للكلمة (جاهلية) فهي انفة وخفة وحمية ومفاخرة وسفه[2]

وكذلك ذهب كاتب مقال مادة جاهلية في دائرة المعارف الاسلامية فيزعم ان المعنى الدقيق لكلمة (جاهلية) هو زمن الجهل... أما الإسلام فهو زمن النور والمعرفة، وجهل ضد علم ووردت بهذا المعنى كثيراً في اللغة القديمة ووردت اكثر في الازمنة القريبة من الاسلام من ذلك قول عنترة في معلقته:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك

ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

على ان واقع حال العرب قبل الإسلام يفند ما ذهب إليه أولئك جميعاً، فليس من امعقول ان يقصد بالجاهلية معناها اللفظي الذي هو الجهل ضد العلم والفهم، فيذهب اولئك يتصيدون كل ما ورد من مادة جهل في الشعر والقرآن والحديث وكلام العرب، لأن من كانت صفاتهم صفات العرب قبل الإسلام، لا يصح ان يكونوا ابناء جاهلية جهلاء. وعندهم الحضارة العريقة الممتدة في اعماق الزمان، ولهم ذلك الفن القولي الممتاز متمثلاً في الشعر والخطابة والامثال والرسائل والحكم المأثورة. وفي

---

(1) سورة الفرقان 63.

(2) احمد امين -فجر الإسلام ص69.

اكبر الظن ان الكلمة حين اطلقت في أول الامر اريد بها الدلالة على شيوع عبادة الاوثان بينهم، فلا شك ان من العرب من كان يركع لصنم وينحر لنصب، ومنهم من عبد كوكباً او اعتنق المجوسية والصابئية ديناً، او كانوا من اصحاب الدهر، وقد اشار القرآن الكريم في عدة مواطن لذلك، فالجاهلية على هذا إذا قصدت فإن معناها ينصرف إلى تلك الوثنية السائدة قبل شريعة الإسلام.

ويذهب معنى الجاهلية من جهة أخرى –غير الدين– الى تلك الحالة الخلقية التي كانت حاضرة في نفوس العرب، والاعراب منهم بصورة خاصة، جماعها الغلو في تقدير الامور والاسراف وسرعة الغضب، فقد كان من العرب من يفرط في الكرم حتى يغدو سرفاً وتبذيراً، ويغلو في الشجاعة حتى تعود حماقة وتهوراً، ويجاوز معنى النجدة الى الظلم. فالكلمة اذن تتصرف الى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم وليس ضد العلم، ومن هذا قول الشنفرى في لامية العرب[1]:

ولا تزدهي الاجهال حلمي وأرى

سؤلا باعقاب الاقاويل أنمل

والى هذا المعنى يذهب عمرو بن كلثوم في معلقته في البيت المقدم ذكره:

ألا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد يتضمن معنى الظلم ايضاً. ويعزز هذا المعنى الذي نريد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من استجهل مؤمناً فعليه اثمه) قال ابن الاثير يبينه: (أي من حمل على شيء ليس من خلقه فيغضبه فإنما اثمه على من احوجه الى ذلك)[2]

وقد غدت الجاهلية تثير في نفوس المسلمين شعوراً بكراهية عهد

---

(1) أعجب العجب في شرح لأمية العرب– الزمخشري، ص48.

(2) النهاية في غريب الحديث 192/1.

وثنى مملوء بالظلم والآثام، فهذا الرسول الكريم يسمع ابا ذر يعير رجلاً بأمه فيقول مؤنباً ومعاتباً: (انك امرؤ فيك جاهلية)[1] اي فيك روح الجاهلية وطيشها، تغضب فلا تحلم ولا تصبر ولا تسامح، على انه من الحق ان نذكر ان العهد الجاهلي عرف كثيراً من الناس وصفوا بالحلم والصبر والتسامح والحكمة، ولا يبعد عنا ذكر قيس ابن عاصم وحلمه، وهرم بن سنان وطيبته وزهير بن أبي سلمى وحكمته وغيرهم كثير، حتى ان الرسول عليه الصلاة والسلام ليذكر السجايا النبيلة والحياء والمروءة التي تمثلت باعرابي جاهلي مثل عنترة، فيقول: (ما وصف لي اعرابي قط فاحببت ان اراه الا عنترة) وكان الرسول الكريم قد انشد قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى واظله حتى انال به كريم الماكل[2]

وفي عموم القول ان المراد من معنى الجاهلية ما يتمثل في الذهن من مفهوم ديني، فعهد الجاهلية كان قائماً على الشرك والوثنية وفيه ضلال وظلم وظلمات، وأما العهد الاسلامي فعلى نقيضه، هو هداية ونور، ومصداق ذلك قول الله تعالى: "ليخرجكم من الظلمات الى النور"[3] وقد وردت (الجاهلية) في القرآن الكريم ويراد بها الحط من القيم الخلقية والاعتقادية لذلك العهد، قال سبحانه: "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)[4] وقوله: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[5] وقوله: "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية"[6] وقريب من هذا قول الرسول في حديث الافك: "ولكن

---

(1) المصدر السابق.

(2) الأغاني 243/8.

(3) الحديد 9.

(4) سورة آل عمران 154.

(5) المائدة: 50.

(6) الاحزاب 33. الفتح 26.

اجتهلته الحمية"[1].

أما فترة الجاهلية فيحددها بعض المستشرقين بأنها: (الاسم الذي يطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، او بعبارة اخص، الاسم الذي يطلق على الفترة التي خلت من الرسل بين عيسى ومحمد)[2] وقد اخذ الكاتب هذا القول من الآلوسي[3] دون اشارة لذلك ويزيد الالوسي بانها ايام الفترة (وهي الزمن بين الرسولين وقد تطلق على زمن الكفر مطلقاً، وعلى ما قبل الفتح، وعلى ما كان بين مولد النبي والبعث) وفي قول عن ابن خالويه: ان هذا اللفظ حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة. ويحدد نهاية هذا العهد فتح مكة لا البعثة[4].

على أننا اذا اخذنا الجاهلية على انها نزعات ومثل وتقاليد، فإنها قد استمرت في نفوس كثير من المسلمين بعد فتح مكة، وقد عادت جذعة فتمثلت في الردة وفي العهد الاموي وما وليه من عهود، بل نستطيع القول ان كثيراً من عاداتنا ومأتينا الحاضرة ان هي الا من آثار الجاهلية، اما ضابط آخر العهد فتح مكة فيعني ان الاسلام قد تمكن من القضاء على اقوى خصومه وأعظم خطر يهدد الدين ومثله العليا.

(2)

العرب والاعراب:

جاء الإسلام دين بشرى وهدى وايمان، جاء رحمة للناس وأمناء، فقد ايقظ الجزيرة العربية من غفوة الم بها، فنهضت بالإسلام لتلبس – وتلبس الناس معها- ثوب العدل والخير والايمان، فجدد لها عمرها ورسم لها طريقها وكتب لها عهداً مجيداً. وعلينا هنا ان نتبين اهل ذلك العهد

---

(1) النهاية في غريب الحديث- ابن الاثير 192/1.

(2) فير –دائرة المعارف الإسلامية مادة جاهلية.

(3) الآلوسي –بلوغ الارب 15/1

(4) الصحاح مادة عرب وكذلك القاموس المحيط للفيروز ابادي.

الذين ضمهم الإسلام وهداهم سواء السبيل، ونجلو لبسا حاصلاً وغشاوة مريكة، ان نفرق بين كلمتين كثيراً ما يقع الخلط بينهما والوهم في استعمالهما، والكلمتان هما: العرب والاعراب، فما حد كل منهما؟

يستعمل القدماء احياناً كلمتي العرب والاعراب في حالة ترادف، وترد الواحدة مكان الاخرى، وقد تعمم كلمة العرب فيراد بها الاعراب ايضاً، قال الجوهري: (العرب جيل من الناس وهم أهل الامصار، والنسبة الى العرب عربي والى الاعراب اعرابي، والذي عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع) [1] ويقول الآلوسي عن ابي العباس احمد بن عبد الله: (إنَّ العرب أهل الامصار والاعراب سكان البادية وفي العادة يطلق لفظ العرب على الجميع) [2].

ويكاد الاجماع ينعقد على ان العرب هم سكان الحاضرة والاعراب هم سكان البادية، فيذكر الآلوسي ان شيخ الإسلام احمد بن تيمية في كتاب (الاقتضاء) يقول: (إنَّ لفظ الاعراب هو في الاصل اسم لبادية العرب، فان كل امة لها حاضرة وبادية، فبادية العرب الاعراب، وقد يقال: ان بادية الروم الأرمن، وبادية الفرس الاكراد، وبادية الترك التتر ونحوهم [3]. ويذكر ايضاً قول اهل التفسير بأن العرب سكان المدن والقرى، والاعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم. ويوضح هذا ويحدده ما جاء في التنزيل قوله تعالى: (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) [4] وفي قوله تعالى: "وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم

---

(1) بلوغ الارب 12/1.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) سورة التوبة 90.

(4) التوبة 101- 102.

يردون الى عذاب عظيم)[1] فبدوية الاعراب واضحة بانهم (حولكم) ومقابلتها بـ (أهل المدينة) تعين ذلك.

ومن الطبيعي ان العقلية البدوية لا يمكن ان تدرك وتستوعب الدين الجديد بسهولة ويسر، لطبيعة الحياة القاسية التي يحياها الاعراب، ولذلك كان موقفهم من الدعوة موقف المستخف غير الملتزم بتعاليم الإسلام. ولذلك كثر المرتدون بينهم والنا كثون بالعهود والذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، والقرآن يحكم فيهم بقوله: (الاعراب أشد كفرا ونفاقاً واجدر ان لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم، ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم)[2].

هؤلاء الاعراب وقفوا من الدين الإسلامي بالذهنية المتعصبة المغلقة التي لا تدرك معنى الدين وامر الرسالة وقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيلهم الجهد والعناء، فكانوا يمنون عليه اسلامهم، قيل: قدم عشرة رهط من بني اسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول سنة تسع للهجرة فهيم حضرمي: (يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا بعثاً) فنزل فيهم قوله تعالى: (يمنون عليك ان اسلموا قُلْ لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين)[3]، وقد دخل كثير من الاعراب في الاسلام لحاجتهم الى العطاء لا رغبة في الايمان، فقد جاء في الاخبار: أن نفرا من بني أسد ثم من بني الحلاف بن الحارث قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة، فاظهروا شهادة ان لا اله الا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وافسدوا طريق المدينة بالعذرات، واغلوا

---

(1) التوبة 97- 98.

(2) الحجرات 17 وانظر النويري –نهاية الارب 30/18.

(3) الحجرات 14 ونهاية الارب 31/18.

اسعارها، وكانوا يقدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون: (اتتك العرب بانفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالاثقال والعيال والذراري- يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم- ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان...) ويريدون الصدقة ويقولون: أعطنا. فأنزل الله سبحانه فيهم: "قالت الاعراب آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا" الآيات[1] وقد كانت الاعراب تبطئ على الرسول ولا تجيبه اذا دعاها الى الجهاد، فكان قد استنفرهم الى الحديبية فتخلفوا عنه، وخرج مع رسول الله المهاجرون والانصار ومن لحق به من العرب[2].

وما كانت الاعراب -الا القليل- تنظر الى الرسول النظرة الدينية التي تراها العرب، بل كانوا يعدونه رجلاً اوتي السلطان على العرب، فيطيعونه على انه رئيس مقتدر لا نبي مرسل.

وفي هؤلاء الاعراب كان المتعصبون من الكتاب ومن المستشرقين يوسعون القول والتقول حتى يسحبوا مفهوم الاعراب على كل العرب، وهؤلاء غير أولئك. ومن هنا كان غلو اوليري[3] وابن خلدون[4] وغيرهم ممن اعتبروا الاعرابي بوصفه الذي جاء في القرآن ممثلاً لمواطن الجزيرة العربية كلها، غير ملتفتين الى سكان الامصار والقرى، واهل الدعوة والحضارة، وحملة العلم والعمران من العرب.

على انه حتى في اولئك الاعراب من يؤمن بالله خالص الايمان وينفق في سبيله مُبتَغياً رحمته ورضوانه، وفي هؤلاء كان قول الله تعالى: (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور

---

(1) الحجرات14 ونهاية الأرب 31/18.

(2) المصدر السابق.

(3) انظر تفصيل رأيه في فجر الإسلام ص33.

(4) المقدمة ص121- 122.

رحيم)[1]

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب المسلمون ينظرون الى الاعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب، وكانوا لا يرتضون لاعرابي تحضر ان يتبدى، من ذلك ما روى عن النابغة الجعدي حيث اشتاق الى قومه فدخل على عثمان بن عفان فقال: (استودعك الله يا امير المؤمنين، قال: واين تريد يا ابا ليلى قال: الحق بأبلي فاشرب من البانها، فاني منكر لنفسي، قال عثمان: اتعربا بعد الهجرة يا ابا ليلى اما علمت ان ذلك مكروه قال: ما علمته، وما كنت لاخرج حتى اعلمك)[2] هذه النظرة غير المطمئنة الى الاعراب فسحت مجال القالة حول الاعراب وعليهم فهون اناس من شأنهم، واسرف آخرون في وصفهم بكل منقصة وتوحش وطيش وسفه، وهذا ضرب من التجني لا يتفق والنظرة العلمية المحصة، وإذا صدق بعض ذلك الوصف على قسم من القبائل، فإن التعميم لا يصح ولا يصدق، وخاصة اذا عرفنا ان كثيراً من اولئك الاعراب من سكن الحواضر والقرى، وكان للقبيلة الواحدة حاضرة وبادية، والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي، وكثيراً ما تحيا القبيلة الواحدة حياتين: يستقر بعضها المدر فيتحضر ويسكن بعضها ظواهر القرى فيكون في اهل الوبر متبدياً، مثال ذلك قريش حيث يذكر عنها صاحب اللسان: (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر لأن البطحاويين من قريش حاضرة وهم قطّان الحرم والظواهر اعراب بادية، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة)[3]. وكذلك جُهَيْنَة كان منها من يسكن في الوبر دون المدر، في نواحي جبلي رضوى وعزور[4]، بينما يسكن قسم آخر منها

(1) التوبة 99.

(2) الأغاني 10/5 ط الدار وطبقات الشعراء ص106- 107.

(3) لسان العرب- ابن منظور مادة (ضما).

(4) عرام بن الاصبغ- أسماء جبال تهامة وسكانها ص7.

المدر في ينبع: (وهي قرية كبيرة غناء... فيها عيون غزيرة الماء) ويسكن قسم ثالث منها الصفراء: (قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها) (1).

وأولئك الذين سكنوا البادية لم يكونوا كلهم اعرابا بعيدين عن الايمان موغلين في الصحراء قست قلوبهم وغلظت اكبادهم، بل منهم من كانوا قريبين من المدن، مطيفين بها متأثرين بعاداتها آخذين من حضارتها بسبب، فقد ذكر عرام بن الاصبغ في حديثه عن السوارقية قال: (قرية غناء كثيرة الاهل... كان لبني سليم فيها مزارع ونخل وفواكه كثيرة... وهم بادية الامن ولد بها فانهم ثابتون بها والآخرون بادون حواليها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريقي الحجاج) (2).

وكان الرسول الكريم يفرق بين الاعراب الموغلين في الصحراء والاعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الاسلام، فقد روى عن ام المؤمنين عائشة انها قالت: (لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نقبل هدية من اعرابي، فجاءت ام سنبلة الاسلمية بلبن فدخلت به علينا فأبينا نقبله، فنحن على ذلك الى ان جاء رسول الله ومعه ابو بكر فقال: ما هذا فقلت: يا رسول الله هذه ام سنبلة اهدت لنا لبناً وكنت نهيتنا ان نقبل من احد من الاعراب شيئاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوها فإن اسلم ليسوا باعراب هم أهل باديتنا ونحن اهل قاريتهم، اذا دعوناهم اجابوا، وان استنصرناهم نصرونا) (3).

يتعين من هذه النصوص ان المقصود بالبادية انما هو ظاهر القرية او ضاحيتها وما احاط بها، وان كثيراً من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر متصلين بها مختلطين بسكانها، وهم غير

---

(1) المصدر السابق ص8.

(2) نفس المصدر ص65.

(3) ابن سعد –الطبقات الكبير 215/8 ط ليدن.

تلك القبائل الموغلة في الصحراء البعيدة عن العمران الذين قست قلوبهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق.

ومن كل ذلك يزداد حذرنا وارتيابنا من الاحكام التي تطلق على العهد الجاهلي، والتي تصوره على انه عهد جهالة وبداوة واعرابية بعيدة عن الحضارة والارتقاء، من غير مراعاة للفروق الواسعة بين البيئات الصحراوية وبيئات البادية القريبة من المدن او القرى، والتي كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد، مواكبة لركب الحضارة، متسجيبة لداعي الاسلام.

الفصل الثاني

الحياة السياسية

(1)

القرن السادس هو الزمن الذي مرت به احداث العصر، وإن لم تقف عنده او تبدأ به. وبادية نجد هي مسرح الاحداث التي تدور حولها سياسة العصر وتتأثر بها كثرة القبائل التي سكنت هذه المنطقة، وان كان اثر الاحداث يتجاوز هذه البقعة ويمتد منها الى الجوانب المحيطة بهذا الاقليم، حيث الحجاز، وبلاد الشام، والعراق، والبحرين، واليمن.

وإذا ألقينا نظرة على مصور هذا العصر وتوزيع القبائل فيه فماذا نجد:

ان جغرافي العرب يتفقون على تقسيم الجزيرة العربية الى اقسام خمسة: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن. وان اختلفوا في ضبط وتحديد هذه المناطق[1]. وقد توزعت القبائل- بعد الهجرات القديمة[2]- على هذا الشكل:

1. القبائل العدنانية:

نزلت قريش في مكة وما جاورها[3] ومزينة في جبال رضوى وقدس وآرة وما حولها من ارض الحجاز[4] وسكنت فهم وعدوان جبال

---

(1) ينظر لتفصيل ذلك في صفة جزيرة العرب- الهمداني 48 وما بعدها، ومعجم ما استعجم البكري 7/1 وما بعدها (السقا 1945) ومعجم البلدان- ياقوت 76/2 ومن الكتب الحديثة الجيدة تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي 86/1- 147.

(2) ذكر المؤرخون هجرات قديمة للعدنانيين على اثر غزو ملك آشور بلاد العرب وهجرة القحطانيين المعروفة في اليمن. الاغاني 78/13 ط الدار ومعجم البكري 19/1.

(3) السيرة النبوية- ابن هشام 124/1 ط القاهرة 1955.

(4) معجم البكري 88/1 ط السقا 1945 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

السراة في الحجاز ايضاً، وتجاورهم قبيلة هذيل[1]. واستقرت ثقيف في الطائف بعد اجلاء بني عدوان وبني عامر منها[2]. أما ديار هوازن فكانت بين غور تهامة الى ما والى بيشة وناحية السراة وحنين واوطاس[3]، ونزل الحجاز من القبائل القيسية ايضاً، بنو هلال واكثر بني سليم[4] وكان منزل كنانة في أرض تهامة[5].

أما في نجد: فبنو عامر بن صعصعة قبيلة لبيد، وديارهم غربي نجد مما يلي الحجاز[6]، وكانوا أول امرهم يشتون في نجد ويصيفون في الطائف، فلما قوي امر ثقيف اجلتهم عن الطائف[7]، وديار بني كعب ابن ربيعة بالفلج وباديتها[8]، وغطفان موضعها بالحاجر[9]، ومنازل بني اسد مجاورة لمنازل طيئ القحطانيين[10]، وهؤلاء الاخيرون بين جبلي آجأ وسلمى، وهنزلت ضبة وتميم[11] بلاد نجد، ثم انحدروا حتى خالطوا اطراف هجر، ونزلوا ما بين اليمامة وهجر، ومضى بنو سعد ابن تميم فحلوا رمل يبرين وخالطوا عبد القيس في بلاد قطر، وذهبت طائفة منهم الى عُمان[12]

---

(1) معجم البكري 88/1.

(2) نفس المصدر 77/1.

(3) معجم البكري 87/1.

(4) معجم البلدان –ياقوت 250/2.

(5) معجم البكري 88/1.

(6) معجم البكري 90/1 وان كانوا قد تنقلوا في اكثر من موضع.

(7) نفس المصدر 77/1.

(8) نفس المصدر 90/1.

(9) شرح ديوان زهير ص326 ط دار الكتب.

(10) ديوان عبدي بن الابرص ص8.

(11) معجم البكري 90/1 والاغاني 10/19 ماسي حول وثوب تميم على البيت الحرام.

(12) نفس المصدر السابق.

أما في اليمامة، فقد نزل بنو باهلة بن اعصر، وبنو تمير[1]، وكذلك بنو تميم[2]، أما حاضرة اليمامة (الحجر) فهي لبني حنيفة[3]، وبعد حرب بكر وتغلب انتشرت بكر وعنزة وضبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين حتى اطراف العراق[4]. اما قبائل ربيعة: فقد نزلت عبد القيس البحرين بعد ان اجلت قبيلة اياد عنها، وسار فريق من عبد القيس الى عمان وجاوروا الأزد في بلادهم[5]. ونزلت قبيلتا تغلب والنمر بن قاسط حول نهر الفرات من أرض الجزيرة (جزيرة آقور)[6]، ونزلت اياد- بعد ان اجلتهم عبد القيس عن موطنهم- العراق في سنداد وعين أباغ، واصطدموا بالفرس في معارك كان من نتائجها ان تشتت شملهم، فلحق فريق منهم بالشام ودانوا للغساسنة، ودخل فريق آخر بلاد الروم[7].

2. القبائل القحطانية:

أما القحطانيون فأصلهم من الجنوب، وهاجر اكثرهم الى الشمال، الابقية منهم بقيت في اليمن وما حولها. فأما الذين هاجروا الى الشمال واستوطنوا هناك فمنهم: كندة التي رحلت الى نجد وأسست لها امارة في شمالي نجد وبادية الشام ودومة الجندل[8] والازد التي تفرقت اليمن فنزل فريق منها البحرين. وعرفت بـ (تنوخ)، وصعدت الى جنوبي العراق وأسست- لخم أهم عشائرها- دولة المناذرة في الحيرة[9]

---

(1) معجم البكري 90/1.

(2) معجم البكري 88/1.

(3) معجم البكري 85/1 ومختصر كتاب البلدان ص28 ط ليدن سنة "88م".

(4) معجم البكري 86/1.

(5) البيان والتبيين 121/1 والبكري 82/1.

(6) البكري 86/1.

(7) الأغاني 23/20 ط ساسي، انساب الاشراف 25/1، البكري 67/1.

(8) تاريخ ابن خلدون 38/2، ديوان عبيد بن الابرص ص8.

(9) تاريخ الطبري 427/1، تاريخ سني ملوك الارض ص94.

واستوطن فريق منها بلاد الشام –وهم آل جفنة بن عمرو بن عامر– فغلبوا الضجاعمة واقاموا دولة الغساسنة[1]. أما قبائل الاوس والخزرج– وهم بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياء– فنزلوا يثرب. وسكن بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم خزاعة. ونزل فريق من الازد عمان فعرفوا بازد عمان، وفريق آخر استوطن السراة، فعرفوا بأزد السراة او ازد شنوءة[2]. وحلت طئ في سمير وفيد في جوار بني أسد، ثم غلبتهم على جبلي اجأ وسلمى[3]. وتفرعت لخم الى فرعين الاول نزل العراق، آل نصر بن ربيعة الذين آل الامر اليهم بعد جذيمة الابرش، ومنهم كان امراء المناذرة في الحيرة[4].

والفرع الثاني من لخم نزل جنوبي بلاد الشام في فلسطين[5] وكذلك نزلت جذام جنوبي الشام في الارض الممتدة من حدود ايلة – العقبة– الى ينبع محاذية لساحل البحر الأحمر[6]، ونزلت الشام ايضاً عاملة (اخت لخم وجذام) جنوبي البحر الميت[7].

وفي الحجاز نزلت قبيلة خثعم ما بين وادي بيشة وتربة وما والاها، وجاورتها قبيلة بجيلة[8]. وسكنت قبائل سعد هذيم– عذرة وحوتكة وجهينة– في وادي القرى[9]. وانتشرت قبيلة بلي بين شمالي يثرب الى

---

(1) السيرة النبوية 131.

(2) السيرة 13/1 وفتوح البلدان 15/1 وتاريخ ابن خلدون 3/2.

(3) تاريخ ابن خلدون 2- 23.

(4) تاريخ ابن خلدون 2- 36.

(5) صفة جزيرة العرب 129.

(6) تاريخ ابن خلدون 37/2.

(7) المصدر السابق والصفحة وصفة جزيرة العرب ص129.

(8) معجم البكري 10/1.

(9) المصدر السابق 38/1 وتاريخ ابن خلدون 21/2.

تيماء فالعقبة[1]، وسكن بنو كلب دومة الجندل وبادية السماوة[2]. أما بهراء، فنزلت بأعالي الشام بين حلب وحماة[3].

أما القبائل القحطانية التي بقيت مقيمة في مواطنها، فأهمها:

همدان ومنزلها شرقي بلاد اليمن شمالي صنعاء[4]. ومذحج ومنزلها في تثليث ونجران ونواحيها[5]. والاشعرون شمالي زبيد، وكذلك قرب عك[6]، ومنزل مهرة بالشحر من بلاد اليمن[7]. وكانت قبائل حمير تنزل المنطقة الغربية لظفار حتى عدن وصنعاء[8].

(2)

على هذا الشكل استقرت القبائل العربية في الجزيرة وتجاور العدنانيون والقحطانيون، ولم يكن لهذه القبائل دولة تضمهم، ولا نظام موحد يسودهم، بل كانت كل قبيلة تكون وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة، وقد تجوز او ليري فأعطى القبيلة مفهوم الدولة[9].

وقوام القبيلة الاسرة، وما القبيلة الا اسرة كبيرة تتضخم فتكون قبيلة، وتتشطر القبيلة الى شطرين او اكثر، ويشمل كل شطر سلالة

---

(1) معجم البكري 90/1 وابن خلدون 21/2.

(2) معجم البكري 50/1 وابن خلدون 25/2.

(3) الاغاني 91/15 ط ساسي.

(4) صفة جزيرة العرب ص109 وابن خلدون 29/2.

(5) معجم البلدان -ياقوت 76/2 وابن خلدون 32/2.

(6) ياقوت 76/2 وابن خلدون 32/2.

(7) معجم البكري 27/1.

(8) ابن خلدون 15/2 اما قبيلة قضاعة من حمير فكانت في الشام ومنهم كان الضجاعمة الذين ملكوا الشام قبل الغساسنة. تاريخ ابن خلدون 24/2.

(9) اسماها اوليري: Patriarchal State

Oleary: Arabia before Mohammad P.8.

Smith: Kinship and Marriage in Early Arabia.

P. 3-4.

احد ابناء الجد الاكبر وتتسمى باسمه، وهكذا تستمر القبيلة في التضخم والانقسام على هذا المنوال[1] فرابطة القبيلة هي رابطة النسب والدم رابطة الاب الكبير الذي ينتمون اليه ويعرفون باسمه، وقد تكون القبيلة منسوبة الى الام -وهذا في القليل- مثل مزينة وبجيلة وخندف.

وهذه القبائل متشابهة في تكوينها ونظامها، فكل قبيلة تقوم عل أساس اشتراك ابنائها في الاصل الواحد والموطن الواحد، وقد يكون هذا الموطن غير مستقر متنقلاً مع المراعي، وتجمع افراد القبيلة تقاليد واعراف تتمسك بها وتحترمها، والرباط الاقوى في القبيلة هو العصبية، والعصبية كما يعرفها ابن خلدون (النصرة على ذوي القربى واهل الارحام، ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة)[2]

فالفرد في القبيلة حريص على هذه الرابطة، عامل من اجلها، باذل في سبيلها ما يملك حتى دمه. وافراد القبيلة متضامنون كلهم في المصائب والمسرات، والجريرة التي يجنيها الفرد يتحملها المجموع، وقد آمنوا بهذه الفكرة والتضامنية في الخير والشر حتى ظهرت في امثالهم فقالوا: "في الجريرة تشترك العشيرة"[3].

وللقبيلة رئيس او شيخ يتزعمها، ويكون عادة من ذوي السن، والخبرة، والحكمة والحلم، وسداد الرأي وبعد النظر، والثروة، والشجاعة، والكرم، وطلاقة اللسان بحيث يحوز رضا القبيلة واعجابها، وينال احترامها، فالقبيلة ترتضي لها رئيساً او شيخاً تتوافر فيه صفات الرجولة والبطولة، والنجدة، والكرم، وعراقة الاصل، وصفاء النسب. وهذه الخصال هي التي تؤهله القيادة والزعامة، ولم يكن من المستساغ في نظر العربي نظام الوراثة الذي عرف عند الملوك. وفي ذلك يقول عامر بن

---

(1) Smith: Kinship and Marriage in Early Arabia P. 3–4.

(2) مقدمة ابن خلدون ص138.

(3) مجمع الامثال –الميداني 14/2.

الطفيل[1]:

انى وإن كنت ابن سيد عامر

وفارسها المشهود في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة

ابى الله ان اسمو بأم ولا أب

ولكنني احمي حماها وأتقى

اذاها وارمي من رماها بمنكب

والرئيس هو الذي يقود القبيلة في حروبها، ويقسم غَنَائِمَها، ويستقبل وفود القبائل، ويقوم بواجب الضيافة، ويعين المحتاج، ويقيل العاثر، ويفك اسرى قبيلته، ويتحمل القسط الاكبر من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات، فكل عظيمة يعصبونها برأسه، ومن ذلك قالوا: (سيد معمم) يريدون ان كل جناية يجنيها احد في العشيرة معصوبة برأسه[2] ولم يكن شيخ القبيلة مستبداً برأيه، بل يستعين بشيوخ القبيلة وذوي الرأي والشرف فيها، يستشيرهم اذا حزب الامر.

وكان افراد القبيلة يتمتعون بحرية في ظل النظام القبلي، ولهم حقوق متساوية لا يتميز بعضهم على بعض، وفي مقابل هذا كان على الفرد في القبيلة ان يخضع لرأيها ولا يخرج عليه، ولا يكون سبباً في تفريق كلمتها، وتشتيت وحدتها، او الاساءة الى سمعتها فإنه اذا غلا في ذلك وكثرت جرائره عرض نفسه للخلع، والخلع أشد عقوبة توجه للفرد في المجتمع البدوي، وفي اللسان "والخليع الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها اولياؤه، فيتبرأون منه ومن جنايته"[3]. ولذلك نجد ان افراد القبيلة جميعاً يحرصون على سمعة القبيلة ومصالحها وصيانة حقوقها، وان احدهم

---

(1) انساب الاشراف البلاذري 179/2 والشعر والشعراء ص192 ط ليدن وفيها خلاف.

(2) عيون الاخبار- ابن قتيبة 226/1.

(3) اللسان مادة (خلع).

ليضحي لها بماله ونفسه، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته، يجد أن تحقيق تلك الحرية في نطاق القبيلة وعصبيته لها.

على ان هذه العصبية لم تكن واسعة الحدود بحيث تشل فكرة الامة والجنس العربي بل كانت على الغالب ضيقة الحدود، لا تكاد تتجاوز حدود البطن، او القبيلة في مفهومها الضيق، ولذلك نجد كثيراً من بطون القبيلة الواحدة في صراع وقتال[1]. على الرغم من شعورها بوحدة نسبها. فكانت العصبية للرهط او البطن، تطغى على العصبية الجامعة للقبيلة، فما قولك بالشعب او الامة.

ومصلحة القبيلة هي وحدها التي تحدد صلاتها بالقبائل المجاورة لها، سواء ربطتها بها رابطة النسب، أم لم تربطها. وربما آثرت القبيلة بدافع المصلحة أو الجوار او الضعف محالفة قبيلة أخرى، وتنضم القبيلة الضعيفة عادة الى قبيلة قوية، تحميها وترد عنها العدوان[2].

والحلف -كما هو ظاهر من اسمه- بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم، فكانت المحالفات تتم بمظاهر دينية، ليشعر المتحالفون بخطر هذا التحالف، فهم ينحرون هدياً، ويغمسون أيديهم في دمه، ولذلك سميت اليمين المغلظة (غموساً) أو كانوا يغمسون أيديهم بطيب، وقد عرف من ذلك حلف المطيبين الذين تعاقد فيه بنو عبد مناف، وبنو زهرة، وبنو تميم، وبنو أسد، ضد بني عبد الدار وأحلافهم، أو كانوا يوقدون ناراً -فعل المجوس- كما فعلت قبائل مرة بن عوف الذبيانيين حين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم فسمي حلفهم

---

(1) كما القتل فرعاً بني عامر -بنو جعفر بن كلاب، وبنو أبي بكر بن كلاب بسبب ابن ضبا الاسدي- النقائض ص533 ط اوربا وكذلك قتال بني جعفر والضباب في يوم هراميت النقائض ص937 ومعجم البلدان 4500/8 وكحرب الفساد بين بطون طئ

(2) معجم البكري 53/1 ط السقا.

باس (المحاش) وغير ذلك[1]. وحين تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون الكيد عنها، وللقبيلة الحق في أن تنفصل عن الحلف متى شاءت، لتنضم الى قبائل أخرى في أحلاف غيرها، ولذلك كثيراً ما تضعف بعض الأحلاف وتحل محلها أحلاف أخرى. وكانت بعض القبائل -وهي قليلة- تجد في نفسها القوة والعزة فلا تدخل في حلف من الاحلاف. وأولئك يعرفون بـ (جمرات العرب)[2].

كانت القبائل تسعى الى المحالفات طلباً للامن، ودفعاً للعدوان، وايثار للعافية ومع ذلك لم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لاتفه الأسباب، بل ربما كان الحلف من أسباب الحرب، تسعى اليه القبيلة اذا هي طلبت ثأراً عجزت عنه، أو نزلت بها مصيبة قعدت دون دفعها.

وحياة القبائل بعد ذلك سلسلة حروب ومنازعات، تنشب لأسباب ذات خطر او ليست بذات خطر، وأهم خصوماتهم تقوم على مراعي السوام ومواقع المياه، والغزو الذي اتخذوه وسيلة من وسائل العيش، والثأر الذي لا يغسل عارَهُ الا الدم، وبذلك كانت حياتهم عمادها الحرب والغارة. والاستعداد توقعاً للخطر، فهم شاكو السلاح، حاضرو العدة، معتصمون بصهوات جيادهم، يجدون في قعقعة السيوف ووقع الاسنة وصهيل الخيل، استجابة لمعاني البطولة والقوة في نفوسهم. وقد سميت حروبهم ووقائعهم اياماً لأنهم يتقاتلون نهاراً فإذا جاء الليل حجزهم وفرقهم، فإذا حل اليوم الثاني عادوا للقتال.

وأيام العرب كثيرة بحيث يقال ان ابا عبيدة (معمر بن المثنى-

---

(1) تاج العروس (محش).

(2) زهر الاداب- الحصري 25/1 ط السعادة 1372 هـ/ 1953م

211 هـ) الف كتاباً[1] جاء فيه ذكر مائتين والف يوم، ولم يصل الينا هذا الكتاب. ولكن كتابه شرح النقائض، حفظ طائفة كبيرة من تلك الايام. وقد ذكر الميداني في كتابه (مجمع الامثال) اثنين وثلاثين ومائة يوم ضبط اسماءها وبين احداثها والقبائل التي اشتركت فيها.

وقد كانت الكتب التي عَنِيَتْ بالأيام[2] دواوين وملاحم رائعة صادقة، حفظت ذلك الشعر، الذي ما زالت روعته وفخامته تهز سامعيه، وتبعث فيهم روح البطولة والبسالة والحماسة.

(3)

وحياة العرب في الجاهلية لم تكن مقتصرة على هذا الشكل القبلي العصبي الضيق، الذي تتحكم فيه الحمية، وتعيث به العصبية والنزعات الفردية، فقد انشأ العرب في قلب الجزيرة وأطرافها دولا وممالك واذا شئت الدقة، امارات، ونعرف منها –في هذه الفترة التي سبقت الاسلام– ثلاث امارات: امارة المناذرة في العراق. والغساسنة في الشام، وكندة في شمالي نجد عند دومة الجندل. وقد كان حظ الامارتين الاوليين عظيماً، من الترف والرخاء، والحضارة، وقوة السلطان.

فاما المناذرة: فقد اتخذوا الحيرة مستقراً لهم وعاصمة[3]. وهم من قبيلة لخم اليمنية. وقد جاءوا العراق هم وبعض قبائل عربية –عرفوا باسم تنوخ– في حوالي القرن الثالث الميلادي[4] ونشأت امارة المناذرة في كنف الدولة الساسانية، التي رأت ان تستفيد من استقرار العرب على حدودهم

---

(1) الفهرست– ابن النديم ص89 ط اوربا.

(2) ام الكتب التي اعتنت بالايام: نقائض ابي عبيدة، والاغاني، وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير، والعقد الفريد، ونهاية الارب النويري، ومجمع الامثال للميداني وغيرها.

(3) تقع الحيرة على ضفة الفرات الغربية على بعد ثلاثة اميال من المكان الذي بنيت فيه الكوفة. والحيرة لفظ سرياني معناه الحصن المنتظم –ابن الجوزي 171/2.

(4) تاريخ الطبري 26/2.

الغربية، ليقوموا بحماية هذه الحدود ضد من يعتدي عليهم من الروم، او عرب البادية، وكان ذلك في عهد سابور الاول (حوالي 241- 272م). وأول ملك للمناذرة هو عمرو ابن عدي اللخمي ثم ولي بعده ملوك من أسرته، كان أهمهم واشهرهم (النعمان الاعور) [1] او السائح. صاحب قصري الخورنق والسدير، وكتيبتي الشهباء والدوسر. وكان معاصراً لـ (يزد جرد الأول) (399- 420) الذي ارسل اكبر ابنائه (بهرام جور) الى النعمان في الحيرة لينشأ في بيئة عربية، ويتعلم الفروسية وفنون الصيد، وينعم بصحة البادية، وقد اتقن بهرام اللغة العربية واحب اهلها، فلما تولى الحكم بعد ابيه قرب عرب الحيرة اليه، وذكر لهم نصرتهم اياه حين شب النزاع بينه وبين اخيه حول العرش بعد موت ابيهما يزد جرد [2].

ومن ملوك المناذرة اللامعين: المنذر بن ماء السماء (حوالي 514- 554) صاحب الغريين المشهورين، ويومَيْ النعيم والبؤس [3].

وكان المنذر معاصراً لـ(قباذ) ملك الفرس، وكان قباذ قد اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة. وأراد ان يغري المنذر بها. فلما رفضها المنذر عزله وولى الحارث بن عمرو امير كندة مكانه. الا ان الايام لم تمهل قباذ، فسرعان ما هلك وخلفه كسرى انو شروان، الذي كان يبغض المزدكية، فاعاد المنذر الى حكم الحيرة [4] وقد عرف المنذر بغاراته الشديدة ضد الغساسنة حتى قتل في يوم (أباغ) [5]

---

(1) سمي السائح لأنه كان تزهد وهجر الملك في زمن بهرام جور. أبو الفداء 70/1.

(2) مروج الذهب- المسعودي 402/2 اوربا.

(3) الاغاني 86/1- 88.

(4) المختصر في اخبار البشر 71/1.

(5) ابن الاثير –تاريخ الكامل 326/1.

وخلف المنذر ابنه عمرو بن هند (554- 569م) [1] الذي عرف بالمحرق، لأنه قتل مائة رجل من تميم حرقاً بالنار يوم أوارة باليمامة، وكان طاغية مستبداً كرهه الناس والشعراء فهجوه، وهو صاحب طرفة والمتلمس، وقصته معهما مشهورة، وفيه يقول الشاعر [2]:

أبى القلب ان يهوى السدير وأهله
وان قيل عيش بالسدير غرير
به البق والحمى وأسد خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجور

وقد قيل ان عمرو بن كلثوم التغلبي قتل عمرو بن هند ثأرا لكرامة امه ليلى، حين أرادت هند ان تذلها بأن تستخدمها [3].

وكان اخر ملوك المناذرة النعمان الثالث بن المنذر الرابع (580- 602) المكني بابى قابوس، الذي امتد سلطانه الى البحرين وعمان، وشهرت لطائمه التي كان اجارتها سبباً في حروب شغلت قبائل قيس ردحاً من الزمان. وكان الشعراء يؤمون بلاطه، ويحظون برعايته، فقد ذكرت كتب الادب اخباراً عن جملة من الشعراء منهم: النابغة الذبياني (وفي النعمان قال اعتذارياته المشهورة) والمنخل اليشكري، ولبيد، والمثقب العبدي، وغيرهم [4].

وكانت نهاية النعمان في سجن كسرى الثاني الذي نكل به ورماه

---

(1) الطبري 94/2 ط الحسينية -ويحدد جرجي زيدان تاريخ حكمه بسنة 563م. العرب قبل الإسلام ص185- 186.

(2) الاغاني 126/21 ط ساسي.

(3) الاغاني 52/11 ط الدار والشعر والشعراء 118- 119 ط ليدن. ويشير عمرو بن كلثوم الى ذلك في قوله من المعلقة:

تهددنا وأوعدنا رويدا   متى كنا لامك مقتوينا

(البيت في شرح المعلقات للتبريزي ص117 ط لابل)

(4) الاغاني 3/11 ط الدار.

تحت ارجل الفيلة فحطمته. لأنه قتل عدي بن زيد العبادي، وبسببه كانت وقعة ذي قار، حيث انتصرت قبيلة بكر -حمية للنعمان- على الفرس وعلى اياس بن قبيصة الطائي، الذي نصبه الفرس خلفاً للنعمان. وبقي امر الحيرة مضطرباً حتى فتح المسلمون العراق عام 633 م. واذعنت الحيرة لخالد بن الوليد(1)



واما امارة الشام، فقد اسسها الغساسنة، وهم -كالمناذرة- من عرب الجنوب نزحوا الى الشمال. مع قبائل كثيرة اهمها جذام، وعاملة، وكلب وقضاعة. وقد اقاموا امارتهم في شرق الأردن، ولم يتخذوا لهم حضارة بعينها. وإن كانت منطقة الجولان اشهر مناطقهم، واشتهرت الجابية كذلك بأنها كانت مقراً لملوكهم فعرفت بجابية الملوك(2). كما عرفت جلق -بالقرب من دمشق- من ضمن منازلهم.

وتاريخ الغساسنة غامض على خلاف تاريخ المناذرة الذي كان مكتوباً ومحفوظاً في بيع الحيرة. قال ابن الكلبي: "إني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة الحيريين ومبالغ أعمال من عمل منهم لآل كسرى، وتاريخ نسبهم، من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها"(3). أما تاريخ الغساسنة فقد كتب باليونانية ولم تكن صلة العرب باليونانيين مثل صلتهم بالفرس، وندر منهم من كان يتقن اليونانية، ولهذا اكثر الاضطراب في تاريخ الغساسنة عند مؤرخي المسلمين.

لقد قامت دولة الغساسنة في اواخر القرن الخامس الميلادي، (حوالي 492م)(4) بعد ان تغلبوا على الضجاعمة، فقربهم الرومان منهم

---

(1) المختصر في اخبار البشر 22/1 وتجارب الأمم- ابن مسكوية ص250- 252 ط ليدن.

(2) تاريخ العرب -جواد علي 152/4- 154.

(3) تاريخ الطبري 37/2 ط أوربا.

(4) يحدد دوبرسيفال تاريخ اقامة دولة الغساسنة بالشام بحوالي سنة 492م:

وجعلوهم درعاً واقياً لهم ولحدودهم ضد غارات الفرس والمناذرة.

وأول مؤسس لدولتهم هو جفنة بن عمرو مزيقياء، لذلك يسمون آل جفنة. واشهر ملوكهم واقواهم الحارث بن جبلة (528- 569م) المعروف بالحارث بن أبي شمر الذي عرفت حروبه ضد الفرس وضد المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة، الذي قتله الحارث في يوم حليمة.

وقد كان ذلك على عهد الامبراطور(جستنيان) الذي انعم على الحارث بالاكليل، واعترف بسيادته المطلقة على جميع عرب الشام، ومنحه لقب فيلارك، أي شيخ القبائل، وبطريق، وهو أعلى لقب بعد الامبراطور، وكان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة[1]

وخلفه ابنه المنذر بن الحارث (1569- 581م) الذي هزم أبا قابوس ملك الحيرة سنة 570م في معركة عين أباغ[2]. وكان آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الايهم الذي حارب المسلمين في صفوف الروم، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتد الى النصرانية. قال ابن خلدون: "ولما فتح المسلمون الشام وأسلم جبلة، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاولت النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته، وأحسن عمر نزله وأحله أرفع رتب المهاجرين، ثم غلب عليه الشقاء ولطعم رجلاص من بني فزارة، وطئ فضل ازاره وهو يسحبه في الارض، ونابذه الى عمر في القصاص، فاخذته العزة بالاثم، فقال له عمر: لابد ان اقيده منك، فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة 20هـ"[3] على ان الاخبار تصور جبلة وهو نادم على ردته، اسف على فعلته

C. De Perceval: Essai Sur L'histoire des Arabes. V.2. P. 189.

(1) Leary: Arabia before Mohammad. P. 21.

(2) تاريخ العرب قبل الاسلام- جواد علي 135/4.

(3) تاريخ ابن خلدون 112/2 ط بيروت.

في عصيان عمر، وتروى له في ذلك هذه الأبيات[1]:

تقصرت الأشراف من عار لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني فيها لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فياليت امي لم تلدني وليتني
رجعت الى القول الذي قاله عمر

وقد كان بلاط الغساسنة -كما كان بلاط المناذرة- مقصد الشعراء الذين نعموا بالهدايا والهبات، مثل حسان بن ثابت، والنابغة الذبياني، والاعشى، والمرقش الأكبر، وعلقمة الفحل، وغيرهم.

هاتان الامارتان العربيتان على حدود فارس والروم كانت العلاقة بينهما علاقة حرب ودماً وثارات، وقد قامت بين هاتين الامارتين، امارة ثالثة لم يكن ولاؤها لملوك فارس او الروم، بل كانت تمحض ودها لعرب اليمن من الملوك الحميريين (ملوك سبأ وذي ريدان ويمنات) وتلك هي امارة كندة ذات الاصل الجنوبي ايضاً، وقد قامت هذه الامارة في القرن الرابع الميلادي شمالي نجد، واتخذوا دومة الجندل حاضرة لهم[2]. وقد عرف من ملوك هذه الامارة -التي لم يكن لها شأن الامارتين السابقتين ولا حضارتهما- حجر الملقب بآكل المرار، الذي دانت له القبائل الكثيرة في نجد، وامتد نفوذه حتى اليمامة، وكان فيمن دان له بالطاعة قبيلتا بكر وتغلب، وان تمردت القبيلتان بعد عهده، حين ولي الحكم ابنه عمرو المقصور، ثم قامت الحرب بين بكر وتغلب ودامت طويلا قيل انها استمرت اربعين عاماً، وتلك هي حرب البسوس.

وكان خير عهود كندة، واشدها نفوذا، واوسعها رقعة، عهد الحارث بن عمرو، حيث دانت له قبائل نجد واصلح بين بكر وتغلب فدانتا له، وقد نظم حكمه بأن اقام ابنه شرحبيل على بكر، وابنه الثاني معد

---

(1) الأغاني 15/16 ط بولاق.

(2) تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي 215/3.

يكرب على تغلب، وولى على قبائل قيس عيلان ولده سلمة، اما الابن الرابع حجر ابو امرئ القيس الشاعر فقد حكمه على بني اسد. وكان من قوة الحارث، وسعة سلطانه، ان عقد محالفة بينه وبين امبراطور بيزنطة، وشن حملات على المناذرة، فوفق في غير معركة. ولما خلع قباذ ملك الفرس المنذر بن ماء السماء عينه حاكماً على الحيرة -كما مر بنا- غير ان الامور لم تستقم للحارث، فسرعان ما مات قباذ، وجاء كسرى انو شروان، فعزل الحارث واعاد المنذر الى حكم الحيرة[1] واشتد الصراع بين الحارث الكندي وبين المنذر، وكانت نهاية الحروب ان قتل الحارث وتداعت دولته، واختلف ابناؤه بعده، فاقتتلوا فيما بينهم فقتل كل من شرحبيل وسلمة، وجن معد يكرب وثارت بنو أسد على حجر فقتلته، وحاول امرؤ القيس ابنه ان يسترد ملك ابيه ويثأر من بني أسد فخابت مساعيه، وكانت نهايته حين رحل الى امبراطور بيزنطة ليستعين به على محاربة المنذر فلم يعنه ومات في تلك الرحلة.

ومهما يكن من شيء، فإن امارة كندة لم تبلغ من المجد والسلطان وأسباب الحضارة والرخاء، ما بلغته امارة المناذرة في العراق، ولا امارة الغساسنة في الشام، وكان عهدها قصيراً، ونفوذها مقتصراً على عرب البادية، على حين كانت الامارتان الاخريان تتمتعان بسلطانهما على سكنة الحواضر والبوادي على حد سواء.

هذه هي الصورة العامة للحياة القبلية والحضرية في القرن السادس، وهي صورة عرفت بعلاقات سكان الجزيرة وارتباطاتهم ونظمهم وطبيعة الحكم عندهم، ونظرتهم القبلية التي حددت صلاتهم بالدول الاجنبية. وهذا هو الجانب السياسي من هذه الحياة فما نصيب المنطقة من الحيوات الاخرى الاجتماعية والفكرية والدينية ذلك ما أحاول ان أبينه فيما يلي من فصول.

---

(1) المختصر في اخبار البشر 71/1.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

(1)

العرب في الجزيرة العربية قسمان: أهل وبر وبادية، وأهل مدر وحاضرة، فالمناطق التي يجودها المطر، وتكثر فيها المياه والابار، تكون مناطق زرع ورعي واستقرار، ثم تقوم فيها الابنية ويكثر العمران وتنشأ فيها اسباب الحضارة، وتنشط التجارة والاسواق، وسكان هذه المناطق هم أهل المدن التي كانت حول الجزيرة، في الحجاز واليمن والعراق والشام، وقليلاً ما تكون في قلب الجزيرة، لانها صحراوية او جبلية مجدبة الحياة فيها قاسية، فلا تتفق والحياة المستقرة، فيحتاج لذلك سكانها الى الرحلة والنقلة، طلباً لمساقط الغيث ومنابت الكلأ. وإذا قلنا الرحلة، فلا نعني بها التجوال المستمر الذي لا قرار فيه في ارض معروفة، او بقعة معينة، بل لكل قبيلة منازل في الصيف، ومنازل في الشتاء معلومة مبينة. ومع كل ذلك، فان هذا التقسيم الاجتماعي بين البدو والحضر، لا يفهم منه انقطاع البادية عن الحضارة او انعزالها، فإذا صح ان بعض القبائل المتبدية كانت منقطعة متوحشة، لأهم لها الا الغزو وانتجاع الكلأ، فإن كثرة القبائل كانت على صلة دائمة بالمدن، تتزود منها وتتأثر بها، وان حياة المدن نفسها كانت حياة قبلية، فما يثرب الا مستقر لقبيلتي الاوس والخزرج، والطائف كانت مصطاف بني عامر ثم مستقر ثقيف، ومكة مدينة قريش. والاوضح من هذا -في أن البادية لم تكن بمعزل عن الحضارة- ان القبيلة الواحدة قد يكون لها حاضرة وبادية في آن واحد: فقريش لها حاضرة ولها بادية، جاء في اللسان: (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر، لان البطحاويين من قريش حاضرة، وهم

قطان الحرم، والظواهر اعراب بادية، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة)[1]. وقبيلة مزينة كانت موزعة بين الجبال والقرى، فقسم منها سكن جبل ورقان[2]، وقسم آخر نزل في جبلي القدسين وقسم ثالث في جبلي نبهان وبقيتها استوطنت في قرية الفرع، وهي قرية كبيرة غناء كما يصفها عرام السلمي[3]. وكذلك الامر في جهينة فقد كان منها من سكن الوبر في نواحي جبلي رضوى وعزور، وسكن قسم آخر قرية ينبع ذات المزارع وعيون المياه الغزيرة، وسكن قسم ثالث من هذه القبيلة قرية الصفراء التي تكثر فيها المزارع والنخيل وعيون المياه، وموقعها فوق ينبع مما يلي المدينة[4]. والامثلة على هذا كثيرة.

تلك القبائل التي سكنت البوادي او التي سكنت الحواضر، لم تكن طبقة واحدة متساوية وانما هي ثلاث طوائف اجتماعية: أبناء القبيلة، ومواليها، وعبيدها.

(أ) فأبناء القبيلة الخلص الذين ينتمون اليها بالدم، هم عماد القبيلة وقوامها وعليهم واجب حمايتها والدفاع عنها والعصبية لها.

(ب) ثم الموالي الذين هم ادنى منزلة من أبناء القبيلة، وهؤلاء اما ان يكونوا: موالي بالجوار او الحلف، وهو ان يحتمي بعض الافراد بقبيلة اخرى غير قبيلتهم، فتتعهد بحمايتهم، او يحتمي بفرد من ابناء القبيلة فيكون مولاه ويعيش في ظل القبيلة ولكل منهما ان يرث صاحبه اذا مات قبله، وحقوق المولى –على كل حال– لا تبلغ

---

(1) اللسان مادة (ضحا).

(2) أسماء جبال تهامة وسكانها- عرام بن الاصبغ السلمي ص16 تحقيق عبد السلام هارون 1373 هـ.

(3) اسماء جبال تهامة ومكانها ص18- 19.

(4) المصدر السابق ص8.

حقوق الاصيل، فلا يستطيع المولى ان يجير على القبيلة كما يجير ابنها عليها، وسرعان ما تنعقد بين المولى وجاره رابطة قوية، فالحامي يحافظ على عَهْدِهِ وجواره، ويحرص على الوفاء له، فإنه كان من القبح العيوب عندهم نقض العهد والغدر، وهم يحقرون من يقعد عن نصرة جاره او يغدر به، حتى انهم كانوا يرفعون بذلك لواء في الاسواق تعبيراً وتشهيراً، قال الحادرة (قطبة بن أوس) يخاطب امرأة[1]:

اسميَّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ

رُفِعَ اللواء لنا بها في مجمعِ

او يكون المولى من الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم، فيستجير احدهم بقبيلة اخرى فتجيره، ويكون كأحد ابنائها له مالهم وعليه ما عليهم، ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك، كالشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد وغيرهم. على ان الخلع لم يكن هيناً ميسوراً، وما كان يحدث الا في حالات نادرة معدودة، فالفرد عزيز على قبيلته وهو حريص عليها حرصه على حياته.

ومن الموالي ايضاً العبيد المعتقون، فهم في حماية القبيلة وتكون العلاقة بين المعتق والعتيق ولاء، فلا ينسى العتيق فضل سيده وحسن صنيعه.

(ج) وطائفة ثالثة في القبيلة هي: العبيد، وكانوا عادة من اسرى الحروب او ممن يجلب من الأمم الأخرى، كالأحابيش (الرقيق الاسود) المجلوب من الحبشة وما حولها[2] وكان هؤلاء العبيد اقل مكانة من الموالي، ويقومون بالأعمال الشاقة المرهقة[3]، وكانت حالتهم بائسة مزرية، ولا سيما الذين كانوا في ملك اناس قساة القلوب

---

(1) المفضليات ص56 وحماسة البحتري ص216 ط ليدن او 141 ط لويس شيخو.

(2) المحبر- محمد بن حبيب ص306- 308. وقد ذكر ابناء الحبيشات في الجزيرة.

(3) تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي ص51- 52.

غلاظ الاكباد، وقد كان في مكة كثير من العبيد، وكانت قريش تستخدمهم في حراسة قوافلها التجارية وفي الحروب، يدل على ذلك اشتراك وحشي وغيره في يوم أحد، وقول كعب بن مالك في مقتل حمزة بن عبد المطلب:

فلاقاه عبد بني نوفل   يبربر كالجمل الأدعج

وقوله ايضاً يصف جيش قريش يوم أحد وفيهم العبيد:

فجئنا الى موج من البحر وسطه   أحابيش منهم حاسر ومقنع

(2)

ويجمع أبناء القبيلة هؤلاء –الخلص منهم والموالي والعبيد– ولاء، وعصبية، وتضامن، أحكم عراه حرصهم على شرف القبيلة ومجدها، فالاخلاص للقبيلة رباط وثيق بين الجميع، وعليهم ان يضحوا بكل شيء في سبيلها، وان الفردية التي عرف بها العربي لتفنى وتذوب في القبيلة، وهو يرى ان خير القبيلة خير له، وعليه ان يتحمل اوزارها، وينعم بخيرها، ويهب لنصرتها حين يدعوه الداعي، وهو مع قبيلته على كل حال، سواء عليه أكانت قبيلته تلك غاوية ام راشدة، ومصداق ذلك قول دريد بن الصمة[1]:

وهل أنا إلا من غزية أنْ غوت

غويت وإنْ ترشد غزية أرشد

ولم يكن أمر القبيلة فوضى –كما قد يبدو– بل كانت لها اصول مرعية في داخلها، تنظم علاقة الافراد بعضهم ببعض، كما ان لها نظامها الخارجي الذي يحدد صلاتها بالقبائل الاخرى، وهناك روابط عامة ومثل عليا يلتقى عندها العرب جميعاً، لانهم يرون فيها بغيتهم التي تكسبهم العزة والرفعة والمجد والذكر الحميد، وتلك المثل جماعها

(1) السيرة النبوية 136/2، 138 والأغاني 28/15 ط ساسي.

المروءة والخلال الطيبة، مثل: الكرم والامانة والوفاء وحماية الجار والحلم وسعة الصدر والاعراض عن شتم اللئيم والنجدة والقوة والصبر عند البلاء.

وأبرز خصلة يعتز بها العربي ويتميز بها عن غيره هي الكرم والسماحة والبذل، ومهما قيل عن أسباب الكرم ودوافعه عند العرب، من قسوة الحياة، وجدب الصحراء، والمحل وانتشار الفقر، ونفاد الزاد، فإن الكرم في العرب سجية متأصلة في نفوسهم، فهم يلقون الضيف بالبشر والترحاب ويبذلون له أجود ما لديهم من طعام وخير طعامهم لحم الشياه والابل[1]، ولم يكن كرمهم خاصاً ضيق الحدود، بل كانوا يكرمون القريب والبعيد، من يعرفونه ومن لا يعرفونه، حتى عدوهم اذا نزل فيهم استبشروا بمقدمه واكرموا وفادته، كانوا يكرمون سراة الناس ووجوههم، كما يكرمون فقراءهم من اليتامى والارامل والبائسين والمرملين، بل كان فخرهم باطعام الفقراء اشد من غيره، لم يشذ أحد منهم عن ذلك غني او فقير، وما قولك بقوم يغيرون على اموال الأغنياء فيقسمونها بين الفقراء، ويتساوى في طبيعة الكرم هذه السادة والعبيد والخلعاء والصعاليك، فهذا عروة بن الورد الفارس الصعلوك[2] كان يجمع الى خيمته فقراء قبيلته عبس والمعوزين منهم والمرضى، يتخذ لهم حظائر يأوون اليها ويفيض عليهم مما يغتم[3] ويكفي هذا الصعلوك شرفاً ان تتمنى ملوك المسلمين الانتساب اليه، نقل عن عبد الملك بن مروان انه قال: "ما كنت احب ان أحداً، ولدني من العرب الا عروة بن الورد لقوله:

---

(1) للتوسع والاستقصاء راجع كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي فصل الكرم ص308- 321).

(2) انظر اخلاق الصعاليك ومذهبهم وكرمهم في الحياة العربية ص299- 206 وكذلك كتاب الصعاليك في الشعر الجاهلي ليوسف خليف.

(3) الاغاني 78/3 ط الدار.

أتهـزا مـني أن سمنـت وأن تـرى
بجسمي مَسُّ الحق والحق جاهـد
لأنـي امرؤ عـافي إنـائيَ شـركـة
وأنـت امـرؤ عـافي إنائـكَ واحـد
أقَسّمُ جسمي في جسوم كثيرة
وأحسـو قـراح المـاء والمـاء بـارد[1]

وكانت العرب لا تترك وسيلة لهداية الضيفان اليها الا فعلتها، فهم يوقدون النار ليلا ليهتدي بضوئها من يراها، وكان بعضهم يوقد النار بحطب طيب الرائحة ليهتدي بهذه الرائحة من فقد نعمة البصر[2]، وهذا ضرب من الاريحية تتقطع دون أعناق اللئام. وقد عرف من أجواد العرب خلق كثير حتى ضربت بهم الأمثال، وما زال الناس يتمثلون بكرم حاتم وغيره، من أجواد العرب، وكانوا يتمدحون بالكرم، وهم يرونه فرضاً واجباً وقت الضيق والبرد والشدة والقحط، فكانوا ينحرون ويطعمون حين تهب الصبا، وقد خصوا الصبا لنها لا تهب إلا في البرد والجدب، وعرف أولئك بمطاعيم الريح ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة الذي نسبت اليه هذه الرياح فأمير الكوفة –الوليد بن عقبة- يمدحه بقوله[3]:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه   إذا هبت رياح أبي عقيل

ولم يكن لبيد وحده يفعل ذلك، بل فعل ذلك أبوه (ربيع المقترين)

---

(1) العقد الفريد 191/1. وانظر ديوان عروة ص138- 141 ط الجزائر 1926 العافي: طالب المعروف. انائك واحد: أي تأكل وحدك. القراح: الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره.

(2) بلوغ الارب 7/1- وانظر الحياة العربية ص315- 316 حيث يرفض الدكتور الحوفي هذا الرأي ويرى ان ايقاد النار بالمندل ضرب من الترف واظهار المقدرة والتباهي بالثراء ورغبة ان شموا رائحته الطيبة.

(3) طبقات الشعراء –ابن سلام ص114 والشعر والشعراء ص150، وكذلك الاغاني 94/14- 95.

قبله، ومثله في هذا كنانة بن عبد ياليل[1]. وكذلك فعلت قريش[2] وفعل قريش هذا له دلالته. فهي في مجتمع حضري تسيطر عليه روح التجارة، ومع ذلك لم يكن الكرم مقتصراً على البادية او محدوداً بحدودها وبظروفها، وأخبار الكرم والكرماء في الجاهلية والإسلام أوسع من أن تحيط بها هذه الالمامة[3].

وكانت طبيعة الحياة العربية تتطلب القوة والشجاعة والاقدام وركوب المخاطر والتجلد للمكاره والخطوب، وقد دعاهم الى ذلك طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارة والعداء فهم في حرب مضطرمة الأوار ولا تكاد تخبو حتى يشب ضرامها، وما اسرع ما تستعر الحروب لامور ذات خطر او ليست بذات خطر، ودواعي الحرب كثيرة عندهم فقد يتنافسون على شرف ورياسة، او يتنازعون على ماء او مرعى، او تكون طلباً لثأر قديم او غارة او مفاخرة ومنافرة، كانت تشتد الحرب بسبب من هذه الاسباب او غيرها، وان احدهم ليهب لنصرة قومه اذا سمع الصارخة، وهو يعلم السبب او لا يعلمه، وقد صور هذه الحال خير تصوير قريط بن انيف[4]:

قوم إذا الشر ابدى ناجذيه لهم

طاروا اليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

ويعزز هذه الحال ما روى عن عبد الله بن مروان، أنه سأل ابن

---

(1) ذكرهم الميداني في المثل (اقرى من مطاعيم الريح) مجمع الامثال 127/2.

(2) المحبر- محمد بن حبيب ص241.

(3) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي) ص308- 321 ط الرابعة.

(4) شرح الحماسة للمرزوقي 2729/1 الناجذ: ضرس الحلم، مثل لاشتداد الشر.

مستطاع العنبري: أخبرني عن مالك بن مسمع، قال: لو غضب مالك لغضب معه مائة الف سيف، لا يسألونه في اي شيء غضب"[1] لقد كان الغزو دينهم والغارة معاشهم، فكانوا يغيرون على الاعداء وعلى الاباعد، فإن لم يجدوا ذلك لا يترددون في أن يميلوا رؤوس الخيل نحو أقربائهم وذوي الارحام منهم، وقد عبر الشاعر القطامي (عمير بن شييم) عن هذا بقوله[2]:

وكن اذا أغَرْنَ على جناب	وأعوزهن نهب حيث كانا
اغرن من الضباب على حلول	وضبة انه من حان حانا[3]
وأحيانا على بكر اخينا	إذا ما لم نجد الا اخانا

ولابد في هذا المجتمع الحربي من القوة لأنها السبيل الوحيد للحياة الكريمة، وهم يحتقرون الضعف -احتقارهم الجبن- لأنه مظهر الذلة والهوان، وقد ملئ شعرهم بذكر الشجاعة والبطش والقوة، واكرم الموت عندهم في ساحات القتال وهم يمقتون الميتة حتف الانف في غير ميادين القتال، هذا الحطيئة يحتقر هذه الميتة بقوله[4]:

وشر المنايا هالك وسط اهله

كهلك الفتاة ايقظ الحي حاضره

وقد جاء أدبهم معبراً بصدق عن حياتهم الحربية، فوصفوا الحرب وهولها وابطالها وصرعاها وادوات القتال فيها، من قنا وصوارم ودروع وسهام وقسي[5]

وهذه الحروب المستمرة المهلكة لابد أن تكشف عن صرعى من

---

(1) العقد الفريد 105/1

(2) شرح الحماسة للتبريزي 81/1. وشرح الحماسة للمرزوقي 348/1.

(3) الضباب: تشمل ضبة وضبيبه وحسل وحسيل والحلول الحلات النازلة حولهم وفيهم.

(4) ديوان الحطيئة ص45.

(5) راجع الحياة العربية -فصل الحرب- ص230- 276.

كلا الجانبين المتقاتلين، ودم القتيل لا يذهب هدراً، بل لابد من الثأر الذي به وحده تطفأ غلة الموتور ولا يغسل الدم الا الدم، فأما الدية فكانوا يرونها ذلاً ومهانة لا يرضى بها الا الذليل وقد كان من حرصهم على اخذ ثأر القتيل أن توهموا حوله الاساطير، وذلك ما عرف عندهم بالصدى والهامة، يقول الشاعر[1]:

يا عمرو الاتدع شتمي ومنقصتي

اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقد "بلغ من كلفهم بالثأر انهم كانوا يتجانفون النساء والخمر والطيب لأنها ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين موتور، او لأنها قد تله وتشغل عن الجد في الثأر"[2] ولا شك ان الثأر شر كله. فاكثر الحروب، وجل ايام العرب، قامت على الثأر او بسببه وقد تنتهي الحرب ويتبدل الزمان، ويتغير الناس، ينسون كل شيء، الا الثأر فانه يغلي في الصدور (وتبقى حزازات النفوس كما هيا) وان جريرة الثأر لا تقتصر على القاتل نفسه بل تصيب ابناءه، واخوته، واسرته، وكل فرد في قبيلته.

واذا كان هذا مذهب العرب في الثأر والغلو بسفك الدماء، فإنهم لم يعدموا من كان يدعو الى السلم، ويحث على حقن الدماء وتحمل الديات، كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف حين اصلحا بين عبس وذبيان، وتحملا ديات القتلى[3] وكما صنع زهير بن ابي سلمى حين ندد بالحرب وكرهها الى الناس، وحبب اليهم السلم والمودة والصفح والتسامح وقد خصص جزءاً غير يسير من معلقته لذلك، وكما فعلت بهيسة بنت أوس الطائي حينما تزوجها الحارث ابن عوف، ورفضت ان يقربها حتى

---

(1) امالي القالي 129/1.

(2) الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص206.

(3) الشعر والشعراء ص61 ط أوربا.

يصلح بين عبس وذبيان، واحتمل الديات مع هرم بن سنان[1].

وكان العرب يحرصون على المثل العالية والخصال النبيلة، ويفخرون بأدائها والوفاء بحقها، ومن تلك الخصال حفظ الجوار والوفاء بالعهد فهم يحرصون على جارهم حرصهم على شرفهم، سئل اعرابي عن مبلغ حفاظ قومه فقال: "يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه"[2]

ويتمدح قيس بن عاصم بقومه فيقول[3]:

لا يفطنون لعيب جارهم   وهم لحفظ جواره فطن

وقد فطنوا لخصال الخير فذكروها في فخر بها، معتزين بنسبتها اليهم، كالنجدة وحماية الضعيف، والعفو عند المقدرة والحلم والتسامح، وكانوا مع ذلك يأبون الضيم ويأنفون من الذل والهوان، ولو ركبوا في سبيل ذلك المخاطر. وليس ببعيد ما ذكر عن عمرو بن كلثوم أنه أطاح برأس الملك انفة من أن تذل امه[4]. وقد علمتهم بيئتهم القاسية الصبر والجلد واحتمال المصائب ومضاء العزائم.

تلك الخصال كانت اذا لم يشتطوا فيها، خصال خير وشرف، على ان هناك آفات ينخر منها جسم المجتمع العربي، ومنها الخمر والميسر.

كانت الخمر عندهم من أهم متع الحياة، وقل ان تجد شاعراً في الجاهلية لا يذكر الخمر فهي مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة، يقول حسان بن ثابت[5]:

ونشربها فتتركنا ملوكاً   وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

---

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ص463.

(2) العقد الفريد 105/1.

(3) شرح الحماسة للمرزوق 1584/4 ط هارون واحمد امين 1953/1372.

(4) الاغاني 52/11 ط الدار، والشعر والشعراء ص118- 119.

(5) ديوان حسان ص1.

كانوا يشربون الخمر لأنها تهز الاريحية، وتبعث على الكرم، يقول عمرو بن كلثوم[1]:

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت   عليه لماله فيها مهينا

وقد عني العرب بالخمر ومجالسها، فوصفوها مدققين بوصفها، وذكر أنواعها وكؤوسها وندمانها، وكانت مجالس الخمر تستكمل بالغناء، حيث تغنى القيان او ترقص في هذه المجالس، وذكروا ان عبد الله ابن جدعان كانت له قينتان عرفتا بالجرادتين، كانتا تغنيان في مجلس شربه وقد وهبهما لأمية بن أبي الصلت حيث كان قد مدحه[2] وكان من العرب من يدمن شربها، فتعبث بعقله وسلوكه، حتى تضيق به قبيلته فتخلعه متبرئة من جرائره، مثل ما برئت كنانة من البراض ابن قيس، إذ كان سكيراً فاسقاً[3]. وكذلك كان طرفة حيث يشير الى ان قبيلته قد تحامته، وأفردته كما يفرد البعير الاجرب، لاسرافه في الخمر والمجون[4]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي

وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي

الى ان تحامتني العشيرة كلها

وافردت افراد البعير المعبد

على ان من عقلاء العرب في الجاهلية من اعرض عن الخمر وترفع عن شربها، لما تفعله في الإنسان من ذهاب العقل والحلم والوقار، وما تجلبه من مهانة وطيش وسفه، ومن اولئك الذين هجروا الخمر العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وكثير من الصحابة كعثمان ابن عفان، وعبد

---

(1) شرح المعلقات للتبريزي ص109 ط لابل، اللحز: البخيل او المسيء الخلق. امرت: اديرت.

(2) الاغاني 327/8 ط الدار.

(3) الاغاني 75/19 ط ساسي.

(4) شرح المعلقات للتبريزي ص42.

الرحمن بن عوف وأبي بكر، وعثمان بن مظعون، وغيرهم، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة انها قالت: "ما شرب ابو بكر رحمة الله عليه خمراً في جاهلية ولا اسلام"[1]، وقد قيل للعباس ابن مرداس في جاهليته: "لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جراتك، فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، وأصبح سيد قومي وأمسي سفيههم"[2] وقد ذكر ابو الفرج[3]: انه ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية الا ترك الخمر استحياء مما بها من الدنس. اما نساؤهم، فلم يعرف ان امرأة منهم شربت الخمر في جاهلية ولا اسلام[4].

وإذا ذكرت الخمر فيذكر معها القمار والميسر، وقد تمدحوا بالميسر لأنه وسيلة من وسائل الانفاق والكرم وإطعام الفقراء، واكثر ما يفخرون به عن البرد والقحط فقد كانوا يعطون الفقراء وذوي الحاجة نصيبهم من الجزور حين يربحون، وكانوا يرون ان من كمال الفتوة والكرم ان يقامر المرء، ويذمون من لا يدخل معهم في الميسر ويسمونه (البرم) يريدون به البخيل عديم المروءة. قال لبيد يمدح قومه بلعب القمار[5]:

وبيض على النيران في كل شتوة

سـراة العشـاء يزجـرون المسـايلا

كان فتيان الجاهلية يفخرون بانهم يتعاطون الخمر والميسر، ويتمتعون بالنساء، وتكاد تكون هذه الامور الثلاثة من مظاهر الفتوة عند بعض شبانهم، وقد جمعها المنخل اليشكري في قصيدته الرائية التي أولها[6]:

---

(1) كتاب الاشربة– ابن قتيبة ص34 ط دمشق 1947/1366 تحقيق محمد كرد علي.

(2) كتاب الاشربة ص25.

(3) الاغاني 332/8.

(4) كتاب الاشربة ص30.

(5) الديوان ص249، سراة العشاء: وقت الضيف. المسايل: القدح.

(6) شرح الحماسة للمرزوقي 562/2– 529 ط هارون.

إن كنت عاذلتي فسيري   نحو العراق ولا تحوري

وتتمثل خلال الفتى من هؤلاء في شخص طرفة الذي قرن بين الخمر والفروسية والتمتع بالنساء ولولا هذه الخصال الثلاث لما حفل متى قام عنه العائدون[1]:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودي[2]

فمنهن سبق العاذلات بشربة

كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكري اذا نادى المضاف محنباً

كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الطراف المعمد

لقد كانت متع الجاهلية متلازمة يكمل بعضها بعضاً، وقد كان من أسباب نكوص الاعشى عن الاسلام، ان ابا سفيان تصدى له وهو في طريقه الى المدينة ليسلم -وقد أعد قصيدة في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم- فقال له: أن محمداً يحرم الخمر والزنا والقمار فصرفه عن الإسلام[3].

لقد مر بنا ان المرأة كانت من متع الشباب في الجاهلية، والمرأة هنا هي القينة والجارية، أما الحرة فقد كان لها منزلة رفيعة في نفوسهم، فقد كانت تشارك الرجل في كثير من الاعمال تربي الاولاد، وتخرج الى

---

(1) شرح القصائد العشر- التبريزي ص43، ط لابل.

(2) العود: من يحضره عند المرض. المضاف: الذي نزلت به الهموم. المحنب: فرس بعيد ما بين الرجلين. السيد: الذئب المتورد: الذي ورد الماء. البهكنة: المرأة التامة الخلق.

(3) السيرة النبوية 386/1 وما بعدها، الاغاني 126/9 ط الدار.

القتال تضمد الجرحى وتغزل وتنسج، ومنهن من تحترف تجميل النساء او ارضاع الاطفال وتوليد النساء او تقويم الرماح، ومنهن من تنسج الثياب وتصلح الخيام وتطهي الطعام وتعمل في الحقل كما يعمل الرجل، ومنهن من ترعى الماشية وتطلى الابل الجرب وتجني الكمأة وتحلب اللبن، الى غير ذلك من الأعمال والصناعات[1] ومنهن الشريفات الموسرات اللواتي تخدمهن الجواري فتكفيهن هذه الأعمال، وكان الكثير منهن سافرات يقابلن الضيفان ويجلسن اليهم في حشمة ووقار، وكان لبعض النساء من بنات الاشراف حق في اختيار ازواجهن، على نحو ما عرف عن هند بنت عتبة حين استشيرت في خاطبها ابي سفيان[2].

وإذا حدثت الحرب فإنها تخرج -في بعض الاحايين- الى ميادين القتال، لتثيرهم الرجال وتحرضهم على الاستماتة وتنشدهم الاناشيد الحماسية وتهيء لهم النبال وتضمد الجرحى وتسقي الماء. وكانت سبباً في اثارة كثير من المعارك، فتدفع الرجل الى طلب الثأر وتعير القاعدين عن ذلك، قالت ام عمرو بنت وقدان تحرض قومها على الثأر لاخيها[3]:

فإن أنتم لم تطلبوا بأخيكم
فذروا السلاح ووحشوا بالابرق

---

(1) انظر (صناعات المرأة) في الحياة العربية للدكتور الحوفي ص316- 339 الطبعة الأولى.

(2) امالي القالي 198/1.

(3) شرح الحماسة للمرزوقي 1546/3 وحشوا: اطلبوا صيد الوحش. الابرق مكان فيه حجارة سود وبيض. المجاسد: الثياب المصبوغة بالجساد وهو الزعفران نقب النساء: ازرهن.

وخذوا المكاحل والمحاسد والبسوا

نقب النساء فبئس رهط المرهق

وقد نزلت المرأة من نفس العربي منزلة رفيعة، فهي الام والاخت والبنت والحبيبة، وقد عني الشعراء بها عناية كبيرة فهي مصدر الها مهم، بذكرها تنشط القرائح وتهيج العواطف وتهتز النفوس، وهم يفتتحون القصائد بمخاطبتها ومناجاتها، ويقفون على ديارها وقفة شوق وذكرى، ويبثونها اشواقهم واحاسيسهم، ويذكر الشعراء المرأة على انها الحريصة على البيت الحافظة للمال التي تلوم على الاسراف والتبذير، يقول حاتم[1]:

أماوى ان المال غاد ورائح

ويبقى من المال الاحاديث والذكر

أماوى انـي لا اقـول لسائل

اذا جاء يوماً حل في مالنا نذر

ومهما يكن من شيء فإن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي -وفي غير الجاهلي- دون مكانة الرجل بكثير، والعرب تحب الذكور لانهم جنود القبيلة ورجالها الحماة، أما المرأة فلا تغني في الحرب شيئاً، بل تكون عبئاً على القبيلة لانها مقصد الاعداء يريدونها سبية، وسبي المرأة عندهم عار لا يسكت عنه، ولا يقعد دونه، الا الوغد الذليل، وليس ادل على بغضهم للاناث من قول الله تعالى يصف حالهم: "وإذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون"[2] وقد كان منهم من يتخلص من الاناث بوأدهن -كما تشير الاية الكريمة- خوف الفقر او خوف العار، وقد نهى الاسلام عن هذه العادة البغيضة وندد بفاعليها فقال تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم

---

(1) ديوان حاتم الطائي ص39 ط لندن 1872.

(2) سورة النحل 58- 59.

واياكم وإن قتلهم كان خطأ كبيراً[1] على ان حوادث الوأد كانت قليلة ومحصورة في قبائل من الاعراب الجفاة، من مثل اسد وتميم ولم تكن عامة في القبائل[2] وكان من العرب من ينكر هذه الفعلة، ويبذل المال ليفتدي الموؤدات، كما كان يفعل صعصعة بن ناجية، قال الفرزدق يفتخر بفعال جده[3]:

ومنا الذي منع الوائدات وأحياء الوئيد فلم توأد

تلك حال المرأة الحرة، أما الأمة فهي دون الحرة منزلة، واكثر الاماء[4] من السبي او الرقيق، ومنهن القيان والجواري اللواتي يكثرن في حوانيت الخمارين، وكن متعة السكارى والفساق من اصحاب اللهو والمجون.

وقد جاء الاسلام فأكرم المرأة -امة وحرة- فدعا الى العناية بها والعطف عليها فحرم ان تعضل او تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها، كما حرم أنواعاً شائنة من الزواج، كانت عند الجاهليين، منها نكاح المقت[5] ونكاح الشغار[6] والجمع بين الاختين وان كانوا يكرهونه وينهى بعضهم

---

(1) الاسراء 31.

(2) المرأة في الشعر الجاهلي ص392- 304.

(3) الكامل- المبرد 276 ط لايبزك 1864، وديوان الفرزدق 203/1 ط الصاوي 1354/ 1936.

(4) يفرق الدكتور حوفي بين السبايا والاماء (فالسبايا عربيات يؤخذن قسراً في حرب او غارة ومنهن الدم، أما الإماء فغير عربيات يشترين بالمال للخدمة والتسري) المرأة في الشعر الجاهلي ص389 ط اولى.

(5) وهو ان يخلف على المرأة الابن الاكبر لزوجها- الاغاني 9/1. وكان الجاهليون انفسهم ينكرون هذا الضرب من النكاح، وكانوا يسمون الولد منه (مقتي) او (مقيت) وقد حرموا ضروباً اخرى من الزواج على انفسهم. وقد اقر الإسلام هذا التحريم المحبر- محمد بن حبيب ص325.

(6) ان ينكح الرجل وليته رجلاً، وينكح هو ولية ذلك الرجل بلا مهر. لسان العرب وتاج العروس ونهاية الارب 245/2.

عنه[1] كما نهى الإسلام عنه[2].

وعلى كل حال فإن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي –على ما فيها من الهنات والمساوئ- مكانة كريمة، والمرأة نفسها عرفت بالعفة والأدب والحرص على شرفها وكرامتها، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يتبوأ فيه العرض والشرف المكانة العليا، ويحرص العربي فيه على عرضه حرصه على الحياة.

(3)

أما مكاسبهم وحياتهم المعيشية، فلم يكن حظ العرب من الرزق يختلف عن حظوظ الأمم الأخرى من اختلافهم في الموارد والمكاسب، فسكان المدن العامرة في اليمن ومكة ويثرب والحيرة غير سكان البادية الموغلين في الصحراء، وسكان المدن أنفسهم يختلفون في مستوياتهم المعيشية، فمنهم التاجر الثري، ومنهم العبد الرقيق، ومنهم المسكين الضعيف، وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء، وفي البادية أغنياء موسرون، وفقراء مرملون، وكذلك حياة الناس منذ كانوا حتى اليوم. والذي يلاحظ ان الاحوال المعيشية في البادية قبيل الإسلام وابان ظهوره، كانت تنحدر من الرخاء الى الشدة والعسر، وآية ذلك ان الحاجة والعوز وسوء الحال، دفعت بعض الاعراب ان يتظاهروا بالدخول في الإسلام لا رغبة في الإيمان بل طمعاً في العطاء، كما توضح الرواية التي تقول: "إن نفراً من بني أسد ثم من بني الحلاف ابن الحارث، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، المدينة في سنة جدبة، فاظهروا شهادة ان لا إله الا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طريق المدينة بالعذرات وأغلو الأسعار، وكانوا يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: اتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالاثقال والعيال- يمنون على رسول

---

(1) الملل والنحل- الشهرستاني 317/3.

(2) سورة النساء 23.

الله صلى الله عليه وسلم- ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان... ويريدون الصدقة ويقولون: اعطنا، فأنزل الله سبحانه فيهم: "قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم.. الآيات" [1] وقد بين القرآن الكريم التباين في الحياة المعيشية حين ندد بالذين يتعاطون الربا، والذين يخسرون الكيل والميزان والذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وبخاصة في مجتمع مكة.

وقد قسم بعض المؤرخين المسلمين العرب الى مراتب: فهم ملوك وغير ملوك، وهؤلاء أهل مدر وأهل وبر وأهل المدر قسمان: زراع وتجار. أما الصناع، فكانوا قلة ليس لها اثر واضح، قال: "واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين: أهل وبر وأهل مدر، فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة، وأما أهل الوبر، فهم قطان الصحارى، وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلأ ومرتادين لمواقع القطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم المرعى، ثم يتوجهون لطلب العيش وابتغاء المياه، فلا يزالون في حل وترحال..." [2]

ان الحياة في الجزيرة العربية موقوفة على الامطار وما تدره عليهم السحب في مواسم معينة، وهي قليلة على اي حال، ولذلك لم يتيسر للبادية ان تقوم فيها زراعة منتظمة بل نشطت الزراعة في المناطق التي تتوفر فيها المياه من العيون والآبار والامطار، فعرفت الزراعة في الجنوب والشرق ومدن وقرى الحجاز، مثل الطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى. وقد صور القرآن الكريم حياة ثمود الزراعية المستقرة في غابر الزمان، قال تعالى:

---

(1) نهاية الارب 31/8 وسورة الحجرات 14.

(2) مختصر الدول- ابن العبري ص158- 159 وكذلك طبقات الامم –صاعد الاندلسي 65- 66.

"أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل وطلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين"[1] كما وصف المؤرخون المدن والقرى الزراعية التي كانت قبيل الإسلام، منها القرى المشهورة التي مر ذكرها، ومنها الواحات والقرى المنبثة في أنحاء من الجزيرة، وفي كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها) وصف لكثير من هذه القرى، قال المؤلف يصف قرية الصفراء: "قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة وماؤها يجري الى ينبع"[2]. وقال في وصف قرية السوارقية انها قرية "غناء كثيرة الاهل" وذكر حاصلات بني سليم: "فيها مزارع ونخيل كثير وفواكه، من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ" ثم بين ما عندهم من ابل وخيل وشاء كثير[3]، وكذلك الامر في قرى كثيرة كالفرع[4] وخيف سلام[5] وغير ذلك، وعلى كل حال فإن الزراعة حرفة الحضر في المدن والقرى وما حولها. اما أبناء البادية فكانوا ينظرون الى الزراعة على أنها عمل أهل الذلة والهوان، فهم ينالون أرزاقهم باطراف القنا والسيوف، يسعى للحرب منهم شباب مرد على خيل جرد، وقد صور الاعشى هذه النزعة حين عير أياداً بالزراعة فقال[6]:

لسنا كمن جعلت أياد دارها ... تكريت تنظر حبها أن يحصدا
قوماً يعالج قملاً أبناؤهم ... وسلاسلاً أجدا وبابا موصدا

ونظرتهم المترفعة هذه عن العمل الزراعي، جعلتهم قوما متكلين على الغيث، متتبعين لمواقعه، فمتى اهتزت بقاع الارض وربت رعوا أنعامهم

---

(1) الشعراء الآيات 146- 149.

(2) اسماء جبال تهامة وسكانها -عرام بن الاصبغ السلمي ص8- تحقيق عبد السلام هارون 1372هـ.

(3) اسماء جبال تهامة ص65.

(4) المصدر السابق ص19.

(5) نفس المصدر ص35.

(6) ديوان الاعشى ص231 ط محمد حسين اجدا: موثقة.

في زرعها، وشربوا من ريها، حتى إذا انسوا مراعي أخر تتبعوها وسعوا اليها، فهي قوام حياتهم -بعد الغزو- وحياة أنعامهم وسواء عليهم أكانت تلك المراعي في أرضهم وحماهم، أم كانت في أرض غيرهم، ومثلهم في ذلك قول القائل[1]

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

ولذلك تجمت الحروب، وكثرت المعارك، بسبب المراعي والمياه.

وقبل ان اذكر التجارة عمل العرب الكبير، أود أن أنتهي من ذكر الصناعة، لأنها ضيقة النطاق، ومحصورة في الحواضر والمدن، وقليلاً في البادية. ان البادية كانت تنظر الى الصناعة -نظرتها الى الزراعة- نظرة زراية واحتقار، ان نفوسهم لتأبى الامتهان بها، وكما عير الاعشى اياد بزراعتها، فقد عير عمرو بن كلثوم النعمان بن المنذر -وهو على ملك الحيرة- بأن امه من اسرة تمتهن الصياغة، قال عمرو[2]:

لحا الله ادنانا الى اللؤم زلفة والامنا خالا واعجزنا ابا
واجدرنا ان ينفخ الكير خاله يصوغ القروط والشنوف بيثربا

وقد كان جرير -فيما بعد- يلح على الفرزدق بتذكيره ان احد اجداده كان قيناً[3]. هذه عقلية البادية أما الحاضرة فنظرتها الى الصناعة أهون من ذلك وأن كان الاشراف يترفعون في جاهليتهم عن الصناعة. وكان اليمنيون اعرق في الصناعة واكثر خبرة ودراية من المضريين، فأهل اليمن صناع مهرة، ومن الصناعات التي اجادها اليمنيون صنع الاسلحة من سيوف ورماح ودروع، وقد شهرت بنسبتها الى صانعيها، او الى أماكن صنعها، فقالوا: السيوف اليمانية، والرماح الردينية، والقنا السمهرية.

---

(1) الروض الانف 174/2، والشاعر هو معاوية بن مالك معود الحماء عم لبيد.

(2) نهاية الارب 82/1.

(3) النقائض ص413 ط ليدن.

وفي الشمال كانت بعض الصناعات، كنسيج الثياب، وعمل الزرود والسروج والصياغة، وخاصة في مكة والمدينة.

اما البناء فما كان متقدماً بشكل ملحوظ، وكانوا يستعينون بعمال من الفرس والروم في تشييد ابنيتهم المهمة، كتجديد الكعبة او توسيعها، ويقال ان معاوية بن ابي سفيان لما اراد ان يبني دوره التي يقال لها (الرقط) في مكة، حمل لها بنائين من فرس العراق فكانوا يبنونها بالجص والاجر[1]، وكذلك بنيت القصور في الحيرة كالخورنق والسدير.

اما التجارة فكانت المهنة المربحة التي عرفها العرب وبرعوا فيها، وهي مهنة الحضر المتعلمين، ولم تكن ظروف البادية ولا طباع اهلها تعين على ان يبرعوا فيها، ولكن بعضهم كان يعمل دليلاً يرشد القافلة ان تضل في مجاهل الصحراء[2]، او خفيراً حامياً يمنعها من النهب والغارة[3]. وقد نشطت التجارة اول الامر في اليمن فامتدت تجارتهم بين الهند شرقا الى افريقية غربا، والى بلاد الشام والروم شمالاً، حتى اذا ما هدت السيول سد مارب وساءت حركة السوق واضطربت الاحوال السياسية، كسدت التجارة وانتقل النشاط التجاري الى ايدي القرشيين في مكة، فكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً، حيث رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن شتاء والى الشام صيفا، والى ذلك تشير الآية الكريمة: "لإيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف"[4]. وكذلك تسير تجارتهم الى الحبشة غربا والى الحيرة وبلاد فارس شرقا، وان فريقا من تجار قريش بلغوا بتجارتهم اقاصي بلاد العرب والعجم، فهاشم متجره الشام، وعبد

---

(1) الأغاني 281/3 ط الدار.

(2) المحبر ص189. والمغازي- الواقدي ص86 ط كلكتا.

(3) المحبر ص264 ورسائل الجاحظ ص65 ط بولاق.

(4) قريش 1- 2.

شمس متجره الحبشة، وعبد المطلب الى اليمن، ونوفل نحو العراق[1].

ولا شك ان هذه الرحلات كانت تحيط بها المصاعب والمخاطر، ولا تنتهي الى غاياتها الابشق الانفس، وذلك لبعد الشقة، ووعورة الطريق ومجاهل الصحراء، وغارات اللصوص من ذؤبان العرب وصعاليكها، وبخاصة من ذؤبان فهم وهذيل.

وقد كانت القوافل من الكثرة والضخامة بمكان حيث بلغت احداها خمسمائة والف بعير[2] كما بلغت احدى قوافل قريش ألفين وخمسمائة بعير ومائة رجل –على ما ذكر الطبري[3]– ولاهمية هذه القوافل، وكثرة حمولتها ودوابها، فقد كانوا يؤمنون الطريق، فيرسلون الرواد والمستطلعين قبل الرحيل، حتى يتعرفوا اخبار الطريق، كما حدث في غزوة بدر، فقد علم أولئك الرواد ان المسلمين يتربصون بقافلة قريش فاسرعوا الى مكة واستنفروا أهلها[4].

وكانت هذه القوافل تحمل الطيب والبخور، واللبان، والجلود والثياب العدنية، وتوابل الهند، كل هذه البضائع من اليمن والهند وافريقية الشرقية، وتأتي من الصين الجلود والمعادن والحرير[5]، ومن الحبشة الرقيق والصمغ والعاج، ومن العراق وفارس التمر والشعير[6]

ويحملون من الطائف الزبيب، ومن مناجم بني سليم الذهب، يحملون كل ذلك الى بلاد الشام، ويعودون حاملين الاسلحة والقمح

---

(1) المحبر 162، والسيرة 47/1.

(2) المغازي ص20.

(3) الطبري 261/2 ط الحسينية.

(4) السيرة 260/2.

(5) حضارة العرب– جوستاف لوبون ص106.

(6) الكامل– ابن الاثير 228/2 ط ليدن.

والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية وغيرها[1].

وكانت قوافل قريش تحمل الفضة (او القزدير) حيث استولى المسلمون في غزوة بدر الموعد (سنة اربع للهجرة) على قافلة لقريش فيها اموال ابي سفيان بن حرب، ففخر بذلك حسان بن ثابت وعير قريشا الهزيمة، فلما كان يوم احد، رد أبو سفيان بن الحارث على حسان بقصيدة منها هذا البيت:

حسبتم جلاد القوم عند قبابهم

كمأخذكم بالعين ارطال آنك

فقال ابو سفيان بن حرب يعاتب ابا سفيان بن الحارث: "يا ابن اخي لم جعلتها آنك، ان كانت لفضة بيضاء جيدة"[2] من كل ذلك نعرف ان قوافل قريش كانت تحمل الغنى والثراء والمال النفيس.

وقد استطاعت قريش[3] ان تجعل من مكة مركزاً تجارياً مهماً، تكدست فيه الاموال وكثرة فيه الثروة، وذلك لما كانت تتمتع به من مكانة دينية مقدسة، لأنها صاحبة البيت وسادنة الكعبة، وأرضها حرام وحرمها آمن، لا يحل فيه قتال ولا غزو[4]. وقد عقدت مع كل ذلك محالفات مع القبائل المجاورة، ولم يكن بينها وبين غيرها ثارات واحقاد، وما كانت تُمَنِّعُ لشعرائها ان يتعرضوا بالهجاء لغيرهم، بل هي تضرب على ايدي شعرائها الهجائين من مثل عبد الله بن الزبعرى، وتتكر أن يهجو بعضاً بعضاً[5]، ولم تعرف مكة بكثرة الخصومات والحروب،

---

(1) دائرة المعارف الاسلامية (مكة).

(2) طبقات الشعراء ص208- الانك: القزدير.

(3) لقد برعت قريش في التجارة وحذقت شئنها فسميت بهذا الاسم من تقرش المال قيل: (سميت بذلك لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا اهل ضرع وزرع، من قولهم فلان يتقرش المال، اي يجمعه (لسان العرب) (قرش).

(4) تاريخ اليعقوبي 28/1 ط اوربا.

(5) السيرة 418/2.

فابن سلام يفسر قلة شعر المكيين في أنهم: (لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا)[1]، اللهم إلا ان تدفع الى القتال دفعاً كما حصل في حروب الفجار، وقد استطاعت قريش ان تنشر الامن والسلام في أرضها، بحلفه عقدته واسمته (حلف الفضول)، كل ذلك هيأ لها الجو الطيب كي تنشط تجارتها فترتاد الصحاري والبوادي في أمن وطمأنينة، وهذا من فضل الله على أهل بيته، فقد قال سبحانه: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"[2]. قال الزمخشري في تفسيره لسورة قريش: "وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء الى اليمن، وفي الصيف الى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم" قال تعالى: "أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يُجْبَى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون"[3].

وكان للاسواق الاثر الكبير في رواج التجارة وتبادل السلع، وأهم الاسواق كانت تقام على مقربة من مكة، كعكاظ ومجنة وذي المجاز، والعرب تسعى الى هذه الاسواق من كل حدب وصوب، ليشهدوا منافع لهم، ويتناشدوا الاشعار، ويذيعوا الخطب، ويتحاكموا في خصوماتهم، ويتفادوا الاسرى، ويعقدوا الصلح، او يتفاخروا بالاحساب والمحامد والامجاد.

ولم تكن هذه الاسواق محصورة في منطقة واحدة، بل كانت تقام في قلب الجزيرة حينا وفي أطرافها في حين آخر، وفي أوقات معينة معلومة، ومن أسواقهم المهمة: سوق دومة الجندل في شمالي نجد، وسوق خَيْبَر، وسوق الحيرة، وسوق الحجر باليمامة، وسوق صحار ودبا بعمان، وسوق

---

(1) طبقات الشعراء ص217.

(2) قريش 3- 4.

(3) تفسير الكشاف 2/487 ط بولاق حجر 1281هـ وسورة القصص 57.

الحيرة، وسوق الحجر باليمامة، وسوق صحار وديا بعمان، وسوق المشقر بهجر، وسوق الشحر، وسوف حضر موت، وسوق صنعاء وعدن، ونجران، وغير ذلك من الاسواق الكثيرة[1]

وقد كان لهذه الاسواق الاثر الكبير في تنشيط حركة التجارة وازدهارها، كما كان لها الفضل في توافق العادات وحل المشاكل وامتزاج ثقافات امم مختلفة، وقد ساعد كل ذلك على الرقي العقلي والحضاري.

(4)

رأينا فيما مر بأن الحواضر كانت تعنى بالزراعة والصناعة والتجارة، أما البوادي فما كان بمقدورها ذلك بل انصرفوا لاكتساب العيش من غير هذه الموارد –مرت جملة منها في سياق البحث- وتذكر هنا عنايتهم بالانعام مصدر الكسب والحياة، وأهم حيوان البادية وأكثره نفعا واشده احتمالا لقسوة الصحراء، الابل. كانت الابل عماد الحياة عند العرب، يأكلون من لحومها، ويشربون من البانها، ويكتسون من أوبارها، ويصنعون بيوتهم منها، وعليها يحملون اثقالهم ويرحلون، قال الله سبحانه في ذكر الانعام وما جعل فيها من منافع لعباده: "والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس إن ربكم لرؤوف رحيم"[2] وقال سبحانه: "والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين"[3]. وقد

---

(1) الازمنة والامكنة –الباب الاربعون ص161- 170 وانظر المحبر ص263.

(2) سورة النحل 5- 7.

(3) سورة النحل 80.

أفاد العربي من الابل كل فائدة فلم يترك منها شيئاً إلا وجعل لنفسه فيه النفع فقد صنع من جلدها الاخفاف والقرب والسيور والانساع، واتخذ من عظامها ألواحاً يكتب عليها ومن بعرها وقوداً يصطلي بناره وينضج به طعامه، وإذا اشتد المحل ونزل الجدب فكان يصنع من وبرها ودمها بعض الأطعمة مثل (العلهز)[1]. والابل عند العرب خير المال، بها يقومون البضائع ويثمنونها، وبها يتقايضون ويفتدون الاسرى ويدون القتلى ويدفعون المهور للزواج ويدفعونها عطايا حيان تهتز أريحيّتهم. وكما أفاد العرب من الابل هذه الفوائد الكثيرة فكذلك عنوا بها عناية فائقة، كانوا يطلبون لها أجود المراعي، ويتخيرون مواطن الدفء لتوليدها، واهتموا بأسمائها وصفاتها وحركاتها، فوضعوا لكل عضو من أعضائها اسما بل اسماء وكثر ذكرها في أساليبهم، ودارت حولها تشبيهاتهم واستعاراتهم وضربوا بها الامثال، ونظموا فيها القصائد، وخاطبوها وناجوها وبثوها اشجانهم وعواطفهم كما يبث الخلُّ الحبيب.

كذلك عنو بالخيل، لانها من مظاهر العز والمنعة، فهي عدتهم عند الغارة، ومكسبهم في الغزو والحرب، وكانوا يرسلونها على الطريدة وفي السباق، وقد اهتموا بانسابها وانسالها وسموها بأسماء اشتقوها من صفاتها او الوانها ومن شياتها، مثل النعامة والحرون، وقرزل، والجون، وداحس، والغبراء، وغير ذلك. وكانوا يقربونها الى مساكنهم ويبنون لها الحظائر ويفضلونها في الطعام. وأن احدهم ليجيع عيالَهُ ويؤثر فرسه بالطعام، قال احدهم في فرسه (سكاب)[2]:

أبيت اللعن ان سكاب علق	نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا	يجاع لها العيال ولا تجاع

وللعرب مكسب اخر من طيب الرزق هو الصيد، فهم يدربون

---

(1) كتاب الاشربة –ابن قتيبة ص32.

(2) الصحاح (سكب) 148/1، بلوغ الارب 81/2.

الكلاب خاصة على اصطياد الفريسة ومطاردتها، ويقتنصون الحمر الوحشية والبقر والوعول والماعز الجبلي والظباء ووحوش الصحراء الأخرى.

على ان الصيد كان مكسب الفقراء والضعفاء، اما الفرسان وذوو الشرف، فما كانوا يرون الكسب الا في الغزو والغارة، الذي هو دأب ذوي البطولة والبسالة والشجاعة. ولذلك يهجو عمرو بن معد يكرب بني زياد، لأنهم اهل قنص وصيد، وليسوا اهلاً للحرب والقتال(1):

أبني زياد أنتم في قومكم
ذنب ونحن فروع اصل طيب

نصل الخميس الى الخميس وانتم
بالقهر بين مربق ومكلب

حيد عن المعروف سعى أبيهم
طلب الوعول بوفضة وبأكلب

تلك أهم الموارد والمكاسب التي كان عرب البادية يتميشون بها، وهم لا شك متفاوتو الرزق، منهم من يملك مئات الابل والانعام، ومنهم المعدم الذي لا يكاد يجد قوت يومه وبخاصة اذا قل الغيث وامحلت الارض وأجدبت الديار، على أنهم كانوا يتقوتون بالقليل من الزاد والبسيط من الطعام فغذاؤهم الشعير بعامة، وقد يضاف اليه التمر واللبن، وقد يكون جل هم الرجل منهم ان يقيم اوده بالاسودين الماء والتمر(2):

الاسودان أبرءا عظامي   الماء والتمر ذوا سقامي

ومن البديهي ان هذه الحياة القاسية من الشظف والحرمان، قد اكسبت العربي البصر وقوة الاحتمال والزهد، وقد اعتاد هذه الحياة الخشنة واصبح لا يرضى بها بديلا، حتى انه حين جاء الاسلام وكثرت

---

(1) الحيوان 2/309- 210 الخميس: الجيش. المربق: الصائد بالربقة وهي العروة في الحبل. المكلب: الصائد بالكلاب. الوفضة: جعبة السهام من ادم.

(2) المستطرف-الابشيهي 1/141.

الفتوح، واستوطن بعض الاعراب في المدن، وتحسنت احوالهم المعيشية، نجدهم يسأمون حياة الحضارة، ويملونها، ويشتاق بعضهم حياة الجوع والقسوة والحرمان في الصحراء، قال قائلهم[1]:

اقول بالمصر لما سائني شبعي   الا سبيل الى ارض بها جوع
الا سبيل الى ارض بها غرث   جوع يصدع منه الرأس برقوع

وقد ظلوا ابداً يحنون الى البادية، يحنون الى اهلها وهوائها ومياهها ورمالها وانعامها، وبهم عيمة الى البان ابلها[2]. يروى ان النابغة الجعدي دخل يوماً على الخليفة عثمان بن عفان، فقال: "استودعك الله يا امير المؤمنين، قال: وأين تريد يا أبا ليلى، قال: الحق بابلي فاشرب من البانها، فاني منكر لنفسي، فقال عثمان: اتعربا بعد الهجرة يا أبا ليلى، اما علمت ان ذلك مكروه، قال: ما علمته وما كنت لاخرج حتى أعلمك"[3] نعم كان النابغة منكراً لنفسه يدفعه الحنين الى البادية حنين الغريب الى وطنه، وهو ما يعرف اليوم بداء الوطن.

---

(1) عيون الاخبار- ابن قتيبة 322/3 ط دار الكتب 1348/ 1930 بالاصل (غرس) جوع برقوع: شديد.

(2) فتوح البلدان- البلاذري ص491 ط أوربا.

(3) طبقات الشعراء ص106- 107 والاغاني 10/5 ط الدار.

الفصل الرابع

الحياة العقلية

(1)

إن الصورة التي استقرت في كثير من الأذهان عن العصر الجاهلي، فيها كثير من الضلال والخطأ والاجحاف بحق ذلك العصر، فالذي يقرأ ما كتب ويكتب عن الجاهلية، يخيل اليه ان الامة العربية كانت امة جهل وعمى، قد عزلت عن العالم وعاشت غارقة في بحر من البداوة والفوضى والتوحش وليس لها ماض مجيد يشدها اليه، ولا حاضر قويم يحيى فيها معاني المروءة والهداية[1]. وقد كان لذلك دافعان: حب الاسلام والغيرة عليه أولاً، والشعوبية ثانياً.

لقد ذهبت طائفة من الكتاب المسلمين- بدافع من حرصها على الاسلام وغيرتها عليه –تسقط كل هنة ومثلبة في طباع الجاهلين وعوائدهم، فتضخمها وتوسع خرقها، حتى غدت الجاهلية عندهم حياة مظلمة سوداء لا خير فيها ولا نفع في اهلها، ظناً منهم ان ذلك مما يرفع من قدر الاسلام، والاسلام في غنى عن هذه المغالاة، لأنه لاشك في انه رفع العرب طبقات وبرأهم من الوثنية وكثير من الشرور. على ان العرب في الجاهلية كانوا مستعدين الى ان ينهض بهم الإسلام تلك النهضة العظيمة، فقد كان منهم عقلاء سارعوا الى الإسلام، فكانوا حماته، والامناء عليه، وناشري الوتية في الخافقين، وأولئك هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجنوده من أئمة المسلمين، وقد كان في تلك البيئة من المثل العليا في المروءة والكرامة والشرف والحياء والغيرة والايثار والنجدة

---

(1) ينظر فجر الإسلام (طبيعة العقلية العربية) 35 حتى 58.

والوفاء، ما اقرها الإسلام وشجع عليها، وان الاسلام حين جب رذائل الجاهلية كان قد اقر فضائلها، وبارك في كثير من عوائدها التي توافق الإسلام لا تضاده. هذا هو الدافع الأول الذي نسب للجاهلية كل بدعة والصق بها كل منقصة.

أما الدافع الاخر فهو: الشعوبية التي حمل الفرس رايتها، ثاراً لماضيهم المهان وحمية لدينهم الذي عفى عليه الإسلام، فما فتئوا منذ غدروا بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب يكيدون للعرب ويفترون على تاريخهم وماضيهم، بل لم يسلم حتى الاسلام من بدعهم وضلالاتهم حيث ادخلوا فيه ما هو بريء منه من مظاهر المجوسية، وشعائر المانوية، وشذوذ المزدكية. وكانت الجاهلية اقرب تلك السبل اليهم، فنسبوا لأهلها كل ضلالة وجردوهم من كل مكرمة، ولابي عبيدة، وعلان الشعوبي، وبشار، في ذلك اليد الطولى[1].

وما زال بعض الباحثين من شرقيين ومستشرقين يرددون تلك الاقوال السقيمة على الرغم من تعاقب الاعصار، يقول خدا بخش غامزاً شرف العرب[2]:

"لقد كانت الناحية الخلقية عند الجاهليين في أشد أوقات جزرها قبيل الاسلام فلم يكن اخلاص الرجل لزوجته شديداً، وكان يدعوها الى معاشرة غيره من الرجال" أما رينان فيجرد العرب من كل مكانة سياسية وثقافية ودينية[3]. ويقول آخر: "إن العصر الجاهلي عصر ظلام حالك"[4] الى غير ذلك مما يقال.

---

(1) ينظر العقد الفريد 2/87- 89.

(2) Khuda Bukhsh: Contributions to the History of Islam Civilization. V.I.P. 171.

(3) حضارة العرب – جوستاف لوبون ص97.

(4) Mohammad Ali: Mohammad the Prophet. P.6.

ولا أريد هنا ان اضفي على العرب اكثر مما لديهم، واصفهم بصفات ليست فيهم، بل أريد ان اقول: إن العرب امة من الامم لها فضائلها ورذائلها، مثلما لكل الامم والشعوب فضائل ورذائل، ولها كذلك نصيب من الحضارة والمعرفة في عهدها الغابر، فقد ورثت الجزيرة تراثاً جليلاً خلفته الاجيال العربية، حيث تجد المعالم الناطقة بالمجد العريق، وبخاصة في القسم الجنوبي من بلاد اليمن السعيدة. فقد قامت دول معين وسبأ وحمير، وفي الحجر حيث وجدت لحيان وثمود، وفي بطرا ازدهرت دولة الأنباط. والقرآن الكريم –وكفى به شاهداً– يصف دولة سبأ وما كانت عليه من ترف ونعمة، قال تعالى: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" (1).

وقد أشاد المعنيون بالحضارة الشرقية من الاوربيين، فشهدوا بعراقة تلك الحضارة وأثرها فيما حولها من الأمم، يقول سايس "لم يكن المسلمون الذين انطلقوا في الجزيرة العربية، وفتحوا العالم المسيحي، وأسسوا الممالك، الا من نسل أولئك الذين كان لهم قديماً اثر عميق في مصير الشرق" (2) وكذلك يدهش هومل لما كان لعرب الجنوب من قلاع وحصون ونقوش، وأثر حضارتهم في العبرانيين واليونان (3).

وحال العرب في جاهليتهم الأولى –وحتى قبل الإسلام– تنقض الصورة الخاطئة التي جعلت المجتمع الجاهلي معزولاً متأخراً، لا يرتبط بأسباب الحضارة والعمران، ولم يتأثر بالأمم المجاورة.

لقد كان العرب الجاهليون على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم، فضلاً عن حضارتهم العريقة، وقد كانت الصلات قائمة بين

---

(1) سبأ 15.

(2) A.H. Sayce: Early Isreal. P. 128.

(3) تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي 277/2 وما بعدها.

العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود، وكان من مظاهر ذلك إمارة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام، اللتان أتاحتا لثقافة الفرس والروم أن تدخل الجزيرة وتمتزج بثقافة العرب. وقد اتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يفيدون من خبرات الأمم الأخرى وعلومهم، فمن ذلك: الاسواق والمواسم التي كانت تقام في انحاء مختلفة من الجزيرة، كانت الاسواق ملتقى العرب على اختلاف منازلهم وثقافاتهم يقصدها التجار -من العرب والعجم- من تجار فارس، والروم، والهند، والصين، فيكون الاخذ والعطاء وتبادل المتاع، من البدهي ان تلتقي الثقافات والعقول، فيفيد بعض من بعض من الخبرة والصناعة والعلم، وحتى العادات والتقاليد.

وقد ذكر محمد بن حبيب: أن كثيراً من تجار الأمم المحيطة ببلاد العرب كانوا ينتقلون الى الجزيرة كما تفعل تجار فارس والروم حينما توافي بسوق المشقر، يقطعون اليها البحر ببياعاتها[1].

وقال ابو علي المرزوقي: "ثم يرتحلون منها (من صحار) الى دبا، وكانت احدى فرض العرب يجتمع بها تجار الهند والسند والصين واهل المشرق والمغرب، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب فيشترون بها بيوع العرب"[2].

والعرب انفسهم كانوا يسافرون الى بلاد الروم والفرس والاحباش، منهم التجار الذين يحملون بضائعهم الى اقاصي البلاد، ومن أولئك تجار قريش كهاشم وكان متجره الى الشام وقد مات بغزة، وعبد شمس ومتجره الى الحبشة، وعبد المطلب ومتجره الى اليمن ونوفل ومتجره الى العراق، وهؤلاء هم أصحاب الايلاف من قريش[3].

وكان من العرب من يتعرض لعطاء الملوك، كالشعراء، ورؤساء

---

(1) المحبر ص263 وما بعدها.

(2) الازمنة والامكنة 162/2.

(3) المحبر 162 والسيرة 47/1.

النابغة وحسان في مجالس المناذرة والغساسنة بمنكر، وقد عرفت منادمة الربيع بن زياد للنعمان بن المنذر، وقصة وفد بني عامر وبلاء لبيد في مجلس النعمان[1]. وإن صحت رواية وفود العرب على كسرى وخطبهم في ذلك فرحلتهم تشمل مجموعات كبيرة من العرب، غير مقتصرة على الأفراد. وكان من العرب من ساح في الارض طلباً للهداية والعلم، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، الذي شك في الأوثان ورحل يطلب دين ابراهيم حتى بلغ الموصل وجال في الشام[2]، والحارث ابن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن[3]، وغير هؤلاء كثير.

وكان من اسباب التمازج الحضاري في المجتمع الجاهلي ايضاً، الجاليات الأجنبية التي كانت تَفِدُ الى الجزيرة فتمكث فيها زماناً، وقد يتخذ بعضها الجزيرة موطناً ومقاماً، وطبيعي ان هؤلاء من جنسيات واديان مختلفة، وعقليات وثقافات متباينة، فمنهم النصراني واليهودي، والمجوسي، ومنهم الرومي، والحبشي، والفارسي والهندي[4]. ومن هؤلاء من جاء مبشراً بدين كالنصارى الذين اقاموا البيع والصوامع والاديرة في المدن والقرى، ومنهم من جاء طالباً الربح والتجارة، او العمل والكسب، او التجسس على العرب في ديارهم[5]. ولا شك ان كثيراً من هؤلاء كان مكسبه عن طريق نشر اللهو والمجون والحانات، حيث الخمر والغناء والرقص.

ومن تلك الصلات، وذلك التمازج البشري بين العرب والاقوام

---

(1) الأغاني 92/1.

(2) السيرة 26/1 والاغاني 36/3 ط الدار.

(3) طبقات الأمم –صاعد الاندلسي ص74 ط السعادة.

(4) دائرة المعارف الاسلامية (مكة) وفي المحبر ص 306- 308 ذكر لأبناء الحبشيات. وفي اسد الغابة ذكر للروم والروميات انظر مثلاً 212/1، 232/4، 194/5.

(5) Oleary: Arabia before Mohammad. P. 39.

الاخرى، افاد العرب وكسبوا ثقافتين: الأولى ورثوها عن اسلافهم، والثانية اقتبسوها من الأمم المجاورة.

وقد استطاع مؤلفو المسلمين، على بعد الشقة، ان يحفظوا للمتأخرين جوانب من معارف الجاهلية وعلومهم، كما حفظ الشعر الكثير من تلك المعارف.

(2)

لقد كان للعرب علم بالنجوم ومواقعها ومسالكها والوانها ومطالعها وانوائها، وعرفوا منها أوقات الخصب، وأزمان المحل، ومهب الرياح، وسقوط المطر، واهتدوا بها في ظلمات الليل، قال الجاحظ: "وعرفوا الانواء ونجوم الاهتداء، لأن من كان بالصحاصح الاماليس – حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة- مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤديه، ولحاجته الى الغيث، وفراره من الجدب، وضنه بالحياة، اضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث، ولانه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً، وما يسير منها فارداً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً" [1].

وكذلك يقول صاعد الاندلسي: "كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة" [2]. ويذكر ابن قتيبة: ان العرب أفادوا مما عند الكلدانيين (الصابئة عبدة الكواكب)، وبين اسماء البروج والكواكب في العربية والكلدانية شبه كبير فبرج الثور هو (ثورا) في الكلدانية والجدي

---

(1) الحيوان 30/6.

(2) طبقات الأمم ص45 بيروت.

(كديا) والمريخ (مرادخ) وهكذا، أما السرطان فنفسه في اللغتين[1]، واشتهرت بعض القبائل بخبرتها الواسعة بمواقع النجوم وأنوائها مثل قبيلة مرة، وبني حارثة بن كلب، وكثر ذكر الكواكب في الشعر، كالفرقدين والسماكين، وبنات نعش، والشعرى، والجوزاء، والعيوق، وغيرها. وكان نظرهم دقيقاً ثاقباً في المطر والرياح ومهابها، والسحاب واشكاله ومواسمه، واللغة العربية غنية بأسماء السحب وأنواع الرياح وضروب القطر، وقد افرد ابن قتيبة لذلك كتاباً (الأنواء)[2] –نقلنا عنه قبل قليل- كما الف أبو زيد كتاب (المطر)[3]، وعقد الثعالبي فصلاً في كتابه (فقه اللغة)[4] أسماه (الآثار العلوية)، تحدث فيه عن الرياح والسحب والامطار والرعود والبروق وما الى ذلك. وقلما يخلو من هذه الموضوعات كتاب من كتب اللغة.

وكان للعرب الملم بالطب والبيطرة، وهي جملة معارف وخبرات توارثها الناس خلفاً عن سلف، ومن الطبيعي الا يكون طبهم قائماً على العلم المنظم الدقيق، بل هي معارف وملاحظات قد يصاحبها الخطأ في كثير من الاحايين، وقد تدخل الخرافة والرقي في بعض ما لا يعرفون يقول ابن خلدون في ذلك:

"وللبادية من أهل العمران طبٌ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج"[5]. ومن تلك الخرافات التي أشرنا اليها ظنهم ان دم السادة يشفي

---

(1) كتاب الانواء في مواسم العرب في صفحات متعددة ط شارل بيلا 1956/1375.

(2) المصدر السابق.

(3) طبع الكتاب لويس شيخو سنة 1908 ضمن البلغة في شذور اللغة.

(4) فقه اللغة وسر العربية ص403.

(5) المقدمة ص214 ط مصر.

من الكلب، وان عظام الميت تشفي من الجنون، وقد استخدموا في طبهم الكي بالنار حتى قالوا (آخر الدواء الكي) والتداوي بشراب العسل، وعصارات بعض النباتات البرية، وغير ذلك. وقد عرف منهم بعض الاطباء الحاذقين، كالحارث بن كلدة الثقفي[1] (توفي 13 هـ) الذي تعلم الطب في بلاد فارس، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من يمرض من أصحابه ان يأتيه ويستوصفه[2]، وكذلك ابن حذيم التميمي الذي ضرب المثل في خبرته ومهارته بالطب، فقال "أطب من ابن حذيم"[3]

وكان لعانية العرب بالخيل والابل ان برعوا في البيطرة، فعرفوا عيوب الحيوان وعاهاته وأدوائه، وقد هدتهم الحاجة، ودقة الملاحظة آن عرفوا كل الأمراض والاعراض التي تصيب الحيوان، فالتمسوا لكل داء دواء. وقد تحدث الجاحظ عن معرفة العرب بالبيطرة فقال: "كثيراً ما يبتلون بالقاب والمخلب، وباللدغ واللسع والعض والأكل، فخرجت بهم الحاجة الى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء"[4]

وكان للعرب خبرة واسعة بالخيل وبصر دقيق بشياتها وأوصافها، وما يستحب منها وما يذم فيها، وقد عنوا بسلالاتها وعرفوا أنسابها، وفرقوا بين العتيق منها والهجين، وعرف ذلك سلمان بن ربيعة الباهلي المعروف بسلمان الخيل، وكان سلمان يميز العتيق من الخيل من هجينها

---

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) طبقات الأمم ص74 والاخبار الطوال- الدينوري ص 122 ط جوتنجن.

(3) مجمع الامثال 52/2 ط بولاق.

(4) الحيوان 29/6.

بطول العنق، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي عنه، شك في العتاق والهجن من الخيل "فدعا سلمان بطست من ماء، فوضعت بالارض، ثم قدم الخيل فرساً فرساً، فما ثنى منها سنبكة فشرب جعله هجيناً، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقاً وذلك لأن في أعناق الهجن قصراً فهي لا تنال الماء على تلك الحال حتى تثني سنابكها، واعناق العتاق طوال"[1]. وكان الناس يعجبون بسلمان الباهلي ومن المعجبين به لبيد الشاعر، فقد ذكره في احدى اراجيزه، مبيناً فضل الله عليه بنعمة البصر بالخيل[2].

ومن معارف العرب التي هداكم اليها الذكاء، وخصب القريحة، وصفاء الذهن: الفراسة والقيافة. فالفراسة: الاستدلال بمظهر الإنسان وشكله وسلامة أعضائه، على أخلاقه وصفاته وطباعه. والقيافة: تتبع الاثر في الارض لمعرفة آثار الإنسان او الحيوان، ولهم في ذلك حذق وبراعة، فكانوا يعرفون أثر من ضل منهم أو من حيوانهم، أو طريق عدوهم حين يهرب منهم دالجاً في الليل او سائراً في النهار.

ومن معارفهم –التي يداخلها الظن والمصادفة- العيافة والزجر والطرق بالحصى، وهي ضرب من التنبؤ –كالكهانة- بمعرفة حركات الطيور والتيمن بها او التطير منها، وقد اشتهر منهم بنو أسد وبنو لهب حتى قال قائلهم[3]:

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا   مقالة لهبي إذا الطير مرت

وقد أوضح الجاحظ جانباً من ذلك فقال: "وأصل التطير من الطير إذا مر بارحاً وسانحاً، أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الاعور من الناس أو البهائم، أو الاعضب او الأَبتر زَجَروا عند ذلك وتطيروا"[4].

---

(1) ديوان لبيد ص337 ط الكويت

(2) ديوان لبيد القصيدة 58.

(3) شرح ابن عقيل 154/2.

(4) الحيوان 438/3 وما بعدها. والبارح: الميامن والسانح: المياسر.

وما كان كل العرب على هذه الشاكلة في زجر الطير وضرب الحصى، بل كان منهم من ينكر ذلك ويتعلق مثل لبيد الذي يقول[1]:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وكانت عنايتهم بالانساب ومعرفة الاصول والاحساب، قد فاقت كل معرفة، حيث دعتهم العصبية الى أن يحفظوا بدقة كل ما يتعلق بأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، وقد رويت عن كثرة حفظهم وسعة معرفتهم أقاصيص تدعو الى العجب، فهم يصلون أنسابهم بالأب الاكبر عدنان او قحطان، ويقسمون مراتب النسب الى: فصائل، وافخاذ، وبطون، وعمائر، وقبائل، وشعب. وقد عرف من مشهوري نسابيهم: دغفل بن حنظلة الشيباني، وزيد بن الكلَيْس النمري وابن لسان الحمرة، وغيرهم، كما عرف أبو بكر الصديق بسعة علمه بالأنساب والأيام[2]

وكما حرصوا على معرفة أنسابهم وأصولهم، الموا بأخبار أيامهم وتاريخ اسلافهم، وما وقع لهم ولغيرهم من الأمم القديمة، وقد ظهرت تلك المعارف والاخبار في الشعر، كقصة الفيل وحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، ويوم ذي قار، وحروب الفجار، وعرفوا سير الملوك في اليمن، والحيرة، والشام، كما عرفوا أخبار الفرس وحروبهم وملوكهم، وذلك بسبب اختلاطهم بتلك الامم عن طريق الاسواق والتجارة والرحلات. فقد عرف عن النضر بن الحارث انه كان يذهب الى الحيرة يتعلم من أهلها أخبار الفرس وأساطيرهم، وسير ملوكهم وقوادهم، مثل رستم واسفنديار وكسرى، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً –في مكة– فدعا فيه الى الله تعالى. وتلا فيه القرآن، وحذر قريشاً مما

---

(1) ديوان لبيد ص172.

(2) السيرة النبوية: 165/1 ط عبد الحميد 1383/ 1963 والبيان والتبين 76/4 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر وانظر الاغاني 138/4 والاستيعاب 321/1.

أصاب الأمم الخالية، خلفه النضر في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس، ثم يقول: "والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها"[1]

على ان معرفة العرب بالأخبار والاحداث التاريخية لم تكن معرفة دقيقة، بل هي عرضة للتزيد والتحريف، فإن تلك الاخبار كانت متداولة بين الناس بالرواية الشفهية والرواية تقبل الخطأ والتحريف.

وللعرب بعد ذلك حكم بالغة تمثل خبرتهم في الحياة وتجاربهم فيها، وقد صاغوها بعبارات قصيرة مأنوسة، كان الناس -وما زالوا- يتمثلون بها، لأنها تفصح بصدق عن مكنونات النفس البشرية بعامة. وقد حفظت كتب الامثال طائفة جليلة منها، ولعل خير ما ألف من كتب الامثال: كتاب العسكري (جمهرة الامثال) والميداني (مجمع الامثال) والزمخشري (المستقصى في الامثال). هذا غير ما جاء عند الشعراء من حكم شاعت وصارت مما يستشهد بها الناس في كل زمان، كحكم زهير ولبيد وطرفة وعبيد بن الابرص والافوه الاودي وغيرهم. وقد ذكر الجاحظ جمهوراً من حكماء العرب وذوي الدهاء واللسن، فقال: "ومن القدماء ممن يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدها. والنكراء: لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان، ومجاشع بن درام... ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء: أكثم ابن صيفي، وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب، ولبيد بن ربيعة"[2] وكانوا يكتبون تلك الحكم ويحفظونها كما فعل سويد بن الصامت الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده صحيفة فيها حكم لقمان، وقال الرسول عليه السلام عما فيها: "إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله تعالى علي وهو

---

(1) السيرة 358/1 ط سلبي ورفاقه.

(2) البيان والتبين 365/1 ط عبد السلام هارون.

هدى ونور»(1)

وعلى كل حال، لم تكن حكم العرب وأمثالهم نتيجة تفكير فلسفي بعيد، وانما هي نظرات وخبرات، صادرة عن طبيعة حياتهم، ومثلهم، ونظرتهم الى الحياة والموت، ومصير الناس، والخير والشر ومعاتبة الدهر، وهي مع كل ذلك، تصوير صادق أمين لفطرتهم السليمة، ونفسيتهم الواضحة البسيطة التي لا يشوبها ولا يعيبها تعقيد او غموض.

---

(1) سيرة ابن هشام: 290/2 ط عبد الحميد.

الفصل الخامس

الحياة الدينية

(1)

لقد عرف العهد الجاهلي بالعهد الوثني عهد الشرك وعبادة الاصنام من دون الله. غير أن النظرة الفاحصة المحصة، تكشف ان وثنية ذلك العهد، لم تكن -كما قد يظن- اعتقاداً متيناً بالاصنام، فقد كان كثير منهم، وبخاصة الاعراب، يسخرون منها ويهزأون بها[1]. ولم يكونوا يؤمنون بأن هذه الاوثان والاصنام[2] خالقة مدبرة قادرة، ولم يكن الشرك اشراكاً في وحدانية الله، فالدلائل تشير -ويكفي ان يكون القرآن قد نص على ذلك- الى ان عرب الجاهلية كانوا يؤمنون بالله الواحد القوي الخالق الذي بيده الامر، وكان اتخاذهم الاصنام على انها وسائط وشفاعات تقربهم الى الله سبحانه، فالشرك هنا يلحظ من تقديس اصنام تنسب لها القدرة على الشفاعة لا الشرك في وحدانية الله. قال صاعد الاندلسي: "وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة الله تعالى. وإنما كانت عبادتهم ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والاصنام الممثلة بها في الهياكل، لا على ما يعتقده الجهال بديانات الامم واراء الفرق، من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي الآلهة الا ليقربونها الى الله زلفى"[3] وقال تعالى في صفة الجاهليين الذين يتقربون اليه باصنامهم: "ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند

---

(1) الاصنام – ابن الكلبي ص37.

(2) يفرق بين الصنم والوثن ي ان الاول يكون على هيئة تمثال. والوثن يكون حجراً وقد يسمى الصنم بالوثن ايضاً انظر الاصنام ص23 و53 في تحديد كل منها.

(3) طبقات الأمم - صاعد بن أحمد الاندلسي ص24 وسورة الزمر3.

الله"[1] وقد جاءت الآيات الكريمة لتدل على ايمانهم بالله الخالق القادر الواحد الذي بيده امر كل شيء. قال تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله"[2] "ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون"[3] "قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون"[4]

وقد عبر أوس بن حجر في بيت عن اعتقاده بالله الذي هو اكبر من كل المعبودات، مع اقراره باحترام اللات والعزى، قال[5]:

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله إنَّ الله منهن أكبر

وهذا النابغة الذبياني يقسم بالله الذي ليس وراءه شيء ولا اكبر منه[6]:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

ونجد في الشعر الجاهلي الدلائل الكثيرة الواضحة الصريحة التي تؤكد ايمان الجاهليين بالله وتوحيده والقسم به، وأنه خالق الخلق وواهب النعم. يقول عبيد بن الابرص[7]:

حلفت بالله إن الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

---

(1) سورة يونس 18.

(2) لقمان 25

(3) الزخرف 87.

(4) يونس 31.

(5) الاصنام ص7 وانظر عن التوحيد في الشعر الجاهلي (الحياة العربية) للدكتور الحوفي ص402- 417.

(6) ديوان النابغة ص56 ط السعادة. العقد الثمين ص5.

(7) ديوان عبيد ص24 ط ليال لقد ذهب بعض المستشرقين الى ان الرواة المسلمين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين مكان كلمة (اللات). وهذا فرض بعيد فيه كثير من التعسف ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي 305/6.

وقد آمنوا بأن الله هو الحافظ الذي يلوذ الناس برحمته، قال افنون التغلبي [1]:

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي

إذا هو لم يجعل له الله واقيا

وإن الله يجزي على العمل الصالح، قال أبو قيس بن الاسلت [2]:

أجرت مخلداً ودفعت عنه وعند الله صالح ما اتيت

ويقول زهير بأن الله عالم الغيب، ومطلع على الضمائر واسرار النفوس [3]:

فمن مبلغ الاحلاف عنّي رسالة

وذبيان هل اقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

ويقسم آخر بالله عالم الأسرار ومحيي العظام البيض وهي رميم [4]:

أما والذي لا يعلم السر غيره

ويحيي العظام البيض وهي رميم

لقد كنت اختار القرى طاوي الحشا

محافظة من ان يقال لئيم

وفي بيت حاتم السابق ايمان بالبعث والحساب فالله يحيي الخلق بعد موتهم وإن كانوا عظاماً، وقد أوضح لبيد بأن للناس يوماً يقفون فيه

---

(1) المفضليات 523 ط ليال.

(2) الاغاني 14/3 ط الدار.

(3) ديوان زهير ص18 ط الدار.

(4) شرح الحماسة للمرزوقي 1715/4.

بين يدي الله، وتكشف أعمالهم، وتجزي كل نفس ما كسبت[1]:

وكـل امـرئ يومـاً سـيعلم سـعيه
إذا كشـفت عنـد الإلـه المحاصـل

وكذلك يذكر علاف بن شهاب التيمي فكرة الحساب والثواب والعقاب يقول[2]:

ولقـد شـهدت الخصـم يـوم رفاعـة
فأخــذت منــه خطــة المقتــال
وعلمـــت ان الله جـــاز عبــده
يــوم الحســاب بأحســن الأعمــال

وإذا كـان هـذا ايمـان العـرب بـالله ووحدانيتـه وقدرتـه فكيـف كانوا يوفقون بين هذا الايمان وبين تقديس أوثان واصنام، واشراكها في العبادة والتقديس مع الله سبحانه، ان للعرب في ذلك تعليلات لا يخلو بعضها من منطق مقبول، فهم يقولون: "ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة، لعظمته فعبدناها (اي الاصنام) لتقربنا اليه تعالى"[3] ومنهم من يقول "جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى، كما ان الكعبة قبلة في عبادته"[4]

وإذا ما عرفنا كيف بدأ تقديس الأصنام وعبادتها نستطيع ان نتبين الاسباب التي جعلت غمار الناس يتشبهون بها ويبتعدون عن دين التوحيد الأول دين الفطرة- دين ابيهم ابراهيم[5]. وكذلك نستطيع ان نعرف طبيعة تلك العقلية المحافظة المكابرة، التي وقفت بعنف وشدة بوجه

---

(1) ديوان لبيد ص257.

(2) بلوغ الارب 277/2 ط 2 1924- 1343.

(3) بلوغ الارب 197/2 ط2.

(4) المصدر السابق 197/2.

(5) ينظر هنا تاريخ العرب قبل الإسلام –جواد علي 30/5 حيث يذكر راي رينان في ان العرب موحدون بطبيعتهم مثل سائر الساميين.

الدين الإسلامي في بيئته الأولى. قال هشام بن محمد الكلبي: "وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الاوثان والحجارة، انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلو وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم، وحبا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام"[1] وبمرور الزمان نسى الناس العلّة في تقديس الحجارة، على أنها اثر من آثار الكعبة وذكرى لها، فانتقل التقديس للحجر نفسه، وتطور الحجر الى صنم، ثم بدأت الظنون بعد ذلك في خير هذا الصنم وشره، وكلما امتد العهد واستطال الزمان، احيطت هذه العبادة بهالة من الغموض المقدس. والناس -منذ كان الناس- تحن الى الموروث الذي تلفه الاسطورة ويكتنفه الغموض، وقد استحكمت العادة في نفوسهم، فصاروا يتمسكون بها وينزلونها منهم مكانة فضلى.

والملاحظ أن أهم بيئة رسخ فيها الدين، وتسمك أهلها بالاصنام هي مكة، قلعة الدين ومجمع أصنام العرب، بينما نجد أن المناطق الاخرى أقل حماسة لعبادة الأوثان، وبخاصة البادية التي تنظر الى هذه العبادة نظرة غير جادة، فكثيراً ما يثور الاعرابي على صنمه حينما تتضارب أهواء العابد والمعبود، من ذلك ما يروى عن رجل من العرب -وتروى لامرئ القيس ايضاً- قتل أبوه فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عند بالازلام، فخرج السهم ينهيه عن ذلك فقال[2]:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   مثلي وكان شَيْخُك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

---

(1) الاصنام ص6 وهناك آراء اخرى منها قصة عمرو بن لحى، والذي اثبتناه هنا، اقرب الى طبيعة العرب.

(2) الاصنام ص35 والسيرة 1/91 وانظر حول ضعف الوثنية في اواخر العصر الجاهلي الحياة العربية 277 وما بعدها وينظر هنا راي نيكلسون حول عدم مبالاة العربي بالدين Aliterary Hist.of the Arabs. P. 135.

وأتى رجل من بني ملكان الى سعد –صخرة طويلة بأرضهم- بأبل معه يلتمس البركة، فلما رأت الإبل ما على الصخرة من الدم المهراق، نفرت وتفرقت في كل وجه، فأخذ حجراً رمى به سعداً ثم أنشد[1]:

أتينـا الى سـعد ليجمـع شملنـا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهـل سـعد الا صـخرة بتنوفـة
من الارض لا يدعي لغي ولا رشد

وقد جرت العادة ان يتبع الناس هذا الدين، دون ان يجرأوا على الشك بجدوى هذه العبادة.

(2)

هذا شأن الكثرة من عرب الجاهلية، وقد عرفت في ذلك العهد فئة من المستبصرين الذين كانوا يترفعون عن عبادة تلك النصب والتماثيل وكانوا يتطلعون الى دين التوحيد، دين ابراهيم، على أنه الدين المبرأ من الشك، وقد عرفت تلك الفئة بـ (الاحناف) ودينهم بـ (الحنيفية)[2] وكانوا قد اعتزلوا الاوثان، وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على النصب لغير الله، وقال في ذلك قائل منهم: "أني لست آكل مما تذبحون على انصابكم، ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه"[3][4] كما سخطوا على الخمر وعافوا شربها، وقد عاف الخمر ايضاً غير هؤلاء من عقلاء العرب ترفعا عما يؤول امر شاربها الى المهانة والسفه[5]. وقد عرف من الاحناف رهط كبير. منهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وصرمة بن

---

(1) الأصنام ص37 والسيرة 85/4.

(2) انظر في الحنيفية وأثرها في شعراء الجاهلية فون كريمر (حول اشعار لبيد)
Von Kremer: Ueber die Gedichte des Labyd. P. 8.

(3) السيرة النبوية 237/1.

(4) هو زيد بن عمرو بن نفيل. صحيح البخاري 50/5.

(5) مر بنا ذكر من عاف الخمرة من الجاهلين في الحياة الاجتماعية.

أبي أنس، وأمية بن أبي الصلت، وخالد بن سنان العبسي، وورقة بن نوفل، وغيرهم[1].

ولم تكن الحنيفية امتداداً او تقليدياً لليهودية او النصرانية، بل لم يكن بين الديانتين والحنيفية صلة او وشيجة، وإن اطلع بعض رجال الحنيفية على دين اليهود او النصارى، على النقيض مما يبالغ بعض الكتاب وبخاصة رجال الدين النصارى[2]، وإنما هم على دين العرب القديم دين ابراهيم، وما كان ابراهيم من اليهود او النصارى كما نص على ذلك كتاب الله العزيز: "ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً"[3]، وكذلك لم يكن من المشركين: "إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين"[4]، والحنيف هو المسلم (حنيفاً مسلماً)، قال تعالى: "ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً"[5]، وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت بالحنيفية السمحة"[6]، وكذلك قوله عليه السلام: "أحب الأديان عند الله الحنيفية السمحة"[7]، وكذلك قوله عليه السلام: "أحب الأديان عند الله الحنيفة

---

(1) المعارف- ابن قتيبة ص27- 29 ط الإسلامية وانظر حول الاحناف وافكارهم جواد علي- تاريخ العرب 56/5- 60 و289/6- 295.

(2) لويس شيخو في شعراء النصرانية، وقد حاول باطلاً ان يقحم اكثر الشعراء الجاهليين ممن ذكروا الله في النصرانية. وينظر في هذا الموضوع رأي بلا شير في الاحناف ممن ذكروا الله في النصرانية. وينظر في هذا الموضوع راي بلا شير في الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية والمانوية تاريخ الادب العربي 68/1 ترجمة ابراهيم كيلاني وينظر كذلك راي نيكلسون في الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية.

Alit. Hist. of the Arabs. P. 149.

(3) آل عمران 67.

(4) النحل 120.

(5) النحل 123.

(6) طبقات ابن سعد 128/1 وكذلك 287/2.

(7) اللسان 404/10 وانظر ابن سعد 3/ 287.

السمحة[1]، وجاء ذكر الحنيفية في الشعر بنفس دلالة المسلم، قال عبد الله بن أنيس[2]:

وقلت له خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

وكذلك في أبيات لأمامة المزيرية تقول[3]:

تكذب دين الله والمرء احمدا

لعمر الذي امناك ان بئس ما يمني

حباك حنيف آخر الليل طعنة

ابا عفك خذها على كبر السن

وهكذا يتضح من هذه النصوص ان الإسلام والحنيفية على شرعة واحدة شرعة التوحيد والايمان بالله الواحد الأحد، وما الوثنية الا تشويه لدين ابراهيم وتحريف له وخروج عليه.

لقد كانت الوثنية اهم الاديان التي عرفتها الجزيرة، واكثرها شيوعاً وانتشاراً، وقد شهدت الجزيرة اديانا اخرى غير الوثنية، كاليهودية والنصرانية، ولم يكن لاتباع هاتين الديانتين كبير اثر في الجاهليين، اذ لم تستطع اية منهما ان تدحر الوثنية، او ان توسع نفوذها.

فأما اليهودية: فقد جاء اليهود الى الجزيرة بعد أن طردهم واضطهدهم قياصرة الروم فالتجأ كثير منهم الى الحجاز واليمن[4]. وقد استطاع اليهود في اليمن منذ عصر متقدم ان يهودوا احد ملوك التبابعة وهو ذو نواس، ويحرضوه على التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم بالاخدود،

---

(1) السيرة 58/2 ودائرة المعارف الإسلامية (حنيف).

(2) السيرة 982 ودائرة المعارف الاسلامية (حنيف).

(3)

(4) لم يقطع المؤرخون بزمن دخول اليهود ولا الظروف الواضحة في ذلك، ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام 24/6 حول يهود اليمن و9/6- 11 حول يهود الحجاز وانظر الحياة العربية حول اليهودية 136- 142 وحول النصرانية من142- 150 وقد استبعد الدكتور الحوفي ان يكون ذانواس صاحب الاخدود 151- 154.

والى ذلك تشير الاية الكريمة: "قتل اصحاب الاخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد" [1]. على انه سرعان ما استطاع الاحباش النصارى القضاء على ذي نواس سنة 525 وحينذاك كسرت شوكة اليهود في اليمن، ولم يبق لهم شأن يذكر هناك. وقد عرف من يهود اليمن كعب الاحبار ووهب بن منبه وكلاهما اسلم وكان لهما يد طولى في الاسرائيليات التي شاعت بين المسلمين.

وفي الحجاز نزلت قبائل كثيرة من اليهود. أهمها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل، واستوطنوا في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، وقد نزل الاوس والخزرج بجوارهم ثم استطاعوا الاستيلاء على يثرب، وكان هم اليهود وجهدهم بعد ذلك ان يوقعوا بين القبيلتين العربيتين، ويثيروا الضغائن وينبشوا الاحقاد، فوقعت بهم حروب وأيام ودما. حتى جاءهم الإسلام برحمته فانجاهم من كيد يهود. وحين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الكتاب في المدينة لينظم أمور المسلمين، ويحدد علاقتهم بغيرهم، وادع اليهود وأمنهم، فقال عليه السلام: "وانه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم" [2]، وقد أقرهم على دينهم وأكرمهم، وجعلهم والمسلمين في مقام واحد، متناصرين [3]. إلا أن اليهود أبوا إلا الغدر والخيانة ونقض العهد، فناصروا المشركين على المسلمين، وكادوا للمسلمين كل كيد، وقد كان القرآن الكريم لهم بالمرصاد، يفضح كيدهم ويكشف باطلهم، حتى قامت الحرب بين المسلمين واليهود، فكان النصر لدين الله والهزيمة لأعدائه المنافقين.

---

(1) سورة البروج 4- 8.

(2) السيرة النبوية 503/1.

(3) المصدر السابق والصفحة.

ولم يستطع اليهود ان يتركوا آثاراً واضحة في عرب الجزيرة[1]، بل كان تأثير العرب فيهم واضحاً متميزاً، فقد تعرب فريق منهم، كيهود يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، واصطنعوا اللغة العربية لغة الحديث، وظهر فيهم بعض الشعراء الذين نظموا في العربية كالسموأل بن عادياء في الجاهلية، وكعب بن الاشرف وجبل بن جوال وسماك اليهودي في الإسلام[2]

هذا مجمل ما لليهودية في الجزيرة، اما النصرانية فقد انتشرت عن طريق الروم والحبشة ونصارى الحيرة، وقد اعتنقت بعض القبائل العربية النصرانية، مثل عاملة وجذام وكلب وقضاعة من الغساسنة في الشام، وفي العراق تغلب واياد وبكر، والعباد في الحيرة. وكان نصارى الشام يعاقبه أو (منو فيستين) وهم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة، وينسب هذا المذهب الى يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة 500 للميلاد. أما نصارى العراق فقد كانوا نساطرة[3] نسبة الى نسطوريوس المتوفى سنة 450 للميلاد، وهو يرى أن للمسيح طبيعتين أو اقنومين: اقنوم الناسوت واقنوم اللاهوت[4]. أما في اليمن فكان في نجران نصارى على مذهب اليعاقبة –كالحبشة والغساسنة- [5]. أما في مكة فكان هناك رقيق حبشي من النصارى[6]، ويذكر أوليري[1] ان في مكة جالية من نصارى

---

(1) على خلاف ما يحاول ان يثبته بعض المستشرقين من تأثير اليهود في العرب وفي الدين الإسلامي انظر تفصيل ذلك في تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي 89/6- 94 وكذلك 177/6 والحياة العربية ص140 وما بعدها وانظر كذلك المرأة في الشعر الجاهلي ص11- 14.

(2) السيرة 197/2 وما بعدها.

(3) أسباب النزول ص218 ط مصر بعناية أحمد صقر.

(4) حول المذاهب النصرانية ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام- جواد علي 68/6 وما بعدها.

(5) أسباب النزول ص218 ط مصر بعناية أحمد صقر.

(6) المصدر السابق ص213.

الروم

وابرز شاعر عرف للنصارى في الجاهلية: عدى بن زيد العبادي، الذي سقطت في شعره اسماء ومصطلحات نصرانية، وان ظهرت هذه الاسماء والمصطلحات عند شعراء جاهلين من غير النصارى. ومهما يكن من شيء، فان النصرانية –على الرغم من انتشارها– لم تكن لتترك آثاراً واضحة في حياة العرب[2] الجاهليين او دينهم، لأن النصارى انفسهم لم يكونوا قد تعمقوا دينهم وتمسكوا به بدقة واخلاص، فقد كان دينهم مشوباً بالوثنية، ذلك ان تعاليم النصرانية كفكرة التثليث وحياة المسيح وغيرها لم تظهر في الشعر الجاهلي، وكل ما هناك اسماء خاصة بدينهم كالصليب والناقوس والبيعة وغيرها، وأن ذكر هذه الامور لا يدل على ايمان متمكن عميق، بقدر ما يدل على وصف امور مشاهدة، وهذا عدي بن زيد الشاعر النصراني لا يرى حرجا في ان يقسم برب الكعبة الوثنية، كما يقسم برب الصليب، يقول[3]:

سعى الاعداء لا يألون شرا ... عليَّ ورب مكة والصليب

وقد عرفت الجزيرة العربية مع هذه الاديان– الوثنية واليهودية والنصرانية– عبادات اخرى كثيرة، منها: المجوسية التي دخلت عن طريق الحيرة الى العراق، فانتشرت في بعض القبائل كقبيلة تميم. والمجوس ثنوية يؤمنون بالهين يديران العالم هما: اله الخير واله الشر. او النور والظلمة[4]

وظهرت عبادة الكواكب عند بعض القبائل –وهي لاشك من اثر الصابئة وبقايا الكلدانيين– فيقال ان كنانة عبدت القمر، وان فريقاً

---

(1) O'leary: Arabia before Mohammad. P 184.

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ص22– 24 حيث يبين سبب ضعف النصرانية وقلة تاثيرها في العرب.

(3) الاغاني 101/2 ط الدار.

(4) تاريخ العرب قبل الإسلام 284/6 وما بعدها.

من قريش وخزاعة ولخم عبدت نجم الشعري[1]، وقد جاء في قوله تعالى: "وانه هو رب الشعرى"[2] تبكيتا لهم لما كانوا ينسبون الى هذا النجم من القدرة ويقول اوليري[3]: ان العزى تمثل كوكب الزهرة واللات رمز للشمس، وقد عبدت الشمس[4] في اليمن، فقد كانت ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وقد حكى القرآن ذلك على لسان الهدهد حين اخبر سليمان عليه السلام: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون"[5] وقد عرف من اسمائهم: عبد شمس وعبد العزى. كما عرفت جماعة منهم باصحاب الدهر، وقد حكى القرآن الكريم عقيدتهم بقوله: "وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر"[6]. وهؤلاء ينكرون الخالق والبعث والجزاء، ويرون ان العالم لا يخرب ولا يبيد والا كان مخلوقاً مبتدعاً، قال شداد بن الاسود بن عبد شمس، يرثي كفار قريش يوم بدر[7]

يخبرنا الرسول لسوف نحيا   وكيف لقاء اصداء وهام

الى غير ذلك من الديانات والعبادات[8]

هذه الديانات المختلفة، من موحدة او مشوبة بالشرك، متمسكة بدينها او معتادة عليه، مقدسة للوثنية، او ساخطة عليها، وتلك الحياة

---

(1) مروج الذهب- المسعودي 120/3.

(2) سورة النجم 49.

(3) O'leary: Arabia before Mohammad. P. 194.

(4) انظر في عبادة الكواكب والقبائل التي عبدتها الحياة العربية 420- 421.

(5) سورة النمل 14

(6) الجاثية 24

(7) السيرة 29/2.

(8) انظر عبادات اخرى عرفت في الجزيرة في كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام القسم الديني.

المضطرية المختلة، وكل ذلك كان يدل على ان الفترة فترة قلق وارهاص وتطلع لشيء جديد تتوقعه النفوس، وتهفو اليه الافئدة دون أن تعي تلك النفوس والافئدة، كيف ومتى يحدث او يكون[1]. وقد كان لذلك الارهاص اسبابه وعوامله التي ساعدت على دنو زمانه وتعجيل حينه، من ذلك ان الفترة التي سبقت الإسلام تميَّزَت بأمور، منها: وعي سياسي وميل الى التكتل، كما حدث في قبائل مملكة كندة، والمحالفات الكثيرة التي عقدت بين القبائل الاخرى. وكان للاسواق الاثر الفعال في توكيد الشعور المشترك والمشاركة العاطفية وتبادل الافكار وتصفية كثير من المشاكل والاحقاد. وهناك الخطر الخارجي الذي يتمثل في اطماع الفرس والبيزنطيين والاحباش ان يسيطروا على الجزيرة، فاستَيقظَ الشعور المشترك بالمصير الواحد، وكان انتصار قبائل عربية على الفرس في موقعة ذي قار –على الرغم من ان بعض القبائل كانت مع الفرس– عاملاً آخر في يقظة العرب وشدهم نحو الاتحاد.

ويلاحظ كذلك الحاجة الى اقامة العدل والامن واجتماع الكلمة، وبخاصة في مكة حيث اقيم (حلف الفضول) للانتصاف من الظالمين، وإنصاف المظلومين، وهذا يعني، الرغبة في اقامة عدالة اجتماعية تردع الطائشين والمتهورين. ثم ارتباك الاحوال الاجتماعية التي عرفت بمكة خاصة، من تفشي الاستغلال والربا والغش واكل اموال اليتامى والقسوة على الضعفاء والعبيد.

لهذا كله ولما يتصل به اثر في ان يتطلع الناس الى حركة تهز هذا

---

(1) من ذلك كان تطلع الاحناف، فقد روت الاخبار ان زيد بن عمرو بن نفيل ص بامية بن ابي الصلت فقال له: (ياباغي الخير هل وجدت؟ قال لا، ولم أوت من طلب. قال: ابي علماء اهل الكتاب الا انه منا او منكم او من اهل فلسطين)، طبقات الشعراء ص220 والاغاني 122/4 ط الدار.

المجتمع وتقضي على ما فيه من شرور ونظم فاسدة وعقائد مضطربة[1]، فجاء الإسلام في تلك الفترة انجع علاج واسمى نظام وأكرم عقيدة واعظم تشريع، فلم يلبث العرب ان عارضة بعضهم وهش له بعضهم ثم لم يلبثوا جميعاً ان اقبلوا على اعتناقه والامتزاج به وتفديته باعز ما يملكون.

---

(1) ليس معنى هذا ان الاسلام كان امتداد لفكرة بين الناس عمل النبي على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول وقدسية الوحي، ولكن الإسلام، كان استجابة لضرورة قائمة جاءت في حينها الموقوت من لدن رحيم عليهم، فكتب على رسوله ان يبشر وينذر ويتحمل في سبيل الله ضروباً من الارهاق واللجاجة والاذى.

الباب الثاني

الشعر الجاهلي

مقدمة

الباب الثاني

الشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية، والصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومثلهم، فيه من القيم الفنية والصور الجميلة الرائعة والمعاني الدقيقة الموحية ما يجعله يعد بحق ذروة الشعر العربي، وقد كان القدوة المثلى التي يحتذيها الشعراء في العصور الاموية والعباسية، يسعون الى تقليده ومحاكاته، وقد بقي آثر الشعر الجاهلي واضحاً في شعر العصور المتأخرة وما زال له سلطانه في نفوس قارئيه وسامعيه، لما فيه من أصالة وجمال في التعبير ودقة في المعاني ونضج فني وموسيقى ولغوي كبير.

وقد رأيت –منذ تفتح ذهني للحياة الادبية– في الشعر الجاهلي الصدى النفسي الذي يشدني اليه بوشائج وأسباب، فأحببته وآثرته واستجبت له بدراسات جامعية، كان اولها كتابي عن "شعر المخضرمين فقد عنيت بشعراء الفترة التي سبقت الاسلام بقليل وامتدت صدراً من الدعوة الإسلامية، فدرست اتجاهات الشعر وصوره ومعانيه وأساليب التعبير فيه. وكان ثانيها الدراسة الموسعة عن "لبيد بن ربيعة العامري" آخر شعراء المعلقات وأكبر شعراء فترة المخضرمين، درست الشعر الجاهلي من خلال شعره وموضوعاته وذلك بمقارنته بشعراء عصره وموازنة شعره بشعر الجاهلين وكان ثالث تلك الدراسات بحثاً عن "الجاهلية" هو في حقيقته مقدمة لدراسة الادب الجاهلي تكشف الحياة العامة في العصر الجاهلي وتعين على فهم الادب وتوضح قضاياه وتفسر ظواهره.

وقد رأيت أن تكون هذه الدراسة مكملة للدراسات التي سبقت لتوضح أهم القضايا التي رافقت الشعر الجاهلي، وتبرز الجوانب الفنية

فيه، وتبين خصائصه وميزاته، وقد حاولت في هذه الدراسة ان اتجه الى الشعر مباشرة دون الحاجة الى اثارة قضايا البيئة والعصر واللغة والسكان كي تكون خالصة للشعر مؤكدة النواحي الفنية فيه، فإن الدراسات التي قامت حول الادب الجاهلي على كثرتها لم تعن -الا قليلا- بالجوانب الفنية، فأكثر الذين كتبوا في تاريخ الادب او حول الشعر والشعراء الجاهليين، كانوا يصرفون الجهد في دراسة الحياة الجاهلية من الناحية السياسية والعقلية والاقتصادية والدينية واللغوية، ويهتمون بجغرافية البيئة والتاريخ والقبائل، فإذا جاءوا الى الشعر كان جهدهم ينصر الى الترجمة للشاعر او عرض نماذج من شعره غير متورعين عن اطلاق الاحكام العامة التي تصدق على كل شاعر في الجاهلية والإسلام.

وقد استثني بعض الدراسات القليلة التي جاءت فيها ضروب من العناية بالنواحي الفنية من ذلك: مقالات الدكتور طه حسين في "حديث الأربعاء" حول الشعر الجاهلي ودراسة الدكتور شكري فيصل "تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام" وكتاب الدكتور النويهي "الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه".

وقد اعتمدت في هذه الدراسة النصوص الشعرية أساساً ومنطلقاً في الحكم على الشعر الجاهلي ومن ثم تحكيم المصادر واستنطاقها، ومن خلال هذه النصوص تعرفت على طبيعة الشعر وخصائص ودلالاته وظواهره، فالشعر هو الوثيقة الصادقة التي تبين وتفصح عن مشاعر واحساسات وعواطف قائلية، وكذلك تبين المثل والقيم والطبائع والعادات والتقاليد.

والدراسة الحصيفة الجديرة بالشعر القديم هي التي تقوم على فهم الشعر والادب وفق منطق قائلية وانواقهم وقيمهم ومقاييس الجمال لديهم، لا وفق المنطق الحديث والنظرة المعاصرة، فمن الحيف والخطل ان تطبق ثقافة العصر الحديث ومفاهيمه وذوقه على شعر قيل في عصر مغاير وبيئة

مختلفة وزمن سحيق يمتد في أعماق الماضي، فلكل عصر ذوقه ولغته ومنطقه ونظرة أهله الى الفن والحياة.

ويقوم هذا البحث على ثلاثة فصول متواصلة متكاملة: قضايا الشعر، وخصائصه، وفنونه.

ففي قضايا الشعر: تناولت نشأة الشعر وقدمه واكتماله ونضجه وأثره في نفوس العرب الجاهليين بحيث نجده يصوغ أخلاق العرب ومثلهم ويوجهها نحو مثل عليا وقيم مشتركة، ووقفت عند رواية الشعر واتصال هذه الرواية في الجاهلية والإسلام وازدهارها في العصر الاموي حتى تصل الى عصر الرواة والمدونين جماع الشعر في العصر العباسي، وتحدثت عن الرواة في اكبر مدينتين للعلم هما البصرة والكوفة ومدى الثقة بهم وطبيعة الرواية في كل مدينة، وقد استوجب ذكر الرواية الى توثيق الشعر والاطمئنان الى صحة ما يروى، فعرضت لقضية الانتحال وكيف أرساها النقاد الاقدمون وعلى رأسهم ابن سلام على اسس راسخة ثم عرضت لهذه القضية عند المستشرقين والعرب المحدثين الذين قالوا بالانتحال والذين ردوا عليهم وفندوا آراءهم، وكانت قضية الانتحال هذه قد اتصلت ببعض القصائد الطوال التي عرفت بالمعلقات، فتحدثت عن هذه القصائد وعددها وقصة التعليق وقيمتها اللغوية والفنية.

أما في خصائص الشعر فقد استخلص الصفات البارزة والسمات الدقيقة التي تفرق الشعر الجاهلي عن غيره، فتحدثت عن الطابع البدوي وأثر البيئة في الشعر، والواقعية والوضوح وصور هذه الواقعية التي تمثلت في البساطة والتعبير الموجز المباشر، وظاهرة التجسيم والتشخيص، والتصوير المادي، وجرائر هذه النزعة المادية وفوائدها في الشعر، ثم تناولت التصوير في الشعر وصفة الصورة الجاهلية كمالها وشمولها وظاهرة اللون والحركة والاستعانة بضروب المجاز، ونظرت في بنية القصيدة وتكوينها وترتيب اجزائها في القصائد الطويلة، ووقفت عند

المطالع والمقدمات والبدء بالديار وتفسير ذلك، ثم تحدثت عن الوحدة الموضوعية ومدى انطاقها على الشعر الجاهلي.

أما فنون الشعر، فقد درست الفنون الغالبة على الشعر الجاهلي وبينت طبيعة كل فن ومميزاته وقارنت بين شعر الشعراء في الفن الواحد، وقد عمدت الى النصوص المعبرة الموحية لشعراء شتى ولم أقف عند النماذج الشائعة كثيراً، إذا الشيوع ليس دليل الجودة دائماً، ففي المجاميع الشعرية كثير من الشعر الجيد لِشُعَراء ما كان لهم حظ من الذيوع والشهرة.

وبعد: فارجو أن أكون في هذه الدراسة الموجزة قد أضأت جوانب من الشعر الجاهلي جديرة بالعناية والتأمل، ولست أزعم انى بلغت الغاية التي كنت أصبو الى بلوغها، ولكنني حاولت وسعيت، فلَعَلّي قد حققت بعض ما في النفس من رغبة وأديت بعض ما عَلَيَّ من حق الادب واللغة والتراث العربي المجيد.

الفصل الأول

قضايا الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي قديم موغل في القدم، مر باطوار وأزمان طويلة، فكان في عهد بداية وطفولة، ثم نما وترعرع حتى استوى قصيداً متيناً: على يد امرئ القيس واضرابه من فحول الجاهلية، ولابد أن يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطاً من الصناعة والدربة حتى استقام واكتمل على هذا الشكل الموزون المقفى، ذي الاسلوب الموجز الجميل، والخيال الخصب، والتعبير الدقيق الذي لا لغو فيه ولا تطويل، وفي لغته المتينة الجارية وفي أصول متعة في ذلك الشعر، وأن المعلقات التي بلغت مرتبة كبيرة من النضج الفني، ونالت اعجاب القدماء والمحدثين، كانت نتيجة دربة ومران طويل في صناعة الشعر[1]

ولم يكن هذا الفن الكلامي عمل فرد أو بضعة أفراد، بل كان عمل أجيال متعاقبة، وجد بعض ابنائها في انفسهم المقدرة على صوغ أفكارهم واحساساتهم في ألحان وأوزان تهتز لها النفس وفق ما تعارف الناس في التعبير اللغوي.

وليس من المستطاع تحديد فترة معينة لبدء تلك المحاولات، ولكن ما بأيدي الرواة من الشعر الجاهلي يرقى عَهْدُهُ الى مائتي سنة على الاكثر، وهذا هو التحديد الذي قرره الجاحظ حين قال: "وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، وأول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له-

---

(1) ليال: الشعر العربي القديم ص37.

وينظر في أولية الشعر الجاهلي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي -الحوفي ص174- 179 والعصر الجاهلي -شوقي ضيف ص183- 188.

الى ان جاء الله بالاسلام- خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام[1] والجاحظ هنا يعين عمراً للشعر الذي عرف وهو ناضج مكتمل، أما ما قبل ذلك، فلا يمكن ان يحد بفترة قليلة كهذه، فهناك مئات من السنين مر بها الشعر حتى وصل مكتملاً الى مهلهل وامرئ القيس وعنترة، وغيرهم.

وفي الشعر نفسه من الدلائل الواضحة على انه مسبوق بكلام كثير ومحاولات عهدها طويل، فامرؤ القيس يحاكي من قبله في الوقوف على الديار والبكاء عليها[2]:

عوجا على الطلل المحيل لأننا
نبكي الديار كما بكى ابن خُذَامِ

ويقول عنترة ان الشعراء الاقدمين تناولوا شتى المعاني فلم يتركوا للمتأخرين معنى صالحاً[3]:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

وهذا اقرار واضح بأن عنترة مسبوق بأجيال من الشعراء، استنفدوا المعاني الجيدة والتعابير الجميلة فلم يغادروا معنى لم يطرقوه.

وهذا الشعر الذي عرفه العرب عند الشعراء الجاهليين، وجد قريباً من الكمال، حائزاً على أسباب الجمال والاتقان، لفظاً ومعنى وعروضاً، حتى أن الشعراء المولدين لم يستطيعوا ان يضيفوا اليه جديداً بارعاً، فلم يزيدوا على البحور الجاهلية شيئاً، ولم يتمكنوا من تغيير نهج القصيدة، ومهما كانت تلك المحاولات التي بذلت للخروج على عمود

---

(1) الحيوان 47/1.

(2) ديوان امرئ القيس ص114.

(3) ديوان عنترة ص182.

الشعر في العصر العباسي، فإنها انتهت بالعودة اليه[1]، ولم يضيفوا الى موضوعات الشعر الجاهلي شيئاً ذا بال، ويصدق هنا قول ابن رشيق القيرواني في المقارنة بين شعر الجاهليين وشعر الاسلاميين: "وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين، ابتدأ هذا بناء فاحكمه واتقنه، ثم أتى الاخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن"[2].

هذا الشعر الخصب الزاهي الجزل المتين، نزل من النفس العربية منزلاً رفيعاً، فهو عند العرب سجل العواطف والمآثر والمفاخر، والشعر يصور حقيقة أهله ونفسية قائليه بكل ما لهم من بطولات وأمجاد، وبأس وشدة، وعصبية وغضب، وكرم ووفاء، يصور خصال الخير كما يبين دواعي الشر، ويسجل أيامهم ووقائعهم واصولهم وأنسابهم، فهو على ذلك ديوانهم، يقول أبو هلال العسكري: "كذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها الا من جملة اشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها ومستودع علومها"[3] فهم لذلك اذا اعتزلوا بمكرمة أو نصر او حادث سجلوا ذلك في قصيدة، فهي أبقى على الدهر من كل عمل، واخلد من كل اثر، وهذه سنة العرب في تخليد مآثرهم، وفي حيوان الجاحظ: "فكل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها

---

(1) لقد حصر المرزوقي أبواب عمود الشعر في سبعة مظاهر فقال: "انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والاصابة في الوصف -وفي اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ولكل باب منها ميعار.. "شرح الحماسة 9/1 وينظر نقد النثر ص84".

(2) العمدة 92/1.

(3) الصناعتين ص138.

وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها"[1] وكذلك ذهب ابن سلام: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون... قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه."[2] فالشعر على ذلك من أبرز وأوضح المظاهر الادبية، لأنه كان بلورة وتمثيلاً للروح العربية وتعبيراً عنها، والصفحة الواضحة التي أفصحت عن الحياة الجاهلية بكل مظاهرها، وبخاصة تلك المظاهر الكبرى التي كانت موضع عنايتهم، ثم هو الى ذلك العمدة التاريخية لتسجيل الاحداث وتصوير المواطن.

ولمنزلة الشعر في نفوس العرب وشغفهم به، صار له كبير الاثر في توجيه مشاعرهم واهوائهم، فقد حبب اليهم خصال الخير ورغبهم في الفضائل والمكرمات، وكره اليهم خصالاً ذميمة من البخل والغدر والجبن ولتحبيبهِ لخصال وتنفيره من أخرى جعل الأذهان ترتبط برغبات، والنفوس تتعلق بأمنيات موحدة مشتركة، فللشعر النصيب الاوفى في توحيد مشاعر العرب وتشابه طباعهم وعاداتهم ومثلهم، وصقل لغتهم وتوحيد لهجاتهم كذلك. وعلى الرغم مما كان يحدث بين القبائل من خصومات وغزوات كثيرة، فإن ذهنية العرب متجاوبة، وهم يلتقون عند مثل مشتركة، مثل عليا تقوم على الشرف والمروءة، وما كان ذلك ليكون لولا انتشار القصائد وسيرورتها بسرعة غريبة عجيبة، فهي ما تكاد تلقى من فهم قائلها، حتى تسير بها الرواة وتنشدها المجالس، وحقاً قالوا في أمثالهم "أسير من شعر" قال الميداني في تفسير هذا المثل: "لأنه يرد الاندية ويلج

---

(1) الحيوان 71/1- 72.

(2) طبقات الشعراء ص22.

الاخبية سائراً في البلاد مسافراً بغير زاد"[1]، قال الشاعر[2]:

فلأهدين مع الرياح قصيدة

مني مغلغلة الى القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة

في القوم بين تمثل وسماع

والامثلة كثيرة في أثر الشعر في نفوس العرب، وسلطانه عليهم، فرب بيت يقوله شاعر يرفع به قدر وضيع او يضع قدر رفيع، ويصدق هنا قول الحصري القيرواني في أثر الشعر ومكانته: "وقد بنى الشعر لقوم بيوتاً شريفة، وهدم لاخرين أبنية منيفة"[3]

وما هو إلا القول يسري فتغتدى

له غرر في أوجه ومواسم

فكم رفع من قدر أقوام كانوا أذلة، وأذل أقواماً كانوا أعزة، فهؤلاء أولاد جعفر بن قريع بن كعب الذين عرفوا ببني أنف الناقة، كانوا يأنفون من هذا اللقب فهو سبة عليهم، حتى أذا مدحهم الحطيئة بقوله[4]:

قوم هم الانف والاذناب غيرهم

ومن يُسَوّي بأنف الناقة الذنبا

صار اسمهم شرفا لهم، وصاروا بعد ذلك يزهون به بعد ان كان سبب استحياء.

وكثيراً ما يدفع الشعر الناس الى الخير ويهز أريحيتهم، وليس أدل على ذلك من مدحة الاعشى للمحلق، التي كانت تنويهاً به وتمجيداً له، بعد أن كان خاملاً فقير الحال، فقد قيل: أن الاعشى قدم سوق عكاظ،

---

(1) مجمع الامثال 354/1.

(2) هو المسيب بن علس، المفضليات ص62.

(3) زهر الاداب 22/1.

(4) الأغاني 181/2 والبيت في ديوانه ص128.

فأشارت امرأة المحلق على زوجها أن يسبق الناس الى ضيافته واكرامه، ففعل المحلق وبالغ في اكرامه، وعرف الاعشى بؤس المحلق وسوء حاله وكثرة بناته، ثم خرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً، واصبح الاعشى بعكاظ وقد اجتمع الناس حوله فانشدهم قصيدته:

أرقت وما هـذا السُّهادُ المـؤرق

وما بي من سقم وما بي معشق

مدح فيها المحلق وذكر كرمه وشرفه، حتى فرغ منها، ثم نادى الأعشى: "يا معشر العرب، هل فيكم مذكار يزوج ابنه الى الشريف الكريم"، فما قام المحلق من مقعده حتى زوج بناته جميعاً[1]، فالناس صارت تنظر الى المحلق وقد تمثلت فيه الفضائل والمكرمات، فالشعر يهز النفوس ويثير العواطف ويرغب في الخير، والى ذلك كان ينظر معاوية حين كتب الى زياد بن أبيه يعاتبه على أنه لم يَرْوِ ابنه الشعر: "ما منعك ان ترويه الشعر؟ فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل"[2].

وإذا كان هذا آثر الشعر في فعل الخير، فلعل أثره في فعل الشر والدعوة اليه أشد وأبلغ، فلرب قافية أثارت معركة يتوارث جرائرها الابناء عن آبائهم، أو تورث سبة لا يمحوها الدهر، هؤلاء بنو عبد المدان، أبيات من شعر حسان تجعلهم ينزلون من عليائهم، ويتوارون من سوء ما وصموا به، وأبيات أخرى تعيدهم الى زهوهم وأدلالهم على الناس، لقد بارك الله لبني عبد المدان بسعة الصدور وطول الاجسام وغلظها، فكانوا يفخرون بذلك على غيرهم، حتى إذا كسفهم حسان بقوله:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظَمٍ

جسمُ البغال وأحلامُ العصافيرِ

---

(1) الأغاني 9/113- 114.

(2) العقد الفريد 5/274 والمزهر 2/310- 311.

جاءوا اليه يسترضونه، وقالوا: يابن الفريعة: كنا نفخر على الناس بالعظم والطول فأفسدته علينا. ثم قال لهم: سأصلح منكم ما أفسدت، فقال يمدحهم[1]:

وقــد كنــا نقــول إذا رأينــا
لــذي جســم يُعَــدُّ وذي بيــان

كأنــك أيهــا المعطَــى بيانــاً
وجســماً مــن بــني عبــد المــدان

فعادروا الى سيرتهم الأولى. والامثلة كثيرة في تأثير الشعر في فعل الخير والشر على السواء.

وإذا كـان للشـعر هـذه المكانـة في النفـوس، فلابـد أن يكـون للشـاعر منزلـة رفيعـة في مجتمعـه وفي قبيلتـه، لأنـه لسـانها الـذاب عنهـا، الحـامي لاعراضـها، المفصح عن رغباتهـا، المخلد لمفاخرهـا وانتصـاراتها، ولذلك فإذا نبغ في القبيلة شاعر تباشرت القبيلة، وصنعت الولائم، وأقامت الافراح، يقول صاحب العمـدة: "وكـانوا لا يهنئـون الا بغـلام يولـد او شـاعر ينبغ او فرس تنتج"[2] فالشـاعر كـريم في نفسـه، عزيـز علـى قومـه، وقلما نجد شاعراً مهاناً او يتخذ الشعر حرفة ومكسباً يريق لاجلهما ماء الوجه –اذا استثنينا الحطيئة والاعشى- بل كان يرى أنه صوت القبيلة، سيفها ولسـانها وتحفل أخبـار الشعراء بمـا كـان لهم مـن فضل في اعـزاز قبائلهم ورفع مكانتها وحماية أعراضها.

ولم يكـن الشـعر عنـد العـرب ضـرباً مـن الـترف او ملـهاة يزجـى بهـا الوقـت، او فنـاً مقصـوراً علـى فئـة قليلـة مـن النـاس، بـل كـان الفـن الرفيـع الـذي يجـد النـاس فيـه تعـبيراً عـن عـواطفهم واحساسـاتهم وتمثـيلاً لمثلـهم وسـجياهم، ولـذلك أقبلـوا عليـه كـل اقبـال، حفظـوه وتدارسـوه ورووه وعنـوا

---

(1) العقد الفريد 328/5 وديوان حسان ص214.

(2) العمدة 65/1.

به عناية فاقت كل عناية.

وقد قامت عنايتهم بالشعر منذ العصر الجاهلي على دعامة قوية متصلة هي: (الرواية) والرواية[1] هي الوسيلة الأولى لنشر الشعر وذيوعه وحفظه، فما يكاد الشاعر يلقي قصيدته حتى تذهب بها الرواة كل مذهب، وتذيع بين الناس، دون ان يبذلوا جهداً في اذاعتها، وهي اذا ظهرت للناس فلا يستطيع أحد ان يحول بينها وبين الانتشار، وقد عبر عن ذلك عميرة بن جعيل، حين هجا قومه ثم ندم، ولات ساعة مندم، فقد ذهب بها الرواة وسارت بها الركبان[2]:

ندمت على شتم العشيرة بعدما
مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فاصبحت لا اسطيع دفعاً لما مضى
كما لا يرد الدر في الضرع حالبه

وكان للشاعر رواية أو أكثر من رواية، يلازمه وينقل عنه شعره، بل ان الشعراء يروي بعضهم عن بعض، فالشاعر الكبير يأخذ عنه شعراء صغار، يحفظون شعره ويرونه ويتأثرون بأسلوبه حين ينظمون، نجد ذلك في القبيلة الواحدة، كالذي نعرف عن الاعشى الذي كان راوية لخاله المسيب ابن عَلَس[3] وأبي ذؤيب الذي كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي[4]، وكذلك نجد الرواية بين شعراء من قبائل مختلفة، فعن أوس

---

(1) للتوسع في موضوع الرواية ينظر مصادر الشعر الجاهلي، الرواية والسماع ص188- 283 وتوثيق الرواة وتضعيفهم ص429- 478 والحياة العربية ص29- 36 وينظر العصر الجاهلي ص138- 158.

(2) الشعر والشعراء 650/2.

(3) طبقات الشعراء ص132 والشعر والشعراء 147/1 وكذلك يقال في الصلة بين طرفة بن العبد والمرقش الاصغر والمرقش الاكبر، ينظر طبقات الشعراء ص32.

(4) الشعر والشعراء 653/2.

بن حجر التميمي أخذ زهير بن أبي سلمى المزني وعن زهير أخذ ابنه كعب والحطيئة العبسي، وعن الحطيئة روى هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة روى جميل بن معمر، وعن جميل أخذ كثير عزة[1]، وهكذا نجد سلسلة من الرواة الشعراء يروي بعضهم عن بعض، يتعلم منه وينهج نهجه، مقلداً في بدايته، مبدعاً عند نضجه.

ولم يكن الامر مقتصراً على الشعراء او على مجموعة من الرواة، بل كانت القبيلة تحرص على رواية شعرها فتعلم صغارها الشعر، وحفظ أشعار القبيلة خاصة، كما كانت تفعل قبيلة تغلب التي هجاها الشاعر البكري على كثرة احتفالها بقصيدة عمرو بن كلثوم[2]:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم
يا للرجال لشعر غير مسئوم

ويتجاوز ذكر القصائد وحفظها أبناء القبيلة الى القبائل الأخرى، فينشدونها ويتمثلون بها في مجالسهم وأسواقهم، فالشعر عندهم غذاء وطرب وسمر وعلم لم يكن لهم علم أصح منه[3].

ويقى هذا شأن الشعر حتى جاء الإسلام، وعلى الرغم من انشغال العرب بالدين وانصرافهم الى القرآن والفتوح، فإنهم لم يهجروا الشعر ولم يتركوا روايته وسماعه، وبقيت الرواية متصلة، وكل ما يقال عن وقوف الإسلام في وجه الشعر والشعراء باطل لا حق فيه، وكيف يكون ذلك وقد كان الرسول يستمع الى الشعر ويسأل الشعراء ان ينشدوه،

---

(1) طبقات الشعراء ص87 والاغاني 8/91.

(2) الاغاني 11/54.

(3) طبقات الشعراء ص22.

فيستحسن منه ويدعو لقائليه، ويجيز عليه الشعراء[1]، ينشدونه من شعر الجاهلية قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله

حتى أنال به كريم المأكل

فيعجبه ايثار عنترة وسماحة نفسه، حتى انه عليه السلام ليقول: "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت ان أراه الا عنترة"[2]. ويسمع قول لبيد بن ربيعة:

الا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

فيقول: "أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد ..."[3]. وكانت عائشة أم المؤمنين كثيراً ما تنشد الشعر او تتمثل بأبيات منه، فيستمع الرسول الى ذلك الشعر ويعلق عليه، دخل عليها يوماً وهي تنشد من شعر زهير بن جناب:

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه

يوماً فتدركه عواقب ما جنى

يُجْزِيكَ او يثني عليك فإن من

أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فيقول عليه السلام: "صدق يا عائشة، لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[4]. وكان يستنشد اصحابه من شعر أمية بن أبي الصلت[5]،

---

(1) ينظر الإسلام والشعر ص53 وما بعدها.

(2) الأغاني 243/8.

(3) صحيح مسلم 768/4.

(4) الشعر والشعراء 381/1 والعقد الفريد 275/5.

(5) طبقات ابن سعد 376/5 والاغاني 129/4- 130.

ويستمع للخنساء تنشده فيستزيدها[1]، ويستمع لحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ينشدونه من شعرهم، فيشجعهم ويثني عليهم[2]، وأمر كعب بن زهير مع النبي معروف مشهور وكذلك ما أعطاه من هدايا، وينشده النابغة الجعدي قصيدته الرائية التي منها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى

ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

فيعجبه قوله ويدعو له: "لا يفضض الله فاك"[3]. والادلة كثيرة على اقبال الرسول على الشعر وعلى تشجيعه الشعراء واستنشادهم، وبذلك ندفع ما يقال عن توقف الرواية وان الاسلام كان معوقاً للشعر مثبطاً لهمم الشعراء[4].

وكذلك كان أصحاب رسول الله، يتناشدون الأشعار ويرونها ويحكمون عليها ويستمعون الى قائليها، ولم يكونوا متزمتين ضيقي الصدور، يروى ان الحسن البصري سئل يوماً: "أكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزحون؟ قال نعم، ويتقارضون من القريض وهو الشعر"[5]، ولم يعرض الصحابة عن الشعر، ولم يتركوا روايته، ما دام غير متعارض وأخلاق الاسلام وتعاليمه، ذكر ابو سلمة وصفهم: "لم يكن

---

(1) نهاية الارب 26/18.

(2) العقد الفريد 294/5 والعمدة 31/1.

(3) الشعر والشعراء 289/1 والاغاني 9/5.

(4) ينظر هنا قول ابن خلدون: "ثم انصرف العرب عن ذلك (أي الشعر) أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً" المقدمة ص581. وتابعه في ذلك من المحدثين جرجي زيدان: "أن الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح "تاريخ آداب اللغة العربية 222/1.

(5) الفائق في غريب الحديث والاثر 339/2.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الاشعار ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون"[1]، وكانوا يتناشدون الاشعار ويذكرون أخبار الجاهلية في المسجد وعلى مسمع مرأى من النبي، وهو راض، قال جابر بن سمرة: "جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الاشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

واتصلت الرواية في عهد الخلفاء الراشدين، وكان لهم نصيب من رواية الشعر وانشاده وحفظه، كان أبو بكر الصديق كثير الحفظ، كثير الرواية، واسع الاطلاع غزير المعرفة، ولذلك فإن الرسول الكريم كان يسأله عن صحة ما يروى من الشعر[3]، وكثيراً ما كان يستشهد في خطبه بأبيات مناسبة من الشعر، كخطته يوم السقيفة في مخاطبة الانصار: "فنحن وأنتم كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفرا حين أزلفت
بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يلمونا ولو ان أمنا
تلاقي الذي يلقون منا لملت
هُم اسكنونا في ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأكنت[4]

وكذلك كان عمر بن الخطاب يتمثل بالشعر في كل مناسبة،

---

(1) 275/1.

(2) الطبقات –ابن سعد 2/95- 96.

(3) التنبيه –البكري ص74.

(4) ادب الكتاب ص190.

حتى ان ابن سلام كان يقول: "لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر"[1]، وكان يعجب بزهير بن أبي سلمى ويستنشد الناس شعره، يعجب به ويفضله على الشعراء لصفات أوجزها في قوله: "كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه..."[2]، وثمة آراء لعمر مبثوثة في كتب الادب في الحكم على جيد الشعر ونقده والدعوة الى تعلمه وحفظه، وقد كتب الى ابي موسى الاشعري يقول: "مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الاخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب"[3].

وعلى هذه الحال كان علي بن أبي طالب، له علم وبصر ثاقب بالشعر والشعراء، كان يستنشد الشعراء ويتمثل بالشعر ويقبل عليه، بل كان نفسه شاعراً حفظت له كتب الادب والتاريخ مجموعة من جيد الشعر. أما ابن عباس فقد اتخذ من الشعر وسيلة لتفسير ما أشكل على المسلمين من ألفاظ القرآن الكريم، وكان يدعو الى معرفة الشعر للاستعانة به على فهم كتاب الله، يقول: "إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب"[4]، وكان اذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً"[5]. ولم تكن عائشة ام المؤمنين أقل من ابن عباس حفظاً ورواية، كانت تروي القصائد الطوال، وكانت معجبة بشعر لبيد، حتى قالوا: أنها كانت تحفظ له الف بيت، وقد مر بنا أنها كانت تتمثل بالشعر وتنشده بحضرة رسول الله

---

(1) البيان والتبيين 241/1.

(2) الشعر والشعراء 138/1 والأغاني 289/10.

(3) العمدة 28/1.

(4) العمدة 30/1.

(5) شرح الحماسة –التبريزي 3/1.

صلى الله عليه وسلم[1].

وحين قامت الحرب بين علي ومعاوية، كان الشعر من أسلحة الحرب، تهاجى به الفريقان المتقاتلان، وأثار الشعراء همم الجنود، وجادلوا فيه خصومهم، وأن القبائل المتحاربة كانت تجد في احياء تراثها من الشعر الجاهلي، ترويه وتذيعه، لأن فيه محامد القبيلة وامجاد آبائها، كما أنها كانت تقف على مثالب خصومها وما قيل فيهم من هجاء من الجاهلية والإسلام.

ومعنى هذا ان الرواية ظلت متصلة في صدر الإسلام، لم تنقطع ولم تفتر، وقد حدثت في الإسلام أحداث ساعات على رواية الشعر وازدهاره.

وفي العهد الاموي نشطت الحركة الادبية، وعلت مكانة الشعر والشعراء، وصارت مجالس الولاة والخلفاء منتديات أدبية تنشد فيها القصائد وتروى الاشعار، ويتبارى الرواة في ذكر النادر والغريب من الشعر والاحاديث والاخبار، وكان الخلفاء يشجعون الشعراء ويجزلون لهم الهبات والجوائز. وصار للرواة في هذه المجالس مكانة مرموقة، فهم مقربون مكرمون، يستدعيهم الخلفاء والولاة ليسمروا في مجالسهم مكانة مرموقة، فهم مقربون مكرمون، يستدعيهم الخلفاء والولاة ليسمروا في مجالسهم، ويحدثوهم أحاديث الجاهلية وأشعارها. كان معاوية يقرب عبيد بن شرية الجرهمي ويصغي اليه اذا حدثه، ويستزيده ويسائله، وكان يعجب من حديثه وكثرة حفظه وعلمه وحضور بديهته، ويقال انه كان يأمر ان تقيد أحاديثه بدفاتر، فيفعل غلمانه[2] لم يكن هذا شأن معاوية وحده، بل كان أكثر الخلفاء الامويين على هذه الشاكلة، وربما كان عبد الملك بن مروان أبرز الامويين في ذلك، لأنه هو نفسه كان

---

(1) الشعر والشعراء 381/1 والعقدة 275/5 والاحياء لعلوم الدين- الغزالي 109/3.

(2) الفهرست ص132.

حافظاً للشعر مقبلاً عليه، مجزلا العطاء للرواة والشعراء، كان يستقدمهم من بلدانهم ويسائلهم، وليس غريباً في هذا العصر ان يبردوا الى العراق بريداً ليحضروا عالماً من علماء الشعر والأيام ليسألوه عن بيت شعر او قصيدة او خبر من الاخبار او يوم من أيام العرب[1].

وقد كثر المؤدبون في هذا العصر يعلمون الناشئة الشعر واللغة والاخبار، وقد كان عبد الملك يوصي مؤدب ولده أن يعلمهم الشعر: "روهم الشعر يمجدوا وينجدوا"[2]، ويقول أيضاً: "أدبهم برواية شعر الاعشى، فإن لكلامه عذوبة"[3]، ومن هؤلاء المؤدبين كان المفضل الضبي والكميت والطرماح[4].

وقد كان هؤلاء الرواة يتنافسون في حفظ الشعر ومعرفة فنونه وغريبه، واستقصاء أشعار القبائل والوقوف على ما خلف الشعراء من شعر جيد، فنراهم في هذا العصر يلقون الاعراب حين يفدون الى البصرة او الكوفة، يأخذون عنهم ويدونون أقوالهم، او يرحلون اليهم في بواديهم ليشافهوهم ويدونوا عنهم الشعر واللغة والأخبار.

وكما كان الرواة في الجاهلية يلزمون الشعراء يروون عنهم ويذيعون شعرهم، فكذلك كانوا في هذا العصر، من هؤلاء الرواة شعراء يروون الشعر ليتعلموا، ومنهم من لم يكن شاعراً، بل اتخذ الرواية حرفة وعلماً اتقنه وبرع فيه. وهؤلاء هم الذين كانوا يصلحون أخطاء الشعراء وينقحون شعرهم ويهذبونه، روى أبو الفرج عن شيخ من هذيل انه زار الفرزدق ثم دخل على رواته فوجدهم يعدلون ما انحرف من شعره،

---

(1) التصحيف والتحريف ص4.

(2) العقد الفريد 274/5.

(3) جمهرة اشعار العرب ص67.

(4) البيان والتبيين 251/1 و323/2.

وكذلك دخل على جرير فوجد رواته يصلحون ما في شعره من سناد[1].

ولم يكن الشعراء أقل من الرواة اقبالاً على الرواية والتماساً لها، بل كانوا يحفظون الكثير من الشعر الجاهلي، ويروون لشعراء الجاهلية، ليقفوا على مذاهبهم ومداخل شعرهم، وليقتفوا بعد ذلك أثرهم في صناعة الشعر، هذا سراقة البارقي (توفي حوالي 79 هـ) يسجل في احدى قصائده ثقافته الغريزة واطلاعه وحفظه الكثير من الشعر الجاهلي، يقول[2]:

ولقد أصبت من القريض طريقة
أعيت مصادرها قرين مهلهل
بعد امرئ القيس المنوه باسمه
أيام يهذي بالدخول فحومل

وأبو دواد كان شاعر أمة
أفلت نجومهم ولما يأفل
إني فتى أدركت أقصى سعيهم
وغرفت من بحرٍ وليس بجدول

وهكذا يذهب بعدد مجموعة كبيرة من شعراء الجاهلية الذين وقف على شعرهم وأفاد من طريقتهم.

وقد تظافرت جهود كثيرة لجمع الشعر وروايته وحفظه، فالى جانب الرواة والشعراء، كانت هناك فئة من القصاص الذين يجتمع حولهم الناس في المساجد، يقصون عليهم ويعظونهم ويتمثلون بالشعر في أحاديثهم، وكذلك كان المؤرخون ورواة السيرة النبوية وغزوات الرسول، من مثل أبان بن عثمان وعروة بن الزبير ومحمد بن أسحق الذين كانوا

---

(1) الأغاني 258/4.

(2) ديوان سراقة البارقي ص64- 71. وكذلك فعل الفرزدق (ت 110 هـ) فله قصيدة في هذا المعنى ينظر ديوانه ص720.

يعنون بالشعر الذي قيل في الغزوات والأيام.

وفي منتصف القرن الثاني نجد جمهرة من الرواة والعلماء المحترفين انصرفوا للرواية وتفرغوا لها، فشهروا بكثرة حفظهم وسعة علمهم واحاطتهم باللغة والشعر والاخبار والايام، وانطلقوا نحو البادية يأخذون عن الاعراب يقيدون شعرهم وأخبارهم الجاهلية والإسلامية، ولعل أبرز هؤلاء الرواة المتقدمين: محمد بن السائب الكلبي (ت 146 هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) وحماد الرواية (ت 156 أو 164 هـ)والمفضل الضبى (ت 170 هـ) وخلف الاحمر (ت 180 هـ).

وقد بدأت حركة جمع الشعر والعناية به اولاً للحفاظ على القرآن الكريم ومعرفة تفسيره، فمنذ ابن عباس كان المفسرون يستعينون بالشعر على معرفة الفاظ القرآن، فكان ابن عباس يوصى الناس ان يلتمسوا تفسير الكتاب في أشعار العرب: "إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب"[1]. كما نشطت جماعة أخرى تجمع الشعر وتدرسه لتستنبط منه قواعد اللغة ومعرفة حركاتها، حفاظاً منها على لغة القرآن وضبط حركاته، ووجد كل أولئك في الشعر الجاهلي بغيتهم، وهكذا نشطت الرواية واتسعت دائرة التدوين والتأليف وقامت على أسس من العلم المنظم.

وقد صار الرواة في هذا العصر فئتين، لكل منهما منهج وأسلوب، أولاهما كوفية، وثانيهما بصرية[2]

وقد عرف الكوفيون بنقل الشعر الكثير، عمادهم السماع، وهم متسامحون في رواية الشعر، قليلاً ما يقفون عنده ليحققوا صحيحه من فاسده، ولذلك كان شعرهم أغزر وأكثر، قال أبو الطيب اللغوي:

---

(1) العمدة 30/1.

(2) ينظر مصادر الشعر الجاهلي فصل توثيق الرواة وتضعيفه ص429- 478. والحياة العربية ص29- 36 والعصر الجاهلي 148- 158.

"والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع منسوب الى من لم يقله، وذلك بين دواوينهم" [1]، وليس بغريب ان تلصق هذه التهمة بالكوفيين، فالناس ينظرون الى رواة الكوفة وكبيرهم حماد الرواية المعروف بتزيده وكذبه، كان حماد من الموالي ولد سنة 95 هـ وتوفي سنة 156 للهجرة [2]، وكان فاسد المروءة ما جنا زنديقاً [3]، يحسن نظم الشعر فيفسد شعر الجاهلية بما يحمل عليه ما ليس فيه، قال ابن سلام: "وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار" [4]. وفي حياة حماد ما يدل على سلوكه الشائن، فقد نشأ لصاً يتشطر قبل أن تتصل حياته بالرواية، روى أبو الفرج ان حماداً "كان في أول أمره يشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الانصار، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الادب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه، فبلغ من العلم ما بلغ" [5]، وقد عرف الناس حق حماد من العلم بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها، وكثرة الحفظ والذكاء، فشهدوا له بالبراعة والتقدم، حتى ان الهيثم بن عدي ليقول: "ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد" [6] ويروى عن كثرة حفظه ما يعد من الاعاجيب [7]، ومهما تزيد الناس وبالغوا في ذلك، فإن

---

(1) مراتب النحويين ص 74.

(2) وقيل توفي 164 هـ

(3) الحيوان 447/4 والاغاني 74/6 وامالي المرتضى 131/1.

(4) طبقات الشعراء ص40- 41.

(5) الأغاني 87/6.

(6) معجم الأدباء 140/4.

(7) ينظر خبره مع الوليد بن يزيد، الأغاني 71/6 ومعجم الادباء 137/4.

فيما يصح له دليل على علمه الواسع وحفظه الكثير. ولا شك ان للمنافسة بين الكوفة والبصرة أثراً في تهويل الصورة التي وصلتنا عن حماد، فقد شهد له منافسه الاصمعي راوية البصرة بأنه كان أعلم الناس إذا نصح[1] ومع ذلك فعلى الدارس ان يكون حذراً من مرويات حماد، لأن الكوفيين أنفسهم يتهمون حماداً، فابن الأعرابي الكوفي يروي عن المفضل الضبي أنه قال: "قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً، فقيل له وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب، لا، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الافاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند ناقد، وأين ذلك؟"[2] وقول المفضل هذا يحمل أمرين: اتهام حماد من قبل رجل كوفي، وشهادة له بعلو مكانته في العلم والرواية والاحاطة بأشعار العرب، ومما يقلل من تهمة المنافسة البصرية، أن البصريين وثقوا المفضل الضبي وهو كوفي، مما يدل على دقة بصر البصريين بالرواة والحكم على رواة الكوفة بما فيهم، ولا شك ان المنافسة البصرية كانت تبالغ حين تصف حماداً بأنه يلحن ويكسر الشعر ويصحف[3] لأن هذا الحكم جائر لا يصح، ولا يقوم أمام الرواية التي تصف حماداً بالعلم والدراية فإنهُ كان "أعلم الناس إذا نصح"[4]

ولم يكن حماد وحده المتهم في هذا الميدان، فقد عرف كذابون آخرون عاصروا حماداً مثل برزخ العروضي المعروف بالوضع والكذب في

---

(1) الأغاني 70/6.

(2) الأغاني 89/6 ومعجم الأدباء 140/4.

(3) الاغاني 283/8.

(4) الاغاني 70/6.

روايتـه[1]، وكـذلك جنـاد الـذي كـان كـثير اللحـن والتصـحيف والكذب[2]، ويلاحظ ان الرواة المتهمين بفساد روايتهم، سواء أكانوا في الكوفة أم في البصرة، أكثرهم من أصول غير عربية، وكلهم فاسق ماجن رقيق الدين فاسد الضمير.

ويلاحظ أن في الكوفة -عدا هؤلاء- الكثير من الرواة الثقات الـذين حفظوا الشـعر ونقلوه بأمانـة ودقـة وهـم ممن لا يرقـى الشـك الى روايتهم والى صلاحهم، وعلى رأس هؤلاء الأعلام الاثبات المفضل بن محمد الضبي (ت170 هـ)[3]، وقد أجمع الكوفيون والبصريون على توثيقه وشهدوا له بالعلم والدقة والامانة وسعة المعرفة بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها، وخبرته الكبيرة بأنساب العرب.

ومن الرواة الكوفيين الثقات الذين خلفوا المفضل وساروا على نهجه أبو عمرو الشيباني (ت 213هـ) وابن الاعرابي (ت 231 هـ) وممن يدخل في هذا الصنف محمد بن حبيب (ت 245 هـ) وابن السكيت (ت 244 هـ) وثعلب (ت 291 هـ) وكلهم كان على درجة كبيرة من الدراية والصدق والتثبت. فإذا عيب على الكوفة رواة متهمون، فإن وراءهم رواة حفظوا صحيح الشعر وبينوا فاسده، وكانوا يتحرون في نقلهم ويتحرجون في رواياتهم، فلا يحملون الا ما صح من الشعر والاخبار.

وإذا عدنا الى البصرة، نجدُ الرواية تتسم بالدقة والصدق، وأكثر رواتهم موثوق بهم، وان لم تخل هذه المدينة من الوضاعين المتهمين.

كان شيخ الرواية البصرية ابو عمرو بن العلاء، وقد عرف بصدقه وامانته، فهو احد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم، وكان من أوائل النحاة في البصرة، ولد سنة سبعين للهجرة وتوفي سنة 154

---

(1) انباه الرواة على انباه النحاة 242/1. والفهرست ص107.

(2) معجم الأدباء 425/2- 426 والفهرست ص135.

(3) وقيل 178هـ

أو 159 من الهجرة، قال الجاحظ في صفته: "وحدثني أبو عبيدة قال: كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب وأيام الناس"[1] وقد عرف بالصلاح والتقوى وتمسك في آخريات أيامه فأحرق ما كان لديه من كتب كتبها عن العرب الفصحاء، ويقال انها كانت كثيرة بحيث ملأت بيتاً له الى قريب من السقف[2].

ومثلما كان في الكوفة رواة فاسدون كذابون مزورون، فكذلك كان في البصرة مثل أولئك، ولعل ابرزهم خلف بن حيان الاحمر، الذي سار سيرة أستاذه حماد الرواية، فقد أخذ عنه وتلمذ له[3] وان خلفاً كان يعطي حماداً المنحول من الشعر فيقبله منه حماد ويرويه[4] وبين هذين الرجلين صلة جامعة وشبه كبير، فكلاهما عالم مطلع، وكلاهما فاسد المروءة منهم في دينه فاسق ماجن، وكلاهما من الموالي، فخلف من اعاجم فرغانة ولد سنة 115 وتوفي حوالي 180 هـ، كان عالماً باخبار العرب واشعارها، وكان شاعراً حاذقاً ذكياً كثير الحفظ، يقول ابن سلام: "اجتمع اصحابنا انه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدقه لساناً، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو انشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه"[5]، وشهادة ابن سلام هذه لا تدل على براءته من الكذب، بقدر ما تدل على بصره بالشعر وحلاوة منطقه وفصاحة لسانه، وقد اتهمه الاصمعي بأنه "وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً، وعلى غيرهم عبثاً به، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة"[6]، وقد أقر خلف بذلك

---

(1) البيان والتبيين 321/1.

(2) المصدر السابق والصفحة.

(3) مراتب النحويين ص47 و72.

(4) الاغاني 92/6.

(5) طبقات الشعراء ص21.

(6) مراتب النحويين ص47.

الوضع والكذب في أخريات أيامه حين تاب وتنسك وانصرف الى القرآن، فخرج الى أهل الكوفة فعرفهم الاشعار التي نحلها الشعراء[1].

ومثلما كان في الكوفة رواة ثقات يتصدون للوضاعين ويتحامون روايتهم، فكذلك كان في البصرة كثرة من أولئك الاثبات العدول، كالاصمعي: عبد الملك بن قريب، وهو عربي صميم ولد سنة 122 وتوفي سنة 215 وقيل 217 للهجرة، شهد له معاصروه بسعة علمه بشعر الجاهلية وأخبارها وأيامها، كما شهدوا له بالدقة والصدق والامانة، فهو عدل ثقة، وان تعرض للاتهام، ولذلك يقول أبو الطيب اللغوي دافعاً عنه تهمة منافسيه في الافتعال والكذب، مبيناً علو مكانته ودقة تحريه: "فأما ما يحكيه العوام وسقاط الناس من نوادر الاعراب ويقولون: هذا مما افتعله الاصمعي... وأنى يكون الاصمعي كما زعموا، وهو لا يفتي الا فيما أجمع عليه العلماء، ويقف عما ينفردون به عنه، ولا يجوز الا افصح اللغات ويلج في دفع ما سواه"[2]، وكذلك فعل ابن جني[3] حين ذكر أمانته وصدقه وعلمه، ونزهه عن الكذب والتزيد.

ومثل الاصمعي في علمه وصدقه ودقته، أبو زيد الانصاري، وهو عربي من الخزرج ولد سنة 114 وتوفي سنة 214 او 215 للهجرة، وكان معاصراً للاصمعي عالماً باللهجات واللغات الشاذة. ويعاصره كذلك عالم آخر، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المولود سنة 110 على التقريب والمتوفى سنة 211 للهجرة، وهو من الموالي المتهمين بالشعوبية، ولولا هذه النزعة فيه، لكان من المتقدمين الثقات[4].

ويأتي بعدهؤلاء رواة هم في مرتبة أدنى من سابقيهم، مثل محمد

---

(1) المصدر السابق والصفحة.

(2) مراتب النحويين ص49.

(3) الخصائص ص271- 272.

(4) انباه الرواة 280/3.

بن السائب الكلبي (ت 146 هـ) وابنه هشام بن محمد الكلبي (ت 204 هـ) وهما متهمان بالوضع في رواياتهما واخبارهما التاريخية، ومثلهما الهيثم بن عدي (ت 204 هـ). وخير من هؤلاء، أبو سعيد الحسن بن الحسن السكري، من رجال القرن الثالث (ت 275 هـ) واليه يرجع الفضل في جمع كثير من دواوين الشعر الجاهلي.

وقد عرفت الكوفيون بنقل الشعر الكثير وعمادهم السماع، وهم متسامحون في الرواية، وقليلاً ما يقفون عندها ليحققوا صحيحها من فاسدها، ولذلك كان شعرهم أغزر وأكثر، أما البصريون فقد عرفوا بالدقة والصدق وأكثر رواتهم موثوق بهم، وإن لم يبرأوا من الوضاعين المتهمين.

واريد ان اخرج من موضوع الرواية الى نتيجتين هامتين:

الأولى: أن رواية الشعر الجاهلي لم تنقطع، ولم يله الناس عن الشعر، بل ظلت الرواية متصلة مستمرة منذ العصر الجاهلي واستمرت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ونشطت وازدهرت في عصر الامويين حتى رست في القرن الثاني عند العلماء الرواة المحترفين، الذين نَهَضوا بالرواية وعلوم العربية نهضة زاهية زاهرة، كان من شأنها ان جمعت الشعر ودونته وألفت فيه شتى المؤلفات.

ولا يصح كذلك ما يقال عن انقطاع الرواية وانصراف الناس عن الشعر أول الإسلام، ووقوف الإسلام عائقاً بوجه الشعر والشعراء، وما الى ذلك من الامور الخاطئة المتوهمة. واتصال الرواية واستمرارها وتوثيقها يدفع التهمة التي تذهب الى أن الرواة المتأخرين لفقوا هذا الشعر على بعد الشقة بينهم وبين الجاهلين، وما دامت الرواية قد وردت متصلة بسلسلة محكمة لا فجوة فيها ولا انقطاع، فلا يمكن ان يدخلها التزوير بالشكل الذي توهمه المتأخرون قد يصح ان كثيراً من الشعر ضاع وسقط في

الطريق فلم تحفظه الحافظة[1]، وصحيح هو قول ابي عمرو بن العلاء: "ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"[2]، ولكن ان يكون ذلك التراث الضخم مصنوعاً ملفقاً من رواة عرفناهم ونبهنا كما نبه الاقدمون على رواياتهم، فأمر تدحضه الرواية المتصلة المحكمة.

والنتيجة الثانية: ان الشعر لم يكن ألعوبة بيد قلة قليلة من الرواة الوضاعين، بل كان وراءهم علماء ثقات اثبات يصححون ويمحصون وينقدون، ولم ينقلوا من الشعر الا الصادق الصحيح كأبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والاصمعي وأبي زيد الانصاري وغيرهم ولدقة هؤلاء ونباهتهم ونقدهم، فقد قدمهم ابن القطان على رواة الحديث، لمزية النقد التي عرفوا بها، قال ابن سلام. "حدثني يحيى بن القطان قال: رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون: هذا مصنوع"[3]. وما دام الباحث حذرا من الرواة المتهمين، بصيراً بهم، مهملاً لرواياتهم، فلا بأس عليه بعد ذلك أن يطمئن الى روايات الثقات من العلماء، وبخاصة تلك التي أجمع على صحتها أعلام الرواية الموثقين، وقد قرر ابن سلام هذا المنهج منذ القديم حين قال: "وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد ان يخرج منه"[4]

الانتحال

وهذه الذخيرة من الشعر الجاهلي، وكذلك الشعر الإسلامي، لم

---

(1) طبقات الشعراء ص22.

(2) طبقات الشعراء ص23 والخصائص 1/392.

(3) ذيل الأمالي ص105.

(4) طبقات الشعراء ص6.

تكن كلها سليمة مبرأة من الدخيل الذي حمل على الشعر في عصر متأخر، أو الفاسد الذي لفقته الاهواء والاقاصيص ولكي يكون الباحث على بينة حين يفيد من مصادره، عليه ان يقف على قضية الانتحال ويتعرف على الحقائق التي أقرها ثقات القدماء ونبه اليها المحدثون، وليضع لنفسه بعد ذلك منهجاً يعرف عن طريقه صحيح الشعر من فاسده.

حينما نتحدث عن الرواية والرواة، إنما نعني الرواية الصحيحة الموثقة والرواة الثقات وننبه على الرواة الوضاعين ونقوم الشعر حسب منزلته من علو الرواية وصحة الاصول، فعلى مقدار صحة الشعر تكون الثقة به والاعتماد عليه، لأن ما بأيدينا من شعر الجاهلية، وكذلك شعر الاسلام لا يصح ان يقبل على أنه صحيح لا ريب فيه، كما لا يصح ان يرفض على أنه باطل لا نفع به، وانما يؤخذ بالتنقية والتنقيح، والفحص والتمحيص، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه وقد وثقه الرواة وشهد بصحته الناقلون الثقات، ومنه الفاسد المصنوع او المنسوب الى تلك الفترة، وقد رفضه النقاد ونبهوا عليه.

ولنلق نظرة سريعة على رأي النقاد بهذا الشعر لنعرف الام انتهوا، وما هو منهجنا في تناول الشعر؟

لقد كان ابن سلام الجمحي (ت 231 هـ) أول من بحث قضية الانتحال بحثاً منظماً مستفيضاً في كتابه طبقات الشعراء، وعزا أسباب الوضع الى عاملين أساسيين: العصبية القبلية، والرواة الوضاعين. فقد رأى أن بعض القبائل كانت تتزيد في أشعارها، وتنحل شعراءها شعراً لم يقولوه، فأوضح ذلك في قوله: "لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم، وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد

فزادوا في الاشعار"[1]. وقد بين ما أضافه القرشيون في شعر شعرائهم فطولوا قصيدة لأبي طالب في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، وذكر ما حمل على حسان بن ثابت[3]، وقد لاحظ ان بعض أبناء الشعراء الاعراب كانوا يفدون الى المدن ويستنشدهم الرواة شعر آبائهم فينشدونهم، فإذا نفد ما لديهم زادوا في الاشعار، كما فعل داود بن متمم بن نويرة، فقد استنشده أبو عبيدة وانه "لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الاشعار ويضعها، واذا كلام دون كلام متمم، واذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها"[4]، ولم يخف بطبيعة الحال هذا الشعر المصنوع على الرواة الناقدين، فكانوا يرفضونه.

وقد نبه ابن سلام على الرواة الكذابين، كحماد الراوية ورفض مروياته وبين فساد روايته وحذر منه[5]، وذكر صنفاً آخر من الرواة، كانوا يحملون الشر الزائف، هم رواة الاخبار والسير، وأشار الى ابن اسحق راوي السيرة النبوية فقال: "ولسنا نعد ما يروي ابن اسحق له[6] ولا لغيره شعراً، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم"[7].

ولم يكن ابن سلام وحده الذي نبه الى فساد الشعر الذي يحمله ابن اسحق وتناوله بالنقد والتجريح، بل كان هناك آخرون، أخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشعر مما شابه من الزائف المصنوع، مثل ابن هشام صاحب السيرة النبوية (ت 218 هـ) الذي عمل على تعقب ابن اسحق فنقد

---

(1) طبقات الشعراء ص39- 40.

(2) المصدر السابق ص204.

(3) المصدر السابق ص179، 204- 205.

(4) المصدر السابق ص40.

(5) المصدر السابق ص23.

(6) اي لأبي سفيان بن الحارث في سياق الحديث عنه.

(7) طبقات الشعراء ص206.

الشعر وبين الفاسد والموضوع، واسقط الشعر الفاسد واوضح نقد العلماء له، وذكر الروايات الصحيحة وهكذا... وقد أقر ابن اسحق بذلك واعتذر بانه لا علم له بالشعر يحمل منه الجيد والرديء فقال: "لا علم لي بالشعر أوتى به فأحمله"[1]، ولم يرض ابن سلام بذلك عذراً فرد عليه بقوله: "ولم يكن له ذلك عذرا، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعاراً كثيرة وليس بشعر، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع الى نفسه فيقول: حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أي لا بقية لهم... فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحق، ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم"[2]

ونقد ابن النديم ابن اسحق كذلك، فقال: "ويقال كان يعمل له الاشعار ويؤتى بها، ويسأل ان يدخلها في كتابه السيرة فيفعل، فضمن كتابه من الاشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر"[3]

ولم يكن نقد الرواة، وتجريح الوضاعين، والتنبيه على الشعر المنحول، قد بدأ بابن سلام وابن هشام وكان مقصوراً عليهما، بل سبقهم الى ذلك المفضل الضبي (ت 168 أو 178 هـ) الذي نقد حماد الرواية وبين أكاذيبه[4]، وكذلك فعل الاصمعي (ت 216 هـ) حين نقد خلفاً الاحمر[5]، وتابعهم بعدَ ذلك ابو الفرج الاصفهاني في رفضه روايات ابن الكلبي عن دريد بن الصمة وبعض اشعاره، فقد نبه الى انها مكذوبة ملفقة من قبل ابن الكلبي نفسه[6].

---

(1) طبقات الشعراء ص9.

(2) المصدر السابق والصفحة.

(3) الفهرست ص36.

(4) الاغاني 89/6 ومعجم الادباء 140/4.

(5) مراتب النحويين ص46- 48.

(6) الاغاني 40/10.

هؤلاء العلماء الاثبات، حين جرحوا الرواة وكذبوا الوضاعين وبينوا الشعر الفاسد المصنوع، وثقوا من ناحية ثانية الشعر الصحيح وعدلوا الرواة الثقات، وشهدوا لهم بالدقة والامانة والعلم.

ففي الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي، شعر منتحل موضوع، ولم يكن النقاد القدامى غافلين عنه، فقد نقدوه ومحصوه وبنوا صحيحه من فاسده، ولكن ذلك الشعر المصنوع لم يكن من الكثرة بحيث يضطرب الدارسون في معرفته، أو يتخذون ذلك القليل الفاسد وسيلة لاتهام الشعر الجاهلي عامة، فإن من التجاوز على الحق والخروج على أصول البحث العلمي، ان نغلو في تقدير المنحول ونبالغ فيه معتمدين على مفترضات لم تثبت ولم تصح تاريخياً، ومن الخطأ الفاحش ايضاً ان تؤخذ فكرة الانتحال مركباً ذلولاً لدفع كل ما يغمض على الدرس ويلتبس مع النظرة العجلى ومع القصد الفاسد الخبيث فإن في ذلك ضلالاً كبيراً.

وإذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقاً يؤدي الى تصحيح المخطوء ورد المنحول، ومعرفة الحق من الباطل، فإنه كذلك حذر الباحثين ونبههم الى ان: "ما اتفقوا[1] عليه، فليس لأحد أنْ يخرج منه"[2]، وقد وضع في هذا المنهج حداً لفوضى الشك، وليس لأحد أن يرضى لنفسه الشك في شعر معتمداً على رواية مفردة شاذة من الروايات، فقد ترد روايات اخرى توثقه وتصححه، فإن لم يقم دليل واضح وحجة بينة على بطلان ذلك الشعر، فليس له أن يرجع الشك اذا كان اليقين يلوح في روايات اخرى تثبته وتوثقه.

فكثيراً ما تغرب روايات وتخفى عن علم الرواة أنفسهم، ومن الطريف في ذلك أن تمتد المحاجة في هذه النقطة، بين راويين كبيرين هما: خلاد بن يزيد الباهلي وخلف بن حيان الاحمر، فيقال إن خلادا قال لخلف:

---

(1) اي العلماء.

(2) طبقات الشعراء ص5- 6.

"بأي شيء ترد هذه الاشعار التي تروى، قال له، هل فيها ما تعلم أنت انه مصنوع لا خير فيه، قال: نعم، قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك، قال نعم، قال: فلا تنكر ان يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت"[1].

وقد أثيرت قضية الانتحال في العصر الحديث، وتناولها المستشرقون والعرب، ومن هؤلاء المعتدل المنصف، ومنهم المشتط المسرف المتحامل، وقامت مناقشات وكتبت ردود، وأُعْرِض هنا آراء أهم من كتب في الموضوع في ايجاز شديد[2].

لقد عرض المستشرق بلاشير قضية الشعر الموضوع عند المستشرقين بشيء من الايجاز في كتابه تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي[3] فذكر ان أول من تناول الموضوع هو المستشرق نولدكه سنة 1864م، وبعد ثماني سنين تطرق للموضوع المستشرق آهلوارد في مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين، فأعاد ما ذكره الأول من الشكوك التي تحوم حول صحة الشعر الجاهلي، وتابع هذين المستشرقين في آرائهما مستشرقون آخرون طوال ثلاثين سنة هم موير وباسيه وبروكلمان وليال وهوار الذي كتب مقالة بعنوان: (مصدر جديد للقرآن) سنة 1904م[4] على أن هؤلاء جميعاً لم يبلغوا في نظرية الانتحال من الشك والاسرف ما بلغه المستشرق الانجليزي مرجليوث، فقد ذهب الى رفض الشعر الجاهلي جملة، في مقالة له بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية بعنوان (أصول الشعر

---

(1) طبقات الشعراء ص8.

(2) ينظر مصادر الشعر الجاهلي ص352- 376 حول آراء المستشرقين.

(3) ترجمة ابراهيم كيلاني ص176- 193.

(4) المرجع السابق ص177 يشير الى المجلة الآسيوية ص142 وما بعدها.

العربي) سنة 1925م[1]، لقد ساق مرجليوث نعين من الادلة في محاولته اثبات بطلان الشعر الجاهلي، أدلة خارجية وأخرى داخلية[2].

الادلة الخارجية: أقر مرجليوث أولاً بوجود الشعر الجاهلي قبل الإسلام لأن القرآن اشار اليه وفيه سورة باسم الشعراء، ويقول ان خصوم النبي وصفوه بانه كان شاعراً مجنوناً، وتأتي في القرآن ثلاثة ألفاظ هي: كاهن ومجنون وشاعر: وإن هذه الالفاظ مترادفة بمعنى واحد "ويستنتج من ذلك ان من عادة الشعراء آنئذ التنبؤ بالغيب... وأن الشعر كان غامضاً مبهماً، ويقول: "ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب يعرفون باسم (الشعراء) كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائماً في الوحي".

ويتعرض لمسألة نشأة الشعر الجاهلي وانها مسألة غامضة، وآراء القدامى فيها متباينة فقد عزا بعضهم شعراً الى آدم والى عهد اسماعيل، ولكن الرأي السائد ان الشعر بدأ قبيل ظهور الإسلام بأجيال قليلة، والذين يرون هذا الرأي يجعلون مهلهلا او امرأ القيس أول الشعراء ومع ذلك فقد أوردوا شعراء لشعراء سبقوهما بزمن طويل، وان الشعر الذي وصل يشير في مواطن كثيرة الى الكتابة فلابد ان يكون عرب ما قبل الإسلام- الذين كانا يستخدمون لغة القرآن- كانوا مجتمعاً أدبياً عالياً. ويتحدث عن حفظ الشعر الجاهلي فيقول: "لو فرضنا ان هذا الشعر حقيقي فكيف حفظ؟ لابد أنه حفظ أما بالرواية الشفهية وأما بالكتابة، ويبدو أن الرأي الأول هو الذي يذهب اليه المؤلفون العرب" ثم يشك في وجود

---

(1) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ص417- 449 وترجع صلة مرجليوث بالموضوع الى سنة 1905 حين كتب عن (محمد وظهور الإسلام) ثم عاد ولم أطراف الموضوع سنة 1925 في بحثه اصول الشعر العربي.

(2) لخص ناصر الدين الأسد مقالة مرجليوث في كتابه مصادر الشعر الجاهلي ص353- 367 ومنه اخذنا ونقلنا. وقد ترجمنا نص بحث مرجليوث وعلقنا عليه وقدمت لنظرية الانتحال في كتاب (اصول الشعر العربي) سنة 1977 وطبع في بيروت سنة 79 و1981.

الرواية الشفهية، لأن ذلك يقتضي أن يكون هناك رواة عملهم فقط حفظ الاشعار، وإنَّ الإسلام يجب ما قبله وإنَّ القرآن ذكر ان الشعراء يتبعهم الغاوون فهذا ما يدعوهم الى نسيان الشعر، ثم إنَّ القصائد تصور انتصارات القبائل بعضها على بعض وإنَّ الإسلام يحث على نسيان تلك الحوادث لأن هذه القصائد تثير الضغائن الجاهلية.

وإذا كان الشعر الجاهلي لم ينقل بالرواية الشفهية التي يزعم مرجليوث أنه دحضها، فلم يبق إلا طريق الكتابة، وبعد ان يقر بوجود الكتابة ينفي ان يكون الشعر قد نقل بطريق الكتابة، وذلك ان القرآن ينفي ان يكون للجاهلين كتاباً يقرأونه، وأن الأدب يتطور من الصور الشاذة غير المألوفة الى الصور المألوفة المنتظمة، وأن الشعر الذي وصل ويزعم انه جاهلي انما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه، لأن الأساليب الادبية سواء النثر المسجوع والشعر فيها مشابه من أسلوب القرآن، وفي القرآن نثر مسجوع وفيه ايضاً أمثلة على كثير من الاوزان الشعرية، والتطور من الاسلوب القرآني الى الاسلوب المنتظم يبدو متمشياً مع المألوف.

ثم يجمع الاخبار والروايات التي ذكرها الرواة في اتهام بعضهم البعض، ويجرح هؤلاء الرواة من مثل حماد وجناد وخلف الاحمر وابي عمرو بن العلاء والاصمعي وأبي عمرو الشيباني وابن اسحق والمبرد، ويتساءل عن مصادر هؤلاء اذا كان الإسلام قد حارب الوثنية وناصبها العداء وكان الشعراء لسان تلك الوثنية، فمن هم اولئك الذين حفظوا الشعر ثم نقلوا الى غيرهم تلك الاشعار التي تنتسب الى نظام أبطله الإسلام، ثم يعود فينفي ما قاله اولاً بأن هؤلاء الشعراء "لم يكونوا كما يبدو عليهم لسان الوثنية الناطق، بل كانوا مسلمين في كل شيء ما عدا الاسم".

ثم ينتقل الى الادلة الداخلية فيقول:

ان هذا الشعر الجاهلي فيه اشارات الى قصص ديني ورد في

القرآن، وفيه كلمات اسلامية مثل: الحياة الدنيا ويوم القيامة والحساب وبعض صفات الله، ولا نجد في الشعر جو الآلهة المتعددة الذي نجده في النقوش، وربما كان هذا الذي اوحى للاب شيخو نظريته في انهم جميعاً نصارى، وإن تكن هذه النظرية غير صحيحة"، وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثراً كبيراً بتعبيرات الاناجيل ورسائل الحواريين والاناشيد، ويتخذ شعرهم في الغالب طابع الترانيم، ولكن في الشعر –الذي يفترض أنه شعر جاهلي– ندرة كبيرة في الإشارات الى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا في بلاط مسيحي... وبالرغم من ان الشعراء الجاهليين يقسمون كثيراً، فهم لا يكادون يختلفون في قسمهم بالله وهو قسم شائع حقاً في دواوينهم، ويستنتج بعد ذلك: "ان الديانة الوحيدة التي يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هي الإسلام".

وتعرض مرجليوث الى اللغة الجاهلية من حيث اختلاف اللهجات بين القبائل، ولااختلاف بين لغة القبائل الشمالية واللغة الحميرية الجنوبية "ولو أننا افترضنا ان أثر الإسلام في قبائل بلاد العرب وحد لغتهم، فانه من الصعب ان نتصور انه كانت ثمة لغة مشتركة –تختلف عن لغات النقوش– منتشرة في انحاء شبه الجزيرة كلها قبل ان يهيء الاسلام هذا العنصر الموحد" وإذا كان هناك شعراء في بلاد الجنوب فلابد انهم نظموا باحدى اللهجات الجنوبية، ويقول: "وكما أن وجود الافكار الاسلامية في الاثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها، فإن استخدام لهجة جعلها القرآن لغة فصحى امر يدعونا الى ان نشك فيها طويلاً... ويبدو ان المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع انحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة، كان عملهم هذا متمشياً مع عملهم في جعل كثير من هؤلاء الشعراء بل اكثرهم يعبدون الله لا يشركون به، انهم يسحبون على الماضي ظواهر هم أنفسهم يعرفونها"

ويفترض مرجليوث ان الموسيقى لم توجد في العصر الجاهلي وانها من مستحدثات العصر الاموي، وأن التطور يقضي بأن ينشأ الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر، فمن غير المعقول لديه ان يتصور وجود الوزن الشعري عند العرب بهذا النظام وبهذه الغزارة، ويقول: "لقد كانت الممالك الجاهلية التي نعرفها عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر، فهل نصدق ان الاعراب غير المتحضرين كان لهم شعر في مثل هذه الصور المركبة، كما يصدق بذلك العلماء الاقدمون من المسلمين؟ وبوجه عام فإن من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو: ان كلا من الشعر والنثر المسجوع كانا في معظمها مشتقين من القرآن، وأن تلك الجهود الادبية التي سبقت القرآن كانت اقل فنا منه لا اكثر فنا" [1].

لقد كانت مقالة مرجليوث حافزاً لكتابات كثيرة، لما حوته من آراء جريئة ومزاعم وتصورات تخطئ الواقع التاريخي وحقيقة الحياة الجاهلية، فكان المستشرقون أنفسهم هم الذين ردوا عليه وناقشوا نظرياته وحاجوا مزاعمه ولعله لم يتح للعرب ان يطلعوا على أفكاره تلك او لم يكن لمن اطلع عليها ثقافة قديمة بالشعر تمكنه من مناقشته والرد عليه.

وكان أول المستشرقين الذين ردوا على افتراضات مرجليوث هو شارلس جيمس ليال في المقدمة التي كتبها للجزء الثاني من المفضليات سنة 1918م فقد ناقش ما كتبه مرجليوث [2] حول حماد الراوية وخلف الاحمر، فعرض سيرتهما وناقش الروايات التي قيلت حولهما يقول: "أنه لمن الخطأ العظيم، أن نعد هذين الرجلين –حمادا وخلفا- النموذجين

---

(1) ما جاء بين الاقواس هو كلام مرجليوث نقلاً عن مصادر الشعر الجاهلي ص353-367.

(2) حول كتابه محمد المنشور سنة 1905 وحول مقالة عن محمد في معلمة الدين والاخلاق سنة 1916.

المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون اشعار القبائل. فقد كانا كلاهما من أصل فارسي. أما رواة القبائل فكانوا من العرب، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التي تحفظ شعرهم وتخلده في صدور القبيلة والامة العربية بعامة وكان من هؤلاء ان اخذ الرواة الجامعون في القرنين الاول والثاني الهجريين ما جمعوا من شعر. أما ان نذهب كما ذهب أحد العلماء المحدثين[1] الى ان جميع ما نسميه بالشعر العربي القديم موضوع منحول، مستدلين على ذلك بالقصص التي تروي عن حماد وخلف... فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها. ان حماداً وخلفاً كانا يحاكيان أسلوبا للنظم كما قد قرر واتخذ صورته النهائية زمناً طويلاً قبل الإسلام، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين، أو غير مسلمين، في زمن محمد ثم أسلموا، وقد كثر استخدامه وسجل بالكتابة لعهد شعراء القرن الأول الهجري (مثل جرير والفرزدق والاخطل وذو الرمة، ولم اذكر الا الذين خلفوا لنا تراثاً من الشعر كبيراً). فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع، فقد كانت الطبقة الاخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون في جمع الشعر وتدوينه. ولا يمكن أن تعترضنا في دراستنا لهؤلاء الشعراء، مشكلة الوضع والنحل لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التي تلقى عليهم لنشرها وتخليدها. أما الشعر الجاهلي فربما حاكاه حماد وخلف، ولكن هذه الحقيقة نفسها، المحاكاة، تدل على وجود أصل يحاكي. أما ان نذيع ان ما بين أيدينا لا يعدو ان يكون الصورة المحكية، وانه لم يبق شيء من الاصل نفسه، فذلك امر لا يقره الفهم السليم على ضوء هذه الظروف"[2]

ثم عاد ليال فتناول موضوع صحة الشعر الجاهلي والرد على مرجليوث في مقدمته لديوان عبيد بن الابرص، وأوثر هنا ان انقل رأيه نصاً

---

(1) يشير الى مرجليوث.

(2) مقدمة المفضليات 2/20- 21 عن مصادر الشعر ص371.

لما فيه من حجة واضحة لانه كان يدرس ويحقق موضوعات ودواوين الشعر الجاهلي والرد على مرجليوث في مقدمته لديوان عبيد بن الابرص، وأوثر هنا ان انقل رأيه نصاً لما فيه من حجة واضحة لأنه كان يدرس ويحقق موضوعات ودواوين الشعر الجاهلي فكانت الصورة في ذهنه واضحة جلية غير مشوشة بالنظريات والافتراضات، يقول ليال: "أما موضوع صحة هذا الشعر فأمر من الطبيعي ان يختلف فيه الناس. إذ من المؤكد ان شعر الاعراب في الجاهلية العربية لم ينتقل بالكتابة، بل بالرواية. وكانت القبيلة تعد القصائد التي سجل انتصاراتها اغلى ما تملك، فكانت ترويها جيلاً بعد جيل، وبالإضافة الى هذه المعرفة العامة المنتشرة في القبيلة، كان هناك الراوي، وعمله ان يحتفظ بمذخور الشعر الذي تعيه ذاكرته، وكان يعتني بالذاكرة –في العصور التي لم تستخدم فيها الكتابة إلا في المدن ولاغراض خاصة- عناية كبيرة، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب منها في العصر الحديث وليس من الغريب ان تتاقل القصائد بهذه الطريقة قرنين او ثلاثة.

ومن الطبيعي ان يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيي في اثناء هذا التناقل فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها، وقد يؤدي عدم تثبت الذاكرة الى اسقاط أبيات، أو تغيير في ترتيبها، او وضع عبارات الراوي بدل العبارات التي نسيها. ومثل هذه الظواهر شائعة في كل مكان. غير اننا حين تفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية ما يكفينا للاستدلال على أن القصائد، في معظمها، من نظم الشعراء المنسوبة اليهم.

فالمعلقات السبع مثلاً كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة، وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز. ونجد الامر نفسه في القصائد الثلاث الباقية (للاعشى والنابغة وعبيد) التي عدها بعض النقاد من المعلقات. فقد تركت شخصية امرئ القيس

وزهير ولبيد والنابغة والاعشى طابعها على شعرهم، ومن جموح الخيال ان نظن ان معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة في عصر متأخر، صنعها علماء عاشوا في ظروف مغايرة تمام المغايرة، وفي حياة شديدة الاختلاف عن حياة الاعراب في الصحراء العربية.

والسبب الثاني لاعتقادنا ان الشعر القديم صحيح في جملته، وليس منحولاً، هو أن شعر القرن الأول الهجري يتضمن وجود هذا الشعر الجاهلي ويفترض سبقه عليه: فقد استمر شعراء القرن الأول المشهورون: الفرزدق وجرير والاخطل وذو الرمة، يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين من غير ان تكون بينهم فجوة، فضلاً عن انهم ذكروهم في شعرهم، فقد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مراراً متكررة، متناولين الموضوعات نفسها بالاسلوب نفسه، محسنين ومحورين ومقتبسين، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها. وليس هناك من شك في أنه قد وصلنا شعر هؤلاء الشعراء صحيحاً فقد عاشوا في عصر عم استخدام الكتابة فيه لتدوين الشعر وان كانت الرواة ما تزال اداة نشره بين الجمهور.

وسبب ثالث: هو ان الشعر القديم مليء بألفاظ كانت غريبة على العلماء الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد. فقد كانت تنتمي الى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم، وكانت غير مستعملة في الزمن الذي كتبت فيه القصائد وجمعت الدواوين. ولابد أن يتنبه كل من اتصل بالشروح القديمة وعرفها (وهي المادة التي جمعت منها المعاجم الكبيرة فيما بعد) الى ان الشراح- الذين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً- توصلوا الى شرح الصعوبات بمقابلة عبارة بأخرى، وبالجدل والنقاش، لا بالرجوع الى لغة الخطاب التي لم تعد تحوي الالفاظ التي يبحثون عن معناها. وتعتمد المعاجم كل الاعتماد على الشعر القديم وعلى القرآن والحديث، وتفترض صحة الشعر كما تسلم بصحة القرآن

والحديث" (1).

وتناول مستشرقون آخرون مهمة الرد على مرجليوث ودحض نظرياته تكتفي بالاشارة الى مقالة جورجي ليفي دلافيدا عن (بلاد العرب قبل الإسلام) (2) تحدث فيها عن قيمة المصادر التاريخية للعصر الجاهلي وأصل فيها الرواية الشعرية.

أما العرب، فقد كان أول من بحث هذا الموضوع من المعاصرين هو مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) سنة 1911م، وقد روى ما قاله القدماء وتابع ابن سلام في آرائه دون غلو او شطط.

ثم تناول الموضوع الدكتور طه حسين، فألف فيه كتابه (في الشعر الجاهلي) سنة 1926م فأثار ضجة كبيرة لما فيه من آراء جريئة يتعرض بعضها للدين، ثم حذف منه وزاد فيه ووسعه فاصدره سنة 1927 بعنوان (في الادب الجاهلي)، وقد أخذ طه حسين اكثر مادته من روايات ابن سلام واستنتاجات وآراء مرجليوث، وتوسع فيها وعمم الاحكام الفردية واتخذ الامور الخاصة قواعد عامة حتى خرج بحكم جرئ هو صياغة جديدة لرأي مرجليوث، وذلك قوله: "إن الكثرة المطلقة مما نسميه ادباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وانما هي منحولة بعد ظهور الاسلام، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم اكثر مما تمثل حياة الجاهلين" (3).

وقد قسم بحثه الى ثلاثة أقسام: دوافع الشك في الشعر الجاهلي، وأسباب الوضع والنحل، ثم درس فريقاً من الشعراء وشك في نسبة الشعر اليهم.

تحدث في دوافع شكه فقال: ان الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة

---

(1) مقدمة ديوان عبيد بن الابرص ص17- 19 ومصادر الشعر الجاهلي ص372- 374 وترجم حسين نصار أيضاً مقدمة ليال في طبعته لديوان عبيد سنة 1957.

(2) ص41- 48 سنة 1944 ينظر مصادر الشعر ص374.

(3) في الادب الجاهلي ص71- 72.

الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين[1]، وان هذا الشعر يبعد كل البعد عن ان يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي، لأن هناك خلافاً قوياً بين لغة حمير ولغة عدنان، وان القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية تختلف من حيث اللهجة، مع ان الشعر الذي وصلنا جاء بلهجة واحدة. وقال: ان فريقاً من العلماء اتخذوا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث، مع ان الشعر لم يصل مدوناً بل عن طريق الرواية الشفهية.

ويتحدث عن أسباب الانتحال فيرجعها الى:

السياسة: ويريد بها العصبية القبلية مثل ما كان بين قريش والانصار من عداء، وما كان بين القبائل من أحقاد قديمة، ومع ذلك لم يستشهد بشعر جاهلي بل استشهد بشعر اسلامي قيل بعد الاسلام.

الدين: وتطرق الى الشعر الذي قيل قبل البعثة تبشيراً بالنبي او ما جاء عند المفسرين من ذكر الأمم السابقة، وان الديانة اليهودية والديانة المسيحية لم يظهر لهما أثر في الشعر الجاهلي.

القصص: وتحدث عن القصص وما كانوا يضعون من الشعر لتزيين القصص والاخبار، ويقسم ذلك القصص الى: قصص لتفسير الامثال والاسماء والامكنة، وقصص المعمرين واخبارهم، وقصص ايام العرب واخبارها.

الشعوبية: وتحدث عن الخصومة بين العرب والموالي، وان هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً واشعاراً واضافوها الى الجاهليين والاسلاميين وكذلك فعل خصومهم يقول: "وكانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لاقدارهم"[2] ولكنه لم يقدم شاهداً واحداً على ذلك.

---

(1) السابق ص88.

(2) السابق ص186.

الرواة: وتحدث عن فساد مروءة بعض الرواة مثل حماد وخلف وابي عمرو الشيباني، وانهم كانوا ينحلون الشعر ويعبثون بالشعر، وطائفة أخرى اتخذت الرواية مكسباً أولئك هم الاعراب الذين كان يذهب اليهم رواة الامصار يسألونهم عن الشعر والغريب.

ثم تناول في القسم الثالث من كتابه الشك في شعر مجموعة من شعراء الجاهلية مثل امرئ القيس وعلقمة الفحل وعبيد بن الابرص وعمرو بن قميئة والمهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والاعشى، ثم تحدث عن الشعر المضري وحاول ان يتخذ له مقياساً فنياً لصحة الشعر، ذلك المقياس الذي يظهر في شعر اوس بن حجر وتلاميذه زهير وكعب والحطيئة.

وقد أثار كتاب طه حسين هذا الرأي العام الادبي والديني، فانبرى للرد عليه ومناقشته وتفنيده مجموعة من الكتاب والادباء، منهم الذي يغلب عليه الحماس والعاطفة، ومنهم الذي اتبع الاسلوب العلمي المتزن في المناقشة، فنشر في الصحف والمجلات الكثيرة من المقالات والردود، وألفت كتب في ذلك، منها: (نقد كتاب الشعر الجاهلي) لمحمد فريد وجدي و(الشهاب الراصد) لمحمد لطفي جمعة و(نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد خضر حسين، و(محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد الخضري و(النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي) لمحمد أحمد الغمراوي وله مقدمة طويلة لشكيب ارسلان وفصول في كتاب (تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعي.

ولعل أوثق هذه الكتب واحسنها علماً ودقة -فيما أحسب- هو كتاب النقد التحليلي للغمراوي وقد عرض ناصر الدين الاسد لهذه الكتب واستعرض الردود والمناقشات في كتابه مصادر الشعر الجاهلي[1]

---

(1) ص402- 428.

بدقة ووضوح.

هذه بايجاز قصة نظرية الانتحال كما جاءت عند القدماء والمحدثين من مستشرقين وعرب[1] وقد آثرت وصفها دون الدخول في مناقشة الاراء وتفنيد المزاعم وتصويب الاخطاء لأن ذلك أمراً فرغ منه الكاتبون واستقر على ضوء الدراسات الحديثة في تأصيل الشعر الجاهلي ونفى الموضوع عنه، ومنهجنا في تناول الشعر الجاهلي يقوم على أخذ ملاحظات النقاد السابقين الثقات والافادة منها، اذ لا يمكن الركون الى شعر نبه على بطلانه الاقدمون، وحام الشك حوله. ولا نثق كذلك برواية اولئك المتهمين الكذابين الذين عرفوا بوضعهم وتزيدهم، وضمانة كل بحث أمين، ان يعتمد على تمحيص الاخبار والاشعار، وتنقيحها وتحقيقها، ويجدر بالباحث قبل ان يفيد من الشعر ويبني عليه احكاماً معينة ان يعرضه على الحدث التاريخي، فاذا استجاب له قبله والا رفضه واستبعده، ولا يجوز ان يبني عليه حكماً او يستنبط نتيجة، وان يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره، فإذا وافقه كان منه والا اعرض عنه، وعليه ألا يزعم اليقين القاطع لما يتوصل اليه من نتائج واحكام، فأين اليقين القاطع في مثل هذه المباحث التي تقوم دلائلها على مناقشة الاخبار واستنطاق الروايات والنصوص.

---

(1) وقد كتب في موضوع الانتحال عند القدامى والمحدثين فريق من الباحثين غير من ذكروا هم: فؤاد افرام البستاني (الشعر الجاهلي) سلسلة الروائع ص17- 21 الطبعة الأولى سنة 1927، وقد أفرد ناصر الدين الأسد الباب الرابع من كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) ص287- 428 سنة 1956 وهو أوسع واشمل من كتب في هذا الموضوع اذ حكى آراء القدامى والمستشرقين والعرب المعاصرين وقد أفاد منه كل من كتب بعده، وتعرض شوقي ضيف لقضية الانتحال بايجار في كتابه (العصر الجاهلي) ص163- 175 سنة 1960م، وأضاف احمد الحوفي موضوع توثيق الشعر الجاهلي الى الطبعة الرابعة من كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) ص20- 54 سنة 1962، والف بعد ذلك عبد الحميد المسلوت كتاباً باسم (نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي) بلا تاريخ، وكتب علي جواد الطاهر بحثاً بعنوان (الشعر المنتحل الموضوع عند ابن سلام) مجلة الآداب العدد 12 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1965.

المعلقات

المعلقات قصائد طوال جياد، اختيرت ن احسن الشعر الجاهلي، قوة ومتانة وجمال اسلوب فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت اليها تجارب الجاهليين في التعبير الادبي، ولذلك غطت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلي، وصار لقائليها من الذكر والشهرة لما لم يظفر به غيرهم من الشعراء، واتخذها الادباء والشعراء -بعد عصرها- قدوة يحاكونها حين ينظمون، متأثرين بأسلوبها ولغتها وطريقة نظمها وتسلسل أفكارها، محاولين أن يبلغوا في قصائدهم مبلغ أولئك الجاهليين في معلقاتهم.

اتفق القدماء -غير التبريزي- على أن المعلقات سبع، هي: لامرئ القيس، وزهير بن ابي سلمى، وطرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي[1]. ولم يخالفهم في هذا الا ابو زيد القرشي -وخلافه في الشعراء وليس في عددهم-[2] فقد اخرج من هؤلاء السبعة الحارث بن حلزة وعنترة، واضاف الى الباقين النابغة الذبياني والاعشى فهم عنده: امرؤ القيس، وزهير، وطرفة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، والنابغة، والاعشى[3].

أما التبريزي شارح المعلقات، فقد جمع بين رأي هؤلاء المجمعين على اصحاب المعلقات، وبين رأي القرشي، ثم أضاف إليهم عبيد بن

---

(1) هذا ما ذهب اليه كل من :ابن عبد ربه -العقد الفريد 5/269- 270 وابن رشيق- العمدة 1/96 وابي جعفر النحاس- السبع الطوال مخطوط بدار الكتب المصرية برقم 460 آداب وابن الانباري -شرح القصائد الطوال الجاهليات والزوزني -شرح المعلقات السبع.

(2) اثبت النساخ في جمهرة اشعار العرب قصيدة عنترة مع المعلقات، والصواب ان موضعها مع المجمهرات ولذلك وهم الدكتور طبانة في عد اصحاب المعلقات ثمانية ولم يقل بذلك القرشي حين احصاهم، ينظر معلقات العرب ص11.

(3) جمهرة اشعار العرب ص95 وما بعدها.

الابرص، فبلغت المعلقات عنده عشراً. ولم يخلط احد في هذه المعلقات وفي معرفة اصحابها الا ابن خلدون الذي تحدث عنها وذكر اصحابها وتعليقها ثم قال: "... كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبده والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع"[1] والاضطراب ظاهر في كلامه حيث احصى سبعة شعراء ثم قال: (وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع) فهذه العبارة الملحقة لا مكان لها، وهو هنا يسقط من شعراء المعلقات ولم يشك بهما احد قبله، وان كان كلامه (وغيرهم من اصحاب المعلقات) يشملهما. ثم انه اقحم علقمة بن عبدة بين شعراء المعلقات وهذا ما لم يقل به أحد.

وإني هنا أمام فرض ارجحه، هو: أن يكون ابن خلدون قد سمى قسماً من شعراء المعلقات دون الستة ثم قال: (وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع) ثم جاء النساخ فارادوا ان يتموا تسمية شعراء المعلقات فزادوا في كلامه –عن جهل او عن خطأ. أما من اين جاء ذكر علقمة بن عبدة، ولم يذكره أحد في أصحاب المعلقات، ففي أكبر الظن ان ذهن النساخ انصرف الى ان المعلقات هي السموط، وهي كذلك، وان قريشاً اطلقت اسم السمط على قصيدتين لعلقمة، ففي رواية تسند الى حماد، إن علقمة بن عبدة، قدم على قريش فأنشدهم قصيدته التي أولها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

أم حبلها اذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذه سمط الدهر، ثم عاد اليهم العام المقبل فانشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشيب

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص581.

فقالوا: هاتان سمطا الدهر[1]. فعدوا لذلك علقمة في اصحاب المعلقات، وليس ببعيد ان يكون ابن خلدون نفسه قد وقع في هذا الوهم. وعلى اي حال فإن عبارة ابن خلدون لا يمكن ان تؤخذ على ما فيها من خلط واضطراب، فإذا اعرضنا عن هذه الرواية –لاضطرابها وتناقضها وتأخرها– [2] نجد بعد ذلك ان الرواة يجمعون على الشعراء الستة الأوائل، ولم يختلفوا في واحد منهم وهم: امرؤ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة. وإن سابع هؤلاء الشعراء هو الحارث ابن حلزة عند اكثر الرواة، ولم يخالف في ذلك الا أبو زيد القرشي الذي أخرج الحارث وعنترة وأثبت مكانهما النابغة والاعشى، وان التبريزي وحده اضاف عبيد بن الابرص، وعلى هذا فالخلاف يكاد ينحصر في النابغة والاعشى. وكذلك اختلفوا في قصيدة كل شاعر من هذين الشاعرين، فأبو زيد القرشي روى للنابغة قصيدته[3]:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار

ماذا تحيون من نؤي واحجار

في حين ان التبريزي الذي أخذ بقول القرشي في عهد النابغة والاعشى ضمن شعراء المعلقات، يروي للنابغة قصيدته[4]

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الأمد

ويروي أبو زيد للاعشى قوله[5]:

---

(1) الأغاني 173/21 ط ليدن.

(2) توفي ابن خلدون سنة 808 هـ

(3) الجمهرة ص112.

(4) شرح القصائد الشعر ص453.

(5) الجمهرة ص119.

مـــا بكـــاء الكـــبير بـــالأطلال

وســـؤالي ومـــا تـــرد ســـؤالي

أما التبريزي فيروى للاعشى قصيدته[1]:

ودِّعْ هريـرة إن الركـب مرتحـل

وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل

ونخـرج مـن كـل ذلـك ان شـعراء المعلقـات سـبعة، وان الخـلاف انحصر بين الرواة وابي زيد القرشي حول النابغة والاعشى.

وقـد سميت المعلقـات بأسمـاء اخـرى تفيـد معنـى النفاسـة والجـودة والاختيار والتعليق والعدد، فمن هذه الأسماء:

السبـع الطـوال: روي عـن أبـي جعفـر النحـاس ان حمـاد الروايـة هـو الـذي جمـع (السبع الطـوال)[2]، وكـذلك جـاءت عنـد ابـي زيـد القرشـي، فقـد نقـل عـن المفضـل[3] ان امـرأ القيس وزهـيراً والنابغة والأعشى ولبيـداً وعمراً وطرفة، أصحاب (السبع الطوال) التي تسميها العرب (السموط)[4] وذهـب الرافعـي الى أنّ حَمَّاداً نقـل هـذه التسـمية مـن الحـديث الشـريف: "أعطيـت مكـان التوراة السبع الطـوال" وهـي البقـرة وآل عمـران والنساء

---

(1) شرح القصائد العشر ص422.

(2) معجم الأدباء 140/4 ووفيات الاعيان 205/2.

(3) المفضل هذا هو غير المفضل الضبي، بل هو أبو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن المجبر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب (ترجمته في نسب قريش ص356 وجمهرة أنساب العرب ص146) وعلى ذلك فإن وفاة ابي زيد القرشي التي ذكرها الباحثون سنة 170 هـ كما عينها سركيس في معجم المطبوعات غير صحيحة، اعتماداً على أن أبا زيد روى عن المفضل، والمرجح ان وفاة القرشي تقع خلال منتصف القرن الخامس لأن ابن رشيق ذكره وتوفي ابن رشيق سنة 462 هـ وينظر مصادر الشعر الجاهلي في حديثه عن جمهرة أشعار العرب ص584 وما بعدها.

(4) جمهرة أشعار العرب ص80.

والمائدة والانعام والاعراف، واختلفوا في السابعة انها يونس او يوسف او الكهف[1]

أما ابن الانباري فسماها: (السبع الطوال الجاهليات)[2].

ومن أسمائها: (المذهبات) بدعوى أنها كتبت بماء الذهب، ولعل أقدم رواية في ذلك جاءت عند ابن قتيبة في حديثه عن عنترة العبسي، قال: "فكان أول ما قال قصيدة":

هل غادر الشعراء من متردم

وهي أجود شعره، وكانوا يسمونها المذهبة[3]

وقد تناول ابن عبد ربه معنى التذهيب بشيء من الوضوح والتفصيل، فقال: "حتى لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير، والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات[4] "وتابعه في هذا ابن رشيق القيرواني اذ قال: فكتبت في القباطي بماء الذهب،[5].

أما أبو زيد القرشي، فقد أطلق اسم المذهبات على المجموعة التي اختارها من قصائد الاوس والخزرج خاصة، وهي لحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ومالك بن العجلان وقيس بن الخطيم واحيحة ابن جلاح وابي قيس بن الاسلت وعمرو بن امرئ القيس[6]، ومن الواضح ان ليس في

---

(1) تاريخ آداب العرب 189/3.

(2) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، حققه عبد السلام هارون.

(3) الشعر والشعراء 252/1.

(4) العقد الفريد 269/5.

(5) العمدة 96/1.

(6) الجمهرة ص 80- 81.

هؤلاء أحد من أصحاب المعلقات، وأن أبا زيد سمى القصائد التي اختارها كل سبع قصائد باسم ولم يشرح مدلول هذا الاسم –غير اشارة صغيرة لمعنى المشوبات– ولعل التسمية متأتية من تشبيه هذه القصائد بالمعلقات التي كتبت بماء الذهب او أنها تستحق ان تكتب بماء الذهب لجودتها وروعتها.

وسميت المعلقات (السموط) ايضاً، وقد مر بنا ان قريشاً سمت قصيدتين لعلقمة بن عبدة كل واحد باسم السمط، فقالوا: "هاتان سمطا الدهر" [1]. وذكر ابو زيد القرشي بعد ان احصى شعراء المعلقات فقال: "هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن قال ان السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة" [2].

ومن أسماء المعلقات أيضاً (القصائد المشهورة) [3]، وسماها الباقلاني: (السبعيات) [4].

وهكذا نجد أن للمعلقات أسماء كثيرة، ولكل اسم من أسمائها دلالة عليها أو على صفة من صفاتها، التي تعني الجودة والنفاسة والطول والعدد والقدم، ومهما اختلف النقاد والرواة القدماء في تسميتها أو في كتابتها، فإنهم متفقون على أنها القصائد المختارة الجيدة الصحيحة التي نزلت من نفوسهم منزلاً رفيعاً، فقد اعجبوا بها وأولوها عنايتهم واهتمامهم، لما فيها من جودة وابداع ونضج، ولم يشك في صحتها وجاهليتها أحد، غير نفر من المعاصرين الذين أسرفوا في الشك فأنكروا الشعر الجاهلي جملة.

وقد اتضح من الاسماء العديدة للمعلقات انها سميت بالصفات التي

---

(1) الأغاني 173/21.

(2) الجمهرة ص80 والعمدة 96/1.

(3) شرح ابي جعفر النحاس– مخطوط.

(4) اعجاز القران ص159.

عرفت بها ، والمعلقات هو الاسم الذي كانت له الغلبة الاخيرة والشيوع في العصور المتأخرة ، وتنحت الاسماء الاخرى عن الاستعمال الا في القليل ، والمراد بالمعلقات –كما مر– انها القصائد التي وقع عليها الاختيار واستحسنها الناس ، فكتبوها وعلقوها على استار الكعبة. هذا هو تفسير بعض القدامى لمعنى التعليق ، وتصرف بعض المعاصرين في تفسير التعليق بمسميات أخرى ، لا تجافي المعنى اللغوي للتعليق ، وهم بذلك يحاولون ان يدفعوا معنى التعليق على أستار الكعبة ، ومن تلك التفسيرات: أن لفظ التعليق متأت من تسمية المعلقات بالسموط ، والسمط العقد النفسي الذي يحلى به الجيد ويعلق في العنق.

أو أن المعلقات سميت كذلك لأنها كتبت وعلقت في سقف او جدار ، او انها اخذت من قول الملك اذا استجاد قصيدة الشاعر: (علقوا لنا هذه) اي اكتبوها وثبتوها في الخزائن ، أو أنّ هذه القصائد لجودتها وامتيازها تعلق في الاذهان ، أو أنّ الإنسان يعلق بها ، أو أنّ لها صلة بالعلق بمعنى الثمين النفيس... وما الى ذلك[1]. ولاشك أن في هذه التفسيرات الكثير من براعة التأويل والتفسير ، غير أنها تأويلات لا تقوم على أساس من رواية صحيحة او حجة بينة يمكن الاطمئنان اليها.

وقصة التعليق او رفضه قديمة ، احاول ان اتبعها في عجالة:

إن أقدم الرواة الذين أشاروا الى التعليق صراحة هو ابن الكلبي (ت 204هـ) فقد قال: "أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة ايام الموسم حتى نظر اليه ثم احدر ، فعلت الشعراء بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر"[2] ، وقال بالتعليق كذلك ابن عبد ربه (ت 327هـ): "لقد بلغ من

---

(1) لقد أورد الحوفي هذه الآراء الحياة العربية ص209– 211.

(2) مقدمة السبع الطوال –هارون ص11.

كلف العرب به[1] وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة"[2]، ونص على التعليق ايضاً ابن رشيق القيرواني (ت 463هـ) فقال: "وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة.."[3]. وتابعهم بعد ذلك ابن خلدون (ت 808 هـ) الذي قال ان التعليق كان بأركان البيت الحرام[4]. وقد شرح البغدادي (ت 1093 هـ) معنى المعلقة بانه الشعر المكتوب المعلق على ركن من أركان الكعبة[5].

هذه النصوص التي وردت في كتب القدماء فيها شرح وبيان لمعنى المعلقات على أنها كتبت وعلقت، ولكن غير هؤلاء من الرواة والعلماء تعرضوا لهذه القصائد، ولشعرائها، ولم ترد لديهم تسمية المعلقات ولا خبر التعليق، ومن هؤلاء: ابن سلام (ت 232 هـ) والجاحظ (ت 255 هـ) وابن قتيبة (ت 276هـ) والمبرد (ت 285 هـ) وابن الانباري (ت 328 هـ) وابو جعفر النحاس (ت 337 هـ) والاصفهاني (ت 356 هـ) والباقلاني (ت 403 هـ) وغيرهم.

وإذا كان فريق من العلماء قد أغفل اسم المعلقات والتعليق، فإن منهم من أنكر التعليق ورفض القول به، وأول المنكرين: أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقات، فهو يفسر التعليق، بأن الملك اذا استحسن قصيدة قال: "علقوا لنا هذه واثبتوها في خزانتي" وينكر التعليق بالكعبة

---

(1) اي بالشعر.

(2) العقد الفريد 269/5.

(3) العمدة 96/1.

(4) مقدمة ابن خلدون ص581.

(5) خزانة الادب 61/1 ط بولاق.

فيقول: "وأما قول من قال انها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة"[1]، وعن أبي جعفر النحاس نقل أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الانباري (ت 577 هـ) فقال: "ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة"[2]، وكرر هذا الرأي ياقوت الحموي (ت 626هـ) في ترجمته لحماد[3].

وعلى رأي ابي جعفر النحاس اعتمد بعض الباحثين المعاصرين فانكروا فكرة التعليق، وساقوا جملة أدلة في ذلك، ولكنهم اقروا من ناحية ثانية بصحة هذه القصائد، وتأولوا تفسيرات كثيرة لتسميتها بالمعلقات –كما مر بنا– ، وأهم من ذهب هذا المذهب من العرب مصطفى صادق الرافعي[4] واحمد الحوفي الذي قد بين بيدي بحثه اثنتى عشرة نقطة لانكار فكرة التعليق على الكعبة[5] ومن المستشرقين نيكلسون[6] الانكليزي، وهنجستنبرج الألماني في المقدمة الألمانية لمعلقة امرئ القيس التي تولى نشرها، وهوار الفرنسي في كتابه الادب العربي[7].

وقد أفرد الدكتور طبانة كتاباً لدراسة المعلقات، ناقش في فصل منه دعوى ابي جعفر النحاس في شيء من التفصيل، كما رد على حجج

---

(1) شرح القصائد السبع– مخطوطة.

(2) نزهة الالباء ص39 وهذا غير ابي بكر محمد بن القاسم الانباري (ت 328 م) شراح السبع الطوال.

(3) معجم الادباء 140/4.

(4) تاريخ اداب العرب 192/3 وما بعدها.

(5) الحياة العربية ص201– 212 ولشوقي ضيف اشارة سريعة الى انكار التعليق– العصر الجاهلي ص140– 141.

(6) تاريخ العرب الأدبي ص171 الترجمة العربية.

(7) ص89.

الباحثين المعاصرين في انكار التعليق[1].

ومع ان الحجج التي سيقت لانكار التعليق، والحجج التي قدمت لاثباته واقراره كثيرة ووجيهة، ولكنها جميعاً تقوم على افتراضات منطقية، ولست أرى صحة القطع بتعليقها، كما لست أرى القطع بانكار تعليقها، اذ ليس لدينا حتى الان الحجة البينة التي يطمئن اليها الباحث لدفع التعليق او اقراره. ولا شك ان الحجج المنطقية والافتراضات الظنية لا تغني شيئاً في قضية كهذه. وليس بمنكور على العرب معرفتهم الكتابة، وكتابتهم القصائد الجاهلية، ومن ثم تعليقها على الكعبة او غير الكعبة كالخزائن او السقوف او الجدران، لأجل محدود او غير محدود، ومن الممكن الاستئناس بتعليق قريش للصحيفة حين قاطعت الرسول وبني هاشم[2]، وليس لدينا كذلك أدلة ثابتة من رجال رووا قصة التعليق فلة من الادباء أقدمهم ابن الكلبي المعروف بالكذب والتزيد، لذلك كله آثرت الا انساق وراء حجج ظنية لا يبدو فيها اليقين القاطع في قضية كهذه.

ومهما يكن من شيء فإن المعلقات قصائد مختارة جيدة، يستطيع الباحث ان يطمئن الى صحتها والى أنها من عيون الشعر العربي وروائع الشعر الجاهلي الذي بلغ درجة كبيرة من النضج والكمال اضافة الى أنها ترسم صوراً صادقة لحياة العرب السياسية والاجتماعية، اذ يتصل بعضها بحوادث كبيرة في الجاهلية كمعلقة زهير ومعلقة الحارث بن حلزة ومعلقة عمرو بن كلثوم[3]، ويتصل بعضها الاخر بظاهرة اجتماعية واضحة في حياة العرب الجاهلية وهي حياة اللهو والفخر والكرم والفروسية.

---

(1) معلقات العرب ص31- 57.

(2) ينظر في خبر الصحيفة السيرة النبوية 1/350.

(3) تتصل معلقة زهير بحرب داحس والغبراء. وتتصل معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة الحارث بن حلزة بالخلاف بين بكر وتغلب والتحاكم الى عمرو بن هند.

وقد لفتت المعلقات أنظار الأدباء وعلماء اللغة منذ زمن بعيد، فانكبوا عليها يدرسونها ويقتدون منها في كتبهم وفي استشهاداتهم، وأقبل فريق من الأدباء على شرحها وتفسير غامضها وتوضيح مفرداتها وبيان معانيها، وقد عرفنا مجموعة من هذه الشروح، وأكثرها جليل القيمة نفسي بما فيه من شروح لغوية ومسائل نحوية وايضاحات تاريخية[1]، والشروح المعروفة لدينا هي:

1. شرح ابن كيسان (ت 320 هـ) مخطوط في مكتبة برلين، ذكره بروكلمان[2]
2. شرح ابن الانباري محمد بن القاسم (ت 328 هـ) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات مطبوع[3].
3. شرح ابن جعفر النحاس (ت 338 هـ) التسع الطوال، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 460 أدب[4]
4. شرح أبي علي القالي (ت 356 هـ) ذكره حاجي خليفة[5]
5. شرح الزوزني (ت 486 هـ) شرح المعلقات السبع، طبع مراراً.
6. شرح عاصم بن أيوب (ت 494 هـ) ذكره السيوطي[6].
7. شرح التبريزي (ت 502 هـ) شرح القصائد العشر. طبع مراراً.
8. شرح ابي سعيد الضرير وابن جابر شرح المعلقات السبع، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 3900 أدب.

---

(1) ينظر في شروح المعلقات وطبعاتها وترجماتها بروكلمان –تاريخ الادب العربي 1/68-72.

(2) تاريخ الأدب العربي 1/70.

(3) حققه عبد السلام هارون ط دار المعارف 1963.

(4) حقق في بغداد وطبع أخيراً.

(5) كشف الظنون.

(6) بغية الوعاة ص274 ترجمة عاصم بن ايوب البطليوسي

والملاحظ أن ثلاثة من هذه الشروح هي المطبوعة المتداولة، أما الشروح لأخرى فبين مفقود ومخطوط ينتظر العناية والتحقيق.

وقد كان للمستشرقين السبق الى العناية بهذه المعلقات فطبعوها وترجموها في وقت مبكر[1]

وبعد: فإن هذه العناية لم تكن لتبذل لو لم تكن القصائد من الشعر الرفيع الجيد الذي حاز اعجاب الناس وصار قدوة الشعراء في العصور التالية، فقد رأوا فيه نموذجاً للجودة والنضج والبراعة والاتقان، وقد نظروا لشعراء هذه المعلقات او المختارات على انهم كبار شعراء العصر الجاهلي وفحولهم، فانزلوهم منازلهم الحقيقة بهم من الاعجاب والاكبار، فذاع لذلك صيتهم وخلدت آثارهم، وكانوا قدوة الشعراء والادباء في أساليبهم على مر الازمان والعصور.

---

(1) أهم الترجمات الانكليزية ترجمة (الاي آن بلنت) ونظمها شعراً بالانكليزية (وبلفرد سكاون بلنت) باسم The seven golden odes of pagon Arabia وطبع في لندن وترجمها كذلك وعلق عليها (ايسكو مع النص العربي بحرف لاتيني وطبع في لندن 1783 وترجمها ايضاً مع ذكر النص العربي جوسون Joson باسم القصائد السبع The seven poems وطبع في لندن سنة 1894 وترجمت الى اللغة اللاتينية عن شرح الزوزني ترجمها (Peipes) وطبعها سنة 1828. وترجم دي ساسي معلقة لبيد الى الفرنسية ونشرها في اخر كتاب كليلة ودمنة وغير ذلك من الترجمات

الفصل الثاني

خصائص الشعر الجاهلي

(1)

الطابع البدوي:

الشعر الجاهلي مرآة انعكست فيها كل مظاهر الحياة العربية، فقد مثل البيئة خير تمثيل، تناول كل جانب من جوانب البادية فتحدث عنه بتفصيل، صور ما فيها من جبال ووهاد وطرق ممتدة ومرابع خُضْر، ونبات زاه، ووصف الاثار والدمن، كما وصف السحب والامطار والسيول ومدافع المياه، رسم مشاهد كثيرة لحيوانها، وقص لكل حيوان قصة، صور حال هذه الحيوانات في طردها وقتالها، في أمنها وفي خوفها، صورها قطعاناً مجتمعة، وأفراداً عازبة، واستعار منها تشبيهاته وصوره، تحدث عن المنازل والديار، كما تحدث عن ارتحال أهلها، ووصف قوافلهم وهوادج نسائهم، وتابعها في سيرها فرسم مخططاً لرحلتها مبيناً المواضع التي تنزل فيها، والأماكن التي تمر بها، ولم ينس ان يصف ما خلف الظاعنون من الحجارة والنؤى والاثافي والثمام.

ولم يغادر الشعر جانباً من جوانب الحياة البدوية إلا تحدث عنه وسجله وصوره، ولذلك نجد فيه صورة للعصر صادقة، في الحرب والسلم، في مثله العليا وعاداته وطبيعة أهله، وصف خير العصر وما فيه من نعمة وبركة، كما وصف بؤسه وشقاءه وما ينزل به من جدب وقحط، صور حر الهاجرة ولفح السموم، كما صور ريح الشمال وجمد الشتاء الذي يخرس الناس ويكفتهم في بيوتهم. وأقرأ في اية قطعة او قصيدة من ذلك الشعر، فانك واجد فيها ريح البادية وطعم الصحراء، فكل صُوَرُة ومعانيه منتزعة من بيئة مصورة لها اصدق تصوير، لا يشذ عن ذلك الا في القليل

النادر، وهذا القليل كان من اتصال بعض الشعراء بأسباب الحضارة، ومن وفادتهم على ملوك الحيرة او ملوك الشام او اليمن، وتجدُ ذلك واضحاً في شعر الشعراء الذين يفدون الى الحاضرة، كالاعشى والنابغة الذبياني، وشعر شعراء الحاضرة كعدي بن زيد وحسان بن ثابت وامية بن أبي الصلت.

ولاشكَّ ان هذا الاثر البدوي الواضح الذي ترك وسمه على شعر الشعراء له جرائره على الشعر الجاهلي، ذلك أنه حدد أفق الشعراء في اطار البيئة الذي لا يتجدد، فضعف خيالهم وتشابهت صورهم، وظهر من جراء ذلك: التكرار في الصور والمعاني، سواء في ذلك المعاني المتكررة عند الشعراء، أم عند الشاعر الواحد، ترى ذلك واضحاً في صور الاطلال وتشبيهها بالخط الدارس، فقد جاءت هذه الصورة عند كثير من شعراء الجاهلية، فامرؤ القيس يقول[1]:

لمن طَلَلٌ ابصرته فشجاني

كخط زبور في عسيب يماني

وتناول حاتم الطائي هذه الصورة فقال[2]:

اتعرف أطلالاً ونؤياً مهدما

كخطك في رَقٍّ كتاباً منمنما

وأخذها أبو ذؤيب الهذلي فقال[3]:

عرفت الديار كرسم الكتا

ب يزبره الكاتب الحميري

---

(1) انظر قوله والابيات التي تليه في الوساطة ص182، والبيت في ديوانه ص85.

(2) ديوان حاتم الطائي ص23.

(3) ديوان الهذليين ص64 وفيه:

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري

أما لبيد فقد زاد الصورة اتقاناً حيث قال[1]:

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زبر تجد متونها أقلامها

فالصورة نفسها مكررة عند هؤلاء الشعراء وعند غيرهم، ونراها تتكرر أيضاً عند الشاعر الواحد نفسه، فقد كرر لبيد هذه الصورة ثانية في قوله[2]:

درس المنا بمتالع فأبان

وتقادمت بالحبس فالسوبان

فنعاف صارة فالقنان كأنها

زبر يرجعها وليد يمان

وهكذا تتكرر الصورة وتعاد مرة واثنتين وثلاثا، وقل في مثل هذا في تشبيه الديار الدارسة بالوشم، فقد جاءت الصورة عند لبيد قال[3]:

أو رجع واشمة أسف نؤورها

كففا تعرض فوقهن وشامها

وتناول هذا المعنى زهير فقال[4]:

ديار لها بالرقمتين كأنها

مراجع وشم في نواشر معصم

---

(1) ديوانه ص299.

(2) ديوانه ص138.

(3) ديوانه ص 299.

(4) ديوان زهير ص5.

أما طرفة فيقول[1]:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وكذلك يقال في وصف البرق والسحاب والمطر، فالاوصاف الرائعة عند امرئ القيس الذي يقول[2]:

ديمة هطلاء فيها وطف

طبق الأرض تحرى وتدر ... الأبيات

هي نفسها عند عبيد بن الابرص في قوله[3]:

سقى الرباب مجلجل

الاكناف لماح بروقه... الابيات

وكذلك هي عند أوس بن حجر في قوله[4]:

أني أرقت ولم تارق معي صاح

لمستكف بعيد النوم لواح... الأبيات

أما لبيد فقد وصف البرق والسحاب والمطر وحكى صوت الرعد في أول معلقته، وكرر كذلك الصورة في قوله[5]:

أصاح ترى بريقا هب وهنا

كمصباح الشعيلة في الذبال

والامثلة على هذا التكرار والتشابه كثيرة، وليس مرد ذلك الى

---

(1) ديوان طرفة ص5.

(2) ديوان امرئ القيس ص144.

(3) ديوان عبيد بن الابرص ص89.

(4) ديوان اوس بن حجر ص15.

(5) ديوان لبيد ص88.

السرق -كما قد يظن- ولكن مرجعه الى تأثير البيئة المحدودة المشاهد المتشابهة الصور، واليها يعزى ضعف الخيال.

ولابد ان تكون مادة الشعر التي يصوغ منها معانيه مستمدة مما حوله من بيئته الصحراوية البدوية، ولذلك فالشاعر لا يلفق معانيه ولا ينتحل صوره، بل يتناولها من واقعه ومحيطه، فالصورة التي يقدمها الاعشى في مدح المحلق في قوله[1]:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة

الى ضوء نار في يفاع تحرقُ

تُشَبُّ المقرورَيْنِ يصطليانها

وبات على النار الندى والمحلقُ

هي من صور البادية المألوفة، حتى ان القارئ ليشعر بشدة البرد ولذة الدفء، وحين يعجب طرفة بصوت قينة تغنيه بصوتها الشجي، فليس هناك في بيئته أشد وقعاً في نفسه من تجاوب أصوات الابل حين تحن الى فصالها الهالكة، يقول[2]:

إذا رَجَّعَتْ في صوتها خلت صوتَها

تجاوبَ أظآرٍ على رُبَعٍ رَدِي

وحين يصور زهير بشاعة الحرب ومآسيها، فإن صوره مستمدة من حياة البادية حيث الرعي وسقي الابل وأصدارها ورعيها في كلأ تعافه لأنه مستوبل متوخم[3]:

فقَضَّوا منايا بينهم ثم أصدروا

الى كلأ مستوبلٍ متوخمِ

---

(1) ديوان الاعشى ص149- 150.

(2) ديوان طرفة ص152.

(3) ديوان زهير ص24- 25.

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا

غمــارا تفــرّى بالســلاح وبالــدم

وهذه الابيات في جملتها فيها طرافة، وصور بديعة وخيال خصب يعجب السامعين، ولكنه خيال لا اغراق فيه ولا اسراف، قريب من أرض الحقيقة، ممثل لواقع من الحياة معبر عن طبيعة البادية.

ولم يكن أثر البادية ليقتصر على الصور المُستَمدَّة من البيئة والممثلة لما في حياتهم من احداث وادوات وحيوان، بل تعدى ذلك الى اللغة نفسها واستعمالاتها، فقد كانت مرتبطة بالبيئة الجاهلية، فوجوه الصورة البلاغية ومجازاتها من تشبيه واستعارة وكناية مجاز، كل ذلك متصل ومتأثر بحياة البادية واحداثها وطبيعتها، ويختلف هذا التأثر من بيئة لأخرى بين البادية والحاضرة، ولكل من هؤلاء وهؤلاء أمزجة وطباع يصدرون عنها في شعرهم، ويعطل القاضي الجرجاني اثر الطبائع والبيئات في الشعر بقوله: "وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين أحوالهم، فيرق شعر احدهم ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ احدهم ويتوعر منطق غيره، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودمائه الكلام بقدر دمائه الخلقة... وترى الجافي الجلف منهم كز الالفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته، وسلم: (من بدا جفا)"[1] ويضرب بعد ذلك مثلاً بعدي بن زيد العبادي وهو شاعر جاهلي سكن الحاضرة فرق شعره وكان أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما اسلاميان.

وإذا كان الطابع العام للشعر هو الطابع البدوي الاعرابي، فإن ثمة شعراء سكنوا الحاضرة وهناك شعراء اعراب وفدوا على الملوك وزاروا

---

(1) الوساطة ص17.

حواضر العراق او الشام او اليمن او الحجاز، فظهر للحضارة أثر واضح في شعرهم، كما نجد ذلك في شعر حسان بن ثابت والأعشى والنابغة الذبياني وغيرهم من الشعراء المتكسبين. الذين كانوا ينادمون الملوك، أو يفدون عليهم لمصالح قبلية، فينالون صلاتهم وعطاياهم ويحفل شعر النابغة بأوصاف الحضارة التي شهدها في الحيرة والشام، يقول في وصف المتجردة وما عليها من زينة[1]:

في إثـر غانيـة رمتـك بسـهمها
فأصـاب قلبـك غـير أن لم تقصـد

بالـدر واليـاقوت زيـن نحرهـا
ومفصـل مـن لؤلـوء وزَبَرْجَـد

كمضـيئة صـدفية غواصـها
بهـج متـى يرهـا يهـل ويسـجد

أو دميـة في مرمـر مرفوعـة
بنيـت بـآجر يشـاد بقرمـد

وكذلك وصفه للغساسنة الملوك في أعيادهم[2]. ولكن الطابع العام –كما قدمنا- الذي صبغ الشعر هو الطابع البدوي الذي بقي أثره في التعابير اللغوية حتى زمن متأخر. فتعابير الشعراء خاصة وصورهم وأمثالهم كان مستمداً من الابل وما يتصل بها، والابل هي عماد الحياة في البادية، فالناس قد قالوا وما زالوا يقولون للرجل اذا عجز عن الكلام: (اعتقل لسانه)، وإن أحسن في أمر مدحه الناس فقالوا: (لله دره)، وإن افسد بينهم قالوا: (ألقح الشر بينهم)، وقالوا للحرب الشديدة: (زبون)،

---

(1) ديوان النابغة ص30 و33.

(2) ديوانه ص63.

وان احتال للشيء عند غيره وداهنه وتملقه قالوا: (هو يفتل له بين الذروة والغارب) وان أهمل الشيء وتركه وشأنه قالوا: (ألقى حبله على غاربه)، ونجد تعابير أُخَر مرتبطة بحياة الناقة او الجمل في قولهم: وطئه بمنسمه، وضربه بأنيابه، وألقى عليه بجرانه، وتسنم الامر، وأناخ عليه بكلكلة، وأخذ بزمامه، وإذا اعتزلوا امراً قالوا: (لا ناقة لي فيه ولا جمل)، وهكذا[1]

ويستطيع المرء ان يفسر كل مظاهر الشعر ومعانيه وصوره وخياله ومفرداته اللغوية وموصوفاته ونوازع الشاعر وأفكاره ومثله وخلقه وعاداته وعصبيته، على أنها أصداء للبيئة وتصوير لها، ولم يَسْلَم من هذا الاثر حتى أولئك الذين سكنوا بيئات أخرى او بعد بهم الزمان فعاشوا في قرون لاحقة، وذلك لأن الشعر الجاهلي –بمؤثراته– أصبح قدوة يحتذى ونموذجاً يتبع ومثالاً يحاكي فصارت سنة الشعراء اقتداء فن الاوائل والنسج على منوالهم، ولذلك فقد لقي سلطان الشعر الجاهلي على شعر العصور التالية واضحاً بارزاً بعيدَ الاثر.

(2)

الواقعية والوضوح:

لعل أبرز هذه الواقعية ان الشعر الجاهلي استمد مادته من الحياة، فصور البيئة –كما تقدم– أصدق تصوير، وهو تصوير واضح جلي لا خفاء فيه، بسيط لا غلو فيه، بعيد عن المبالغة والتعقيد، فمعاني الشعر واضحة بسيطة تلائم الفطرة وتنسجم وطبيعة المجتمع البدوي، ولا شك ان البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة وصفاء الذهن واعتدال المزاج، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة لا اضطراب فيها ولا قلق، فلا غموض ولا تفلسف، ولا اريد هنا بالبساطة السذاجة والبدائية –كما قد يظن–

---

(1) انظر البحث الطريف للدكتو محمد محمد حسين اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ص52 وقد افدت منه في غير موضع.

فالشعر الجاهلي من حيث معانيه وأخيلته ولغته، يدل على رقي عقلي وصفاء ذهني وعناية فنية ومهارة في صناعة الشعر وصياغة معانيه وصوره، والبساطة لا تناقض اجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن وغير ذلك من الوسائل التي يجوز بها الشعر، وليس الفن كله معقداً مركباً، بل منه البسيط الواضح الذي يلائم الفكرة والطبيعة الصحراوية، ومنه المركب المعقد المغرق في الخيال الذي هو نتاج الحضارة والمدنية، والبيئة البدوية مكشوفة مضيئة، فضاؤها رحب يمتد فيه البصر، والشمس ساطعة وحياة الشعراء سهلة بسيطة، فلم تكن –لا حل ذلك– تراود خيالهم الغاز مُعّمية او هواجس خفية، فكان من الطبيعي ان تستمد الشعراء صورهم وأخيلتم من الواقع الواضح، لأنهم لا يتخيلون من وراء حجاب، فجاءت معانيهم واضحة بسيطة لأنها عالجت حياة بسيطة واضحة بعيدة عن الحضارة –الا قليلا– وما يتبع الحضارة من أدب يميل الى الإغراب والمبالغة(1)

ومن مظاهر هذه البساطة في الشعر الجاهلي: الصدق في التعبير وهي نقل الصور والمشاهد نقلاً يكاد يكون أميناً، وبخاصة حين يذكرون المواضع ويناجون الديار، وحين يفخرون أو يرثون فلا يبالغون في الخيال ولا يسرفون في التصور، وذلك لأنهم يتحدثون عن أحوال رأوها وتجارب مارسوها وذكريات أحسوا بها.

ويتمثل الصدق في انفعالات الشعراء وعواطفهم في تسجيل الوقائع والذكريات وتصوير النصر بصورته الحقيقية، من غير غلو ولا مبالغة، والاقرار بالهزيمة والنكوص ان دارت الدائرة على قومهم، وليس أصدق

---

(1) وحتى الشعراء الذين سكنوا المدن كعدي بن زيد وشعراء مكة والمدينة والطائف كانت حياتهم قبلية قريبة الى حد بعيد من حياة البادية، لأن الامارات التي قامت في الجزيرة كانت على تخوم الدول الكبيرة، فحياة امراء الحيرة ودومه الجندل وجلق أقرب الى حياة البادية وطباع أهلها.

إقراراً بقوة الخصم واعترافاً بالفرار من قول الحارث بن وعلة الجرمي في يوم الكلاب الثاني بين جرم وتميم[1]:

فِدًى لكما رجليَّ أمي وخالتي
غداة الكلاب اذ تُحَزُّ الدَّوابرُ

نجوت نجاء لم يرَ الناس مثله
كأني عقابٌ عند تَيْمَنَ كاسرُ

خدارية سفعاء لَبَّدَ ريشَها
من الطلِّ يوم ذو أهاضيب ماطر

كأنا وقد حالت حَذُنَّةُ دوننا
نَعامٌ تلاه فارس متواتر

فمن يك يرجو في تميم هوادة
فليس لجرم في تميم أواصر

الى آخر القصيدة التي يصف فيها حاله وفراره وانهزام قومه وشدة تميم عليهم، وليس بعد هذا من صدق وواقعية.

وإذا كان هذا يعني صدق الوقائع، فإن هناك ضرباً آخر من الصدق يتمثل في التعبير عن الصور المنتزعة من البيئة ونقلها بصدق كما شهدها الشاعر وألفها، من ذلك قول لبيد واصفاً حاله بعد موت أعمامه وأبنائهم[2]:

أصبحت أمشي بعد سلمى بن مالك
وبعد أبي قيسٍ وعروة كالأجب

يضُجُّ إذا ظلُّ الغُرابِ دنَالهُ
حذاراً على باقي السناسن والعصب

فهو يعرض مشهداً رآه وتأثر به، مشهد الجل الذي قطع سنامه أيام

---

(1) المفضليات ص165- 166.

(2) ديوان لبيد ص1.

القحط والجدب، فهو يرتعد خوفاً وألماً كما أحسن بغراب يدنو منه أو يتوهم صورة مؤثرة، لأنها صادقة انتزعها من الواقع المشاهد، وقد استطاع الشاعر في هذين البيتين ان يحقق الصدق الفني والصدق الواقعي على السواء.

هذا هو الطابع العام في الشعر الجاهلي، تعبير مباشر عن حياتهم يستمدون صورهم ومعانيهم من بيئتهم بأساليب رائعة فيها جمال الفطرة وبساطة الصحراء، بعيدة عن المبالغة والغلو والتعقيد ولذلك جاءت معانيهم مفهومه مقبولة، على أنه شذت بعض الأبيات –وهي قليلة معدودة– وقف عليها القدماء وأنكروا ما فيها من المبالغة والغلو والتعقيد ولذلك جاءت معانيهم مفهومة مقبولة، على أنه شذت بعض الأبيات –وهي قليلة معدودة– وقف عليها القدماء وأنكروا ما فيها من مبالغة ومجاوزة المعقول، حتى أنهم وصفوا قائليها بالكذب، من ذلك قول مهلهل بن ربيعة:

فلولا الريحُ اسمع أهلَ حَجْرٍ

صليلَ البيضِ تُقرَعُ بالذكورِ

فقالوا: "هو خطأ وكذب من أجل ان بين موضع الوقعة التي ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة جداً"[1] وكان منزل مهلهل –فيما يقال– على شاطئ الفرات من أرض الشام وحجر هي اليمامة[2] وقد أكبروا قول النمر بن تولب واستكثروا عليه قوله[3]:

أبقى الحوادث والأيام من نمر

أسباد سيف قديم إثره باد

تظل تحفر عنه إن ذربت به

بعد الذراعين والساقين والهادي

---

(1) الموشح ص113.

(2) الموشح ص106

(3) الموشح ص113.

وكذلك أخذوا على أبي الطمحال القيسي قوله[1]:

أضـاءت لـهم أحسـابهم ووجـوههم

دجى الليل حتى نظّمَ الجـزع ثاقبـه

علـى أن هـذه المبالغـات في الشـعر الجـاهلي قليلـة لا تمـس الأصـل بتغيير كبير، فالطابع العام هو القصد والاعتدال والصدق والوضوح.

والامر الاخر الذي هو مظهر من مظاهر الواقعية التي أشـرت اليها أولاً، هـو الايجـاز. ولا شـك ان طبيعـة الحيـاة الجاهليـة ومـا فيهـا مـن نقلـة سريعة وحركـة دائبـة غير مستقرة ولا متروية، ومنـاخ الصحراء القاسـي الشديد في حره وقَرّه، كل ذلك جعلهم لا يطيلون ولا يتـأملون. يقفون عند المعنى وقفة وسرعان ما يتركونه الى غيره، أما الوقـوف الطويل والتفصيل وتشقيق المعنى على وجوه.

كل ذلـك لا يلائـم طبيعـة حياتهم ومـزاجهم وعقليـتهم، فالاطنـاب والتفصـيل وتطويـل العبـارة واجالـة النظـر والـتروي، كـل ذلـك يوجـب الاسـتقرار والهـدوء والرغـة والـبطء أيضـاً، ونحـن في هـذا العصـر رغـم الحضـارة والاسـتقرار نمـل مـن الاطالـة ونسـأم مـن التفصـيل، وإنمـا نريـد النتيجـة السـريعة وتعجبنـا اللمحـة الدالـة، وتُغنينـا الاشـارة عـن الافصـاح والحكمـة المـوجزة عـن الخطبـة المسهبة، ولا عجـب ان يكـثر في الشـعر الجـاهلي الميل الى الحكـم والاكتفـاء بالبيـت علـى أنـه وحـدة تامـة المعنـى وكان من ذلك ان طبيعة الشعر العربي نفرت من القصة المفصلة التي تلائم الشـعر الاوروبـي المتميـز بالاطالـة والتفصـيل، وإذا وجـدت القصـة في الشـعر العربـي فانهـا حكايـات ورمـوز ودلالات سـريعة. وانـك لتجـد المعنـى يتـاولـه اثنان، واحد من سكنة البادية ذات الحركـة والسـرعة والتغير، وآخـر مـن الشعوب التي تميل الى الاطالـة والتفصيل، كالشـعوب الأرية الـتي ظهـرت لـديها المهابهارتـا والشـاهنامة والأليـاذة والاوديسـا، تجـد الفـرق واضـحاً في

---

(1) الموشح ص106.

تناول المعنى الواحد، فالعربي يجمل المعنى ويعطيك لمحات طريقة، والآخر يفصل ويعيد ويكرر حتى يبلغ غايته، معنى البيت هنا قصيدة هناك، ومن غريب المصادفة ان يتناول شاعران، احدهما عربي هو امرؤ القيس وثانيهما اغريقي هو هوميروس، معنى يكاد يكون واحداً فنجد امرأ القيس يكتفي ببيتين أو ثلاثة قال فيها ما يريد قوله بايجاز غير مخل، أما هوميروس فقد أطال وفصل ووقف عند جوانب جزئية واستطرادات لا يسيغها الذوق العربي، وقد سبقنا الاستاذ البهبيتي الى هذه الملاحظات فقال[1] يقول أمرؤ القيس:

فظل طهاة النجم ما بين منضج

صفيف شواء او قدير معجل

ويشرح الزوزني الشعر فيقول: "ظل طهاة اللحم وهو صنفان، صنف ينضجون شواء مصفوفا على الحجارة في النار، وصنف يطبخون اللحم في القدر" وفي مكان آخر يقول امرؤ القيس:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي

فيا عجباً من كورها المتحمل

فظل العذارى يرتمين بلحمها

وشحم كهداب الدمقس المفتل

هذا الوصف لهذا الصنف من الطعام يجيء عرضاً في القصيدة، وهو وصف مختصر موجز سريع، إلا أنه كاف للدلالة على نوعه وصورته وطريقته، ومثله يجيء عند هوميروس ولكنه ينساق مع القصة: (ومد باتروكل امام المنزل خوانا، ووضع على الخوان ظهر شاة، ومعزى سمينة وفقار خنزير مكتنز يتلالاء دهناً، ثم آخذ كل من باتروكل وانتوميدون بجانب فقطعها آشيل الالهي أرباعاً، وبعد ذلك جعل أشيل شرائح صفها فوق سفافيد، على حين كان ابن مينيتيوس، الانسان الفاني، المشبه

---

(1) تاريخ الشعر العربي ص105- 106.

للآلهة، يوقد ناراً عظيمة، ولما اضطرمت النار، ثم خمد لهيبها، مد تلك السفافيد فوق وطاء من ضرمها، ثم رفعها من فوق حاملاتها، ونشر فوقها ملحا اليا، وبعد أن طَهَى باتروكل اللحم طهيه سله عن السفافيد فجعله فوق جفان وقدم الى كل من حضر المائدة خبزاً في سفاط حلوة، وكان آشيل هو الذي فرق أنصبة اللحم)[1]

ولا شك ان الفرق بين الاسلوبين هو الفرق بين الطبيعتين، طبيعة حركة سريعة متوثبة ذكية الملاحظة، وطبيعة متهلة مستقرة متروية، تقص وتفصل في القصص وتسمي الاشياء بأسمائها فتطيل في هذه التسمية وأن في الشعر الجاهلي أبياتاً قليلة فيها من الاحداث والصور الكثيرة التي لو تناولها غير الجاهليين لاطالوا فيها وفصلوا وكرروا حتى يستطيعوا ان يؤدوها بالشكل الذي جاءت عند الجاهليين، انظر الى قول الحارث بن حلزة البشكري[2]:

اجمعوا امرهم عشاء فلما

أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصـ

ـهال خيل خلال ذاك رغاء

تراه يصف حال القوم وعزمهم على القتال، وتقل صورة حية للرحيل والتهيؤ. ولو أردنا أداء المعنى الذي أراده علقمة بن عبدة في تصوير الفجر لاحوجنا الى ايضاح كبير وكلام طويل، في حين أنه أوجز فأجاد في قوله[3]:

أوردتها وصدور العيس مسنفة

والصبح بالكوكب الدري منحور

---

(1) تاريخ الشعر العربي ص106 نقلاً عن الالياذة.

(2) المعلقات السبع – الزوزني ص158.

(3) ديوان علقمة الفحل ص113.

وكذلك تجد قول لبيد على ايجاز صورة مفعمة بالحياة والحركة ومشهد الطبيعة الحافل بألوان الزرع على جانبي الوادي وقد أطفلت الظباء والنعام والابقار وهي ترقب أولادها التي تتجمع قطعاناً حولها أو تسرح هنا وهناك[1]:

فعــلا فــروع الايهقــان وأطفلــت
بالجلــهتين ظباؤهــا ونعامهــا

والعــين ســاكنة علــى اطلائهــا
عــوذا تأجّــلُ بالفضــاء بهامهــا

وهي صورة قريبة من صورة زهير[2]:

بهــا العــين والأرام يمشــين خِلفَــةً
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

أمـا بيتـا الحـارث بـن مضـاض الجرهمـي، ففيهمـا قصـة طويلـة وذكريات حافلة من عهد ولى وأدبر فخلف الحنين في القلب والحسرة في الصدور[3]:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنــيس ولم يســمر بمكــة ســامر

بلـــى: نحـــن كنـــا أهلـــها فأبادنـــا
صــروف الليــالي والجــدود العــواثر

ولعل أقـرب صـور الايجـاز تتمثل في التشـبيه، حيـث يقـرب المعاني البعيدة ويركزها صورة قريبة محسوسة، ولـذلك كـان التشـبيه في الشـعر

---

(1) ديوان لبيد ص298- 299.

(2) ديوان زهير ص5.

(3) جمهرة أشعار العرب ص48.

الجاهلي أكثر الأغراض البيانية، أما الاستعارة فعمل مركب فيه تعقيد فهي قليلة وأكثر منها الكناية، والكناية فيها تقصير العبارة وإيجازها، فهي تحمل المعاني الواسعة المتخيلة في عبارات قليلة فيها طرافة وجمال.

والمظهر الاخر من مظاهر الواقعية، ان صور الشعر الجاهلي صور حسية فيها تجسيم وتشخيص، وهذا أمر طبيعي لأن صور الشاعر مستمدة من بيئته ومرتبطة بالبادية، وإذا قلنا ان الصور مادية لا نعنى كل الصور وكل المعاني -فلا نعدم ان نجد عناية بوصف الاحوال النفسية- بل ان صورهم في جملتها على هذه الشاكلة، فإذا أنعمنا النظر في صور الشعر الجاهلي وبخاصة في التشبيه، نجد الصحراء ومعالمها، والحياة البدوية وحيوانها ونباتها، ممثلة في تلك الصور، ونراها كذلك واضحة بسيطة لا يجد الشاعر مشقة ولا عسرا في استحضارها، ولا يجد القارئ -حين تيسر له اللغة- جهداً في ادراكها وتذوقها، فهي واضحة وضوح الصحراء، بسيطة بساطة البادية.

وهذه الظاهرة الحسية لا تزايل الصورة حتى في تعبيرها عن أمور معنية غير ملموسة كالحلم والكرم والوفاء والشرف، فالشاعر الجاهلي يميل اى تصوير المعنويات والتعبير عنها مجسمة في ماديات محسوسة، او متعلقة بأشخاص بأعيانهم، يتحدث لبيد عن حلم قومه فيقول[1]:

ولهم حلوم كالجبال وسادة

نجسب وفرع ماجد وأروم

فقد عبر عن سعة حلمهم بصورة مادية هي صورة الجبال العالية، ويقرن طرفة بين ظلم قومه وبين وقع السيف فيقول[2]:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

---

(1) ديوان لبيد ص137.

(2) ديوان طرفة ص36.

أما تأبط شرا، فحين يقع في أمر شديد حرج يحاصره عدوه ويأخذ عليه المخارج نراه يشبه هذا المأزق الذي احتال للخروج منه بالمنخرين الضيقين[1]:

وأمـر كسـد المنخـرين اعتليتـه

فنفسـت منـه والمنايـا حواضـر

وهذه النزعة في تجسيم المعاني وتشخيصها والتعبير عنها بصور مادية حسية، كان لها جرائرها على الشعر الجاهلي ولها فوائدها ايضاً:

فمن جرائرها أنها حادت الخيال والتصور، وربطت الذهن بمشخصات مادية، فلم تتح للشاعر ان ينطلق في تصوير المعنويات، كالحب والوفاء والسماحة والمروءة وغيرها، تصويراً شاملاً عاماً، بحيث يعالج الفكرة نفسها غير مرتبطة بمشخصات أو صور في بيئة محددة، ولم تتح للشاعر ايضاً ان يتعمق في وصف الخواطر والافكار، او يحلل العواطف والاحساسات، ومن هنا جاء وصفهم المرأة وصفاً حسياً جسدياً، فلم يتغلغلوا في أغوار النفس ويتعرفوا على خفاياها ولم يصفوا عواطف المرأة المحبوبة وأشواقها الا نادرا- بل وصفوها وصفاً خارجياً، فجاءت كالدمية التي لا حياة فيها، واذا كان لابد من الشاهد والمثل، فلنأت الى معلقة امرئ القيس، فنجده يصور حبيبتهُ بأنها بيضة خدر مكنونة[2]:

وبيضـةِ خـدرٍ لا يُـرام خباؤُهـا

تمتّعْـتُ مـن لهـوٍ بهـا غيـرَ مُعْجَـلِ

أما جيدها الصقيل فهو مرآة:

مهفهفـة بيضـاء غـير مفاضـة

ترائبهـا مصـقولة كالسـجنجل

---

(1) مقدمة ديوان الشنفري في الطرائف الادبية ص28.

(2) ديوان امرئ القيس ص13- 17.

ولحظها لحظ وحش وجرة:

تصدُّ وتُبدي عن أسيل وتتقي

بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيدها كجيد الرئم:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش

إذا هي نصته ولا بمعطل

وشعرها كعذق النخلة الكثيف المتداخل:

وفرع يغشي المتن أسود فاحم

أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وخصرها كالزمام الرقيق، وساقها كالبردي الناصع البياض:

وكشحٍ لطيف كالجديل مخصرٍ

وساقٍ كأنبوب السقي المذلل

وأصابعها كالاساريع وأغصان الاسحل:

وتعطو برخص غير شثنٍ كأنه

أساريعُ ظَبيٍ أو مساويك أسحل

وحسن وجهها المضيء كمسرجة الراهب:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها

منارة ممسي راهب متبتل

وهكذا تجد صفات المرأة مجسمة في صور مادية حسية، وتستطيع أن تقف على كثير من صفات الرجولة والبطولة والمحامد المعنوية فتراها قد ارتبطت بصور حسية مشخصة، وهذا هو النهج العام في التشبيه خاصة.

ومن عيوب هذه النزعة المادية الحسية ايضاً، انها جعلت الصور تتكرر، لان الظواهر الحسية متعلقة بالصحراء، ومشاهد الصحراء محدودة متشابهة، وطبيعي ان هذه المشاهد لا تستلطفها الاذواق الحضرية، وقد تعجب أناساً دون آخرين.

أما فوائد هذه النزعة المادية الحسية، فإنها جعلت الشاعر يدقق في موضوعاته ويفصل في أوصافها ويولد في معانيها فيصب المعنى الواحد في صور مختلفة ونماذج جديدة، امعاناً منه في الايضاح وزيادة في استقصاء جوانب الموصوف واستيفاء أجزائه، كما سيتضح فيما بعد.

(3)

التصوير:

يكثر التصوير في الشعر الجاهلي كثرة واضحة، وبخاصة في الوصف، حيث يرسم الشاعر مناظر ومشاهد رائعة مكتملة الجوانب، فهو يلم بالصورة الماما تاماً، ثم يدقق في أجزائها، ويحصر أطرافها، ويستقصي جوانبها، وهذا -لا شك- دليل التمكن في الفن والدقة في التعبير وخصب الخيال، فالشاعر الجاهلي يرسم لوحات كاملة، يعنى بكل تفاصيلها واجزائها على الرغم من ايجازها ولعلك تذكر معلقة لبيد ووصفه الديار المقفرة، فهو يصف الرسوم الدراسة ويحدد مواقعها ويشبه آثارها ويذكر قدمها وما مر عليها من أشهر طويلة، وكيف سقطت فيها الامطار ونبتت الاعشاب وعلا نبات الأيهقان وولدت فيها الظباء والنعاج وفرخت النعام، وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من أمهاتها، على شاكلة قوله[1]:

عفت الديار محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عري رسمها

خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

دمن تجرم بعد عهد أنيسها

حجج خَلَوْنَ حلالها وحرامها

---

(1) ديوانه ص297 - 299.

رزقت مرابيع النجوم وصابها

ودق الرواعد جودها فرهامها

من كل سارية وغادٍ مدجن

وعشية متجاوب ارزامها

فعلا فروع الايهقان وأطفلت

بالجلهتين ظباؤها ونعامها

والعين ساكنة على اطلائها

عوذاً تأجل بالفضاء بهامها

وجلا السيول عن الطلولِ كأنها

زبر تجد متونها أقلامها

أو رجع واشمة أسف نؤورها

كففا تعرض فوقهن وشامها

فقد جمع لبيد في صورته هذه كل ما يمكن ان يجمع في الصورة المتقنة، وفر لها عناصر أصيلة لازمة لجمال المشهد، من ذكر الزمان والمكان والمياه واللون والنبات، والحركة في الحيوان والصوت في رعد السحب، وهكذا تجده يدقق في صوره ويستوعب انحاءها ويستكمل جوانبها ويتقنها. وانظر الى هذه الصورة، صورة حمار الوحش وأتانه وهما يعدوان فيثيران سحابة من غبار، وتأمل كيف يدقق ويتأنق في الوصف والتصوير[1]:

فتنازعا سبطا يطير ظلاله

كدخان مشعلة يشب ضرامها

---

(1) ديوانه ص306.

مشمولة غلثت بنابت عرفج

كدخان نار ساطع أسنامها

فقد صور الغبار المثار بينهما كغلالة رقيقة يتنازعانها، وشبه هذا الغبار بدخان نار مشبوبة الضرام وقد كملت الصورة في هذا البيت، ولو شاء لاكتفى بها، ولكنه أراد ان يفصل هذا التشبيه ويتقنه، ويبين ان هذه النار قد أوقدت بنبات العرفج الطري الذي يثير الدخان الكثيف ويزيد لهب النار بحيث تسطع أعاليها، وأن ريح الشمال تمر عليها فتزيد في ضرامها وسطوعها.

وفي هذه الصورة الدقيقة قريبة في اتقانها ودقتها من صورة أبي خراش الهذلي لحمار الوحش وأتنه وذلك حيث يقول:

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه

أقب تباريه جدائد حولُ

ابَنَّ عقاقا ثم يرمحن ظلمه

إباءً وفيه صسولة وذميلُ

وظل لها يوم كأن أواره

ذكا النار من فيح الفروع طويلُ

فلما رأين الشمس صارت كأنها

فويق البضيع في الشعاع خميلُ

فهيجها وانشام نقعاً كأنه

إذا لفها ثم استمرَّ سحيلُ

منيباً وقد امسى تقدم وردَها

أقيدرُ محموز القطاع نذيلُ

فلما دنت بعد استماع رهَفَنَهُ

بنقب الحجاب وقعهنَّ رجيلُ

يُفجِّيْنَ بالايدي على ظهر آجنٍ

لهُ عرمض مستأسدٌ ونجيلُ

فلما رأى أن لا نجاءَ وضمَّهُ

الى الموت لِصْبٌ حافظ وقفيلُ

وكـان هـو الأدنـى فخـلَّ فـؤادَهُ
مـن النبـل مفتـوقُ الفِـرار بجيـلُ

فقد استطاع الشاعر في هذه الابيات القليلة ان يصور حماراً وحشياً وأتنه التي ظهرت عليها علامات الحمل، فهي تعاسره وتتمنع منه، وهو يعابثها ويباريها ويتبعها، والحمار خائف مذعور يخشى الصياد وكلابه، فتراه قد علا مرقبة من الارض يشرف منها على ما حوله، وبينا هو كذلك مالت الشمس نحو الغروب، لتودع نهاراً قائظاً شديد الحر، والحمار اذ يطارد أتُنَهُ وهي تعدو أمامه فتثير غلالات من الغبار، تمتد كأنها حبال سحيلة لم تبرم، وتحس هذه الحمر ان صيادا بادي الفقر يتربص بها الغوائل، فإذا تسمعت حركته وأيقنت منه الموت، اشتدت في العدو مفزوعة مذعورة، فإذا اعترضها ماء آجن علا الطحلب وألوان النبات القت بنفسها في غمارة تبغي النجاة، ويرسل الصياد سهامه المصمية، فيصيب فؤاد الحمار، اذ هو أقرب اليه من الاتن.

وإذا تعمنا النظر في هذه الصورة، نجدها صورة كاملة واضحة المعالم بارزة السمات، لم يترك الشاعر جانباً من الصورة الا ملأه ووفاه حقه، سواء في ذلك الجانب الحركي او الجانب النفسي او ذكر الزمان والمكان. ولم يهمل التفاصيل، بل يؤكدها ويدقق فيها، وتستطيع ان تلاحظ ذلك في "ان الاتن قد استبان حملها، والحمار حذر شديد الحذر، والغبار ممتد بين الحمار والاتن كخيوط لم تبرم، وهذا الصياد فقير سيء الحال يتعقبها ويتربص بها، وحين تقذف الاتن بنفسها في الماء، يصف الماء فهو آجن قد فسد، ويصف ما على الماء من نبات طويل اخضر، ويمثل حركة ايديها تفج الماء سابحة، ثم يعين موضع الحمار من اناثه فهو وراءها أقرب الى الصياد منها، وكان ذلك سبباً في اصابته، ولا ينسى الشاعر ان يصف السهم الذي كانت رميته مصمية، فهو سهم كبير شديد عريض النصل.

الشمول في الوصف، والتدقيق في الصورة، والعناية بالجزئيات والتفاصيل، كل ذلك دليل عناية الشاعر، لتأتي صورة كاملة معبرة وافية، فيها تحبير وتحقيق وتدقيق، وهذه أبرز صفات الصورة عند فحول الشعراء ومجيديهم.

وقد عرفت الصور الجاهلية في اكثرها انها تصوير لهيئة الموصوف، وصف لشكله الخارجي وهذا الوصف حسي مادي، فيه تجسيم وتشخيص، وفيه جلاء للصورة وتوضيح لجوانبها، وقد اقتضى ذلك عناية بالاجزاء والتفاصيل، واهتماماً كثيراً بالتشبيه، وعرض صور كثيرة للمشبه به بحيث يدعو ذلك الى الاستطراد والخروج عن الأصل. وجاءت أوصاف الشعراء معنية بمظهرها الخارجي وعظم هيكلها، فطرفة حين وصف ناقته صورها دمية واضحة الاعضاء لم ينس جزءاً ولا عضواً، ولم يغادر عصبا ولا عرقا، الا وصفه ووضحه، فهو رسام بارع ينقل صورة ناقته بأعضائها وقسماتها الجسمية، كما يتضح ذلك في معلقته[1]. إلا أن وصف طرفة وصف لدمية صماء لا حياة فيها ولا حركة ومثل هذا الوصف عند الجاهلين كثير، يتناول هيئة الموصوف.

ولكن بعض الشعراء وجهوا عنايتهم الى وصف الحالة، حالة الموصوف، سواء أكان حيواناً أم انساناً، وصفوه وصفاً داخلياً، صوروا فيه الحياة والحركة، وتحدثوا عن نزعاته النفسية والعاطفية من حب وكره وخوف وضعف وجراة واقدام، صوروا نشاطه ومرحه، حركاته وسكناته، زهوه وخيلاءه، وحتى افكاره في بعض الاحايين، وقد قرأت فيما تقدم شعر ابي خراش الهذلي في تصوير أحوال الحمار والاتن، واقرأ للبيد بن ربيعة قوله في وصف البقرة التي أكل السبع ولدها، فراحت

---

(1) ديوان طرفة ص13- 18.

تبحث عنه جزعة مذعورة[1]:

علهت تـردد في نِهَـاء صـعائد
سـبعا تؤامـا كـاملاً أيامهـا

حتـى إذا يئسـت واسـحق حـالق
لم يبلـه ارضـاعها وفطامهـا

وتوجسـت رِزُّ الانـيس فراعهـا
عن ظهر غيب والانيس سقامها

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه
مـولى المخافة خلفهـا وأمامهـا

فقد بين حزنها وجزعها وهي تبحث عن ولدها سبعة أيام بلياليها، وتحدث عن يأسها بعد طول انتظار وطول غيبة، وكشف عن مخاوفها وهي تتوجس رز الانيس، ثم هروبها وهي لا تدري من أين تأتيها المخاطر وتداهمها المتون.

ومثل لبيد والهذلي، زهير والأعشى وفريق كبير من الشعراء، افتنوا في الاوصاف، فبينوا احوال الحيوان النفسية، ومثلو مخاوفه وعواطفه وهواجسه، وأن لم يهملوا هيئته من وصف أعضائه وحسن شياته وهو مذهبهم العام في الوصف.

وتأتي أوصاف الجاهليين لوحات كاملات يوفرون لها كل أسباب الصور الدالة الموحية المؤثرة، فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة، وحتى الصوت في كثير من الاحايين، نجد ذلك في وصف الطبيعة الصامتة كالمطر والسيول والبرق والغيوم والرمال والرياض، ونجد ذلك كذلك في وصفهم للحيوان حين يبينون لون بشرته وقوائمه والتماعه وسط الظلام، وحركته حين يمرح وحين يعدو في ذهابه بعيداً يقضي شهور الشتاء، وفي عودته ساعياً نحو الماء، في هروبه من الصياد وكلابه وفي مقاتلته هذه الكلاب وهو يفري صفاحها. وتستطيع ان تلمس هذه

---

(1) ديوان لبيد ص310- 311.

العناصر كاملة في قصيدة لزهير يصف بقرة وحشية يطاردها الصياد وقد افترس السبع ولدها، واستطاع زهير ان يوفر لقصيدته كل اسباب الجمال، وان يفتن في رسم الالوان وبيان الحركات والمطاردة، ووصف العواطف وتعيين مواطن الفجيعة، يقول[1]:

كخنساء سَفعَاء الملاطم حرة
مسافرة مزؤودة أم فرقد

غدت بسلاح مثله يتقى به
ويؤمن جأش الخائف المتوقد

وسامعتين تعرف العتق فيهما
الى جذر مدلوك الكعُوب محدد

وناظرتين تطرحان قذاهما
كأنهما مكحولتان بإثمد

طباها ضحاء أو خلاء فخالفت
اليه السباع في كناس ومرقد

اضاعت فلم تغفر لها غفلاتها
فلاقت بياناً عند آخر معهد

دماً عند شلو تحجل الطير حوله
وبضع لحام في إهاب مقدد

فجالت على وحشيها وكأنها
مسربلة في رازقي معضد

وتنفض عنها غيب كل خميلة
وتخشى رماة الغوث من كل مرصد

ولم تدر وشك البين حتى رأتهم
وقد قعدوا أنفاقها كل مقعد

---

(1) ديوان زهير ص225- 230.

وثــاروا بهــا مــن جانبيهــا كليهمــا

وجالــت وإن يجشــمنها الشــد تجهــد

تبيـــن الألى ياتينهــــا مــــن ورائهــــا

وان تتقــــدمها الســـــوابق تصـــطد

فأنقــذها مــن غمــرة المــوت أنهــا

رأت أنهــا إن تنظــر النبــل تقصــد

نجـــاء مجــد لــيس فيـــه وتــيرة

وتـــذبيبها عنهـــا بأســـحم مــذود

وجـــدت فالقــــت بيـــنهن وبينهـــا

غبــاراً كمــا فــارت دواخــن غرقــد

بملتثمـــات كالخـــذاريف قوبلـــت

الى جوشــن خــاظي الطريقــة مسند

فهـي بقـرة خنساء على خدها حمرة مشربة بسواد، تنطلق في الصحراء فرقة مذعورة، تركت وليدها في كناس، فهي قلقة مضطربة، تخشى عليه غوائل الإنسان وسباع الصحراء. ويصف زهير قرنيها فهما سيفان ماضيان املسان، ويصف أذنيها المرهفتين تتسمع بهما حركة العدو مخافة ان يفجأها فيصيب منها مقتلاً، وعيناها واسعتان سوداوان كأنهما كحلتا بأثمد، تتأمل بهما في حذر شديد أماكن المخافة ومواطن الهلاك والخطر.

في هذا القسم من القصيدة نظر زهير الى جانب اللون في البقرة، فوصف لون خدها وعينها وقرنيها واذنيها واعضاءها، ثم ينتقل في الجزء الثاني فيصف حال البقرة، ولكي يظهر خلجاتها النفسية واضطرابهما نراه يستعين بحركاتها، الحركة الجسمية الظاهرة والحركة النفسية

المصورة، فهي مسافرة مسرعة في عودتها، مضطربة قلقة على ولدها من سباع الصحراء، وقد راعها هول المشهد، مشهد ابنها حين رأته أشلاء ومزقا معفرة، ودماؤه تصبغ الرمال بلونها العاتك، والطير حوله تحجل هنا وهنالك، ثم عادت تعدو في هذه الصحراء الواسعة، وهي كثيرة الحركة حركة عدوها السريع، وحركة تلفتها ذات اليمني وذات الشمال، وحركة عينيها الزائغتين اللتين لا تستقران في محجر او موق، ذلك أنها تتوقع المهالك وتوشك ان تصيبها سهام الرماة من قبيلة الغوث الذين يقفون لها في كل مرصد، يرسلون اليها سهامهم، ويجرون خلفها كلابهم، تطاردها في هذا الموضع او ذاك، تسد عليها المسالك، وهي مجدة في عدوها تسبق الكلاب تارة، وتسبقها الكلاب تارة أخرى، ولا تنفك تذب عن نفسها بقرنيها الماضيين، فتطعن هذا وتنوش ذاك، وما زالت على هذه الحال حتى نجت من براثن الموت وأنياب المنية.

وانك لتعجب من هذا المشهد الذي ملأته الحركة، حركة العدو والمطاردة، وحركة العدو واضطراب الاعضاء، وحركة الكلاب المسعورة، وحركة قوائم البقرة السريعة الرشيقة المتناسقة وخفتها فهي كخذاريف الصبيان التي تذكرنا بخذروف الوليد عند امرئ القيس[1]، وفي هذا المشهد يعود الشاعر مرة أخرى الى اللون، فيصف لون البقرة الابيض الناصع، وقوائمها المخططة التي تشبه ثوباً جميلاً، ولون قرنها الاسود، والغبار الذي تثيره البقرة وخلفها كلاب الصيد كأنه دخان نار شجر الغرقد.

وإذا رحنا نرصد جانب اللون في الشعر الجاهلي، نجد كثرة من الالوان، فهم حين يصفون يلونون أوصافهم ويشتون أشكالها، وصفوا اسلحتهم وذكروا الوانها: فالسيف ابيض كالملح والرمح أسمر، وكذلك الترس، والسهم أزرق، وكذلك النصل، والقدح احمر، والقوس صفراء

---

(1) ديوان لبيد ص301- 302.

تارة وحمراء اخرى.

أما الحيوان فقد افتنوا في اوصافه والوانه، فالابل دهم، والخيل شقر او حُوٌّ أو كُمْت، والحمار اسود، والثور ابيض ناصع البياض، واكارعه سود، وعين البقرة سوداء حوراء كأنها مكحولة بأثمد، والضباع سود والغزلان عفر.

أما الدم فهو حالك عاتك، وجلود اعدائهم حمراء كالدم، ووجوههم مشرقة كالذهب، ووجوه اعدائهم سود سفعاء، وكذلك قدورهم التي يحيط بها الفرش من المرملين المعوزين، والنبت اخضر في الربيع، والديار غبر، والاثافي سفع، والأواري سود، والبعر أسود كحب القلفل.

ومن تمام الصورة عناية الجاهليين بالمواضع والمنازل والديار، مخاطبتها ومناجاتها وتحديد امكانها وتكرار ذكرها ونسبة بعضها الى بعض، من واد وجبل وعين ماء ونجد وسهل، وهذه الظاهرة لها دلالتها النفسية، فالمنازل اوطان الشعراء وديارهم، فيها ذكرياتهم ومعاهد صباهم ومساكن احبتهم وميادين حروبهم، وما لهم فيها من غارات منتصرة او جولات خائبة، فهم يذكرونها بقلوب واجفة ودموع منهمرة.

وليس ذكر المنازل والحنين اليها تقليدا ساروا عليه —كما نعهد ذلك في الشعر العباسي الذي تابع الجاهلين بعد تغير الحال وتبدل الاوطان —بل كان تعبيراً عن عواطف صادقة وذكريات عزيزة، فهم حين يمرون على الديار يقفون وقفة ذكرى عند خرائبها القديمة بعد ان خلت من أحبتهم، ويلتمسون العبرة من أفاعيل الزمان واحداث الليالي، فتهز هذه المواضع عواطفهم وتستثير اشواقهم.

ولم يكن ذكر المنازل والديار مقتصراً على شاعر دون غيره، او طائفة منهم دون أخرى، بل كان أمراً شائعاً عند اكثر الشعراء، يفتتحون بها قصائدهم الكبيرة المطولة خاصة، فهذا لبيد يتتبع في معلقته مواضع

حبيبته تـوار، ويـبين منازلها، ويحـدد أمـاكن حلولها او مرورهـا، وهـو يستمتع بذكر هذه المواضع ويلتذ حين يسميها أو يشير اليها، فيقول[1]:

مريـــة حلـست بفيـــد وجـــاورت

أهـل الحجـاز فـاين منـك مرامهـا

بمشـــارق الجـــبلين او بمحجــر

فتضـــمنتها فـــردة فرخامهــــا

فصــــوائق إن أيمنـــت فمظنــــة

فيهـا وحـاف القهـر او طلخامهـا

ولا يكـاد القـارئ يمضـي في قـراءة هـذه الابيـات حتـى تفجـأه هـذه المواضع الكثيرة التي ينثرهـا في القصيدة نثرا، كأنـه يستمتع بـذكرها ويأنس بتسميتها، وينحو لبيد في كثير من قصائده هذا المنحنى. وكذلك فعل عنترة في معلقته، فقد أكثر من ذكر المنازل وبالغ في تحديدها وتبين مواضعها، وبخاصة منازل عبلة، فهو يقول[2]:

يـــا دار عبلـــة بـــالجواء تكلمـــي

وعمي صباحاً دار عبلـة واسـلمي

ويذكر ديارها وديار أهله:

وتحـــل عبلـــة بـــالجواء وأهلنـــا

بـــالحزن فالصـــمان فـــالمتثلم

ويقول كذلك:

كيـف المـزار وقـد تربـع أهلـها

بعنيـــزتين وأهلنـــا بـــالغيلم

---

(1) ديوان عنترة ص183 و187.

(2) شرح المعلقات السبع ص155.

ويعني الحارث بن حلزة كذلك بالمواضع، ولكنه لا يحدد جهاتها مثل لبيد وعنترة، فهو يقول في ديار أسماء[1]:

بعــد عهــد لنــا ببرقــة شمــا

ءَ فــأدنى ديارهــا الخلصــاء

فالمحيــاة فالصــفاح فــأعلى

ذي فتــاق فعــاذب فالوفــاء

فريــاض القطــا فأوديــة الشــر

بــب فالشــعبتان فــالأ بــلاء

ولم يتخلف امرؤ القيس عن هؤلاء فوقف يبكي على منزل حبيبته بسقط اللوى بين الدخول فحومل وكذلك توضح والمقراة التي لم يعف رسمها[2]، وظهرت الديار أقل وضوحاً عند زهير الذي ذكر دمنة حبيبته أم أوفى التي بحومانة الدراج فالمتثلم وكذلك ديارها بالرقمتين[3]، أما عمرو بن كلثوم فيتذكر إيامه التي شرب فيها ببعلبك ودمشق وقاصرين[4]، واكتفى طرفة بأن عين أطلال خولة ببرقة ثهمد[5].

وقد ذكروا هذه الديار التي تشوقوا اليها وذرفوا الدمع عندها، مقرونة بذكر النساء الحبيبات حين يصفونهن ظاعنات ويتابعون حمولهن بأبصارهم، ويسايرونها بخيالهم، ويعينون المواضع التي تمر بها او تحل فيها، ثم يصفون ديارهن وهي خالية خاوية غدت مسرحاً للوحش من الحيوان.

---

(1)

(2) شرح المعلقات السبع ص155.

(3) ديوان زهير ص4- 5.

(4) شرح المعلقات السبع ص119.

(5) المصدر السابق ص45.

وكان التأمل في الديار يدعوهم الى ذكر آياتها من النؤى والاثافى والثمام وما هطل فيها من مطر او مرت عليها من ضروب الرياح. وكان وصف الديار وما يتعلق بها جزءاً من الصورة به تستكمل جوانبها وتتم ابعادها، فالديار من أبرز مظاهر الصورة الجاهلية.

وكان الشاعر الجاهلي يستعين بضروب من المجاز والمحسنات المعنوية، التي تأتي دون تكلف او افتعال، لاظهار الصورة باجمل حلة وازهى أسلوب، فهو يعني باستقصاء القول في الوصف واستغراق التشبيه واستيفاء الصورة البيانية استيفاء يتناول دقائقها وتفاصيلها. وكانت هذه الصور والتشبيهات –بطبيعتها– مستمدة من الواقع، من طبيعة الحياة، وكان لشدة احساس الشاعر بالجمال ان صار يجمل الصورة ويخرجها بهيئة رائقة رائعة، من ذلك ان امرأ القيس يستمد من حياته وما فيها من سهام الميسر وسهام الصيد، ليكون هذه الصورة البديعة(1):

وما ذرفت عيناك الا لتقدحي

بسهميك في أعشار قلب مقتل

واستمد عنترة صورة حية من الروض فيه الذباب الفرد، كشارب سكر فترنم، وقد لاحظ حركة ذراعيه فتذكر صورة المكب على الزناد الذي لا يوري فهو يعالجه باهتمام(2):

فترى الذباب بها يغنى وحده

هزجاً كفعل الشارب المترنم

غرداً يسن ذارعسه بذراعه

فعل المكب على الزناد الاجذم

وقد كان امرؤ القيس أول من فتق أساليب البيان وافتن في عرض

---

(1) ديوانه ص13.

(2) ديوانه ص 197- 198.

الصور واكثر من التشبيهات، فهو يرسل تشبيهاته متتالية على شاكلة قوله في وصف جبل ثبير حين يهطل عليه المطر[1]:

كأن ثبيراً في عرانين وبله
كبير أناس في بجاد مزمل

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة
من السيل والغثاء فلكة مغزل

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه
نزول اليماني ذي العياب المحمل

كأن مكاكي الجواء غديـة
صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

كأن السباع فيه غرقى عشية
بارجائه القصوى أنابيش عنصل

يشبه امرؤ القيس ثبيرا حين أحاط به السيل وتوالى عليه المطر، بكبير قوم قد تزمل في ثياب مخططة ثم تناول صورة أخرى فشبه رأس جبل المجيمر وقد غمره السيل وفيه الغثاء والنبات بفلكة المغزل، وصورة أخرى، هي صورة طيور المكاكي وقد فرحت بالخصب وغردت مسرورة كأنها نشوان أسكره سلاف الخمر المفلفل، ثم تناول صورة السباع وقد أغرق السيل آجامها وغرقت في لججه فبدت رؤوسها كأنها البصل البرى الذي قد نبش.

وصورُ امرئ القيس هذه صور منفصلة متتابعة موجزة، كل صورة تستقل بذاتها، فهي من الصور القديمة الأولى التي لم تتطور بعد فتصبح كصور زهير او صور النابغة الذي يجيد في وصف المتجردة، ويعمل خياله

---

(1) شرح المعلقات السبع ص40- 41 وانظر ديوانه ص25- 26 وفي روايته خلاف.

فيصوغ آيات من الجمال في صور زاهية تروق السمع والعين في آن واحد، وقد حشد هذه الصور في موضوع واحد هو وصف هذه الغانية الفاتنة، فراح يلتمس لها أسباب الجمال في حسنها وحركتها وجمال خلقها[1]:

قامت تراءى بين سجفي كلّةٍ
كالشمس يوم طلوعها بالاسعد

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كان بنانهُ
عنم على أغصانه لم يعقد

ويفاحم رجل أثيث نبته
كالكرم مال على الدعام المسند

نظرت اليك بحاجة لم تقضيها
نظر المريض الى وجوه العود

فبدت ترائب شادن متربب
أحوى أحم المقلتين مقلد

أخذ العذارى عقدها فنظمنه
من لؤلؤ متتابع متسرد

تجلو بقادمتي حمامة آيكة
برداً أسف لثاته بالاثمد

كالاقحوان غداة غب سمائه
جفت أعاليه وأسفله ندى

---

(1) ديوانه ص24- 37.

فقد وفق النابغة في اظهار بهاء المتجردة وحسنها بتشبيهها بالشمس يوم طلوعها بالاسعد وهو برج الحمل، حيث تكون الشمس بين غلائل من السحب الشفافة، فتبدو في أزهى صورة واجمل منظر، وكذلك المتجردة حين تظهر بين سجفي الستر، ثم يشبهها بالدرة تتألف بين صدفتين، او دمية من مرمر أبيض ناعم، ويتناول وصف ثناياها البيض البراقة ولثاتها الحمراء العاتكة، كالاقحوانة بللها الندى، وهكذا يرسم الشاعر الصورة بما يهيء لها من اسباب التشبيه بصورة اخرى، تظهر للقارئ، جمالاً من مقارنة الصورتين وابراز الحُسْنَيَيْن.

واذا جئنا الى زهير، نجده يعرض الصورة ثم يتركها حتى يستكمل جوانبها، يلح عليها ويفصل في انحائها ويستوفي جوانب الحسن فيها، تلمس ذلك في وصفه لامرأة يقول فيها[1]:

تنازعها المها شبها ودر
النحور وشاكهت فيها الظباء

فأما ما فويق العقد منها
فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاة
وللدر الملاحة والنقاء

فهو من البيت الأول يعقد الصلة بين جمال صاحبته وبين جمال بقر الوحش والدر والظباء، يقدم صورة مجملة ثم يبدأ بعد ذلك بتفصيلها واستيفاء محاسنها في البيتين الآخرين.

وإذا وصلنا لبيدا في نهاية العصر الجاهلي، نجد صوره انيقة شديدة العناية كثيرة الاتقان، ترى ذلك جلياً في هذه الابيات التي يصف فيها ثورا تطارده كلاب صياد ضامر البطن كالذئب، والثور يقاتل كلاب الصيد، قتال القائد الذي يحمي صحابه، فهو يطعن بقرنيه المديين

---

(1) ديوانه ص61- 62.

كأنهما أسنة قاطعة، حتى تتجلى المعركة عن صرعى مضرجة بالدماء كأنها أوعية مملوءة دما، والدم يتفصد من جوانبها[1]:

فعـدا علـى حـذر مـورث عـدة
يهتـز فـوق جبينـه رمحـان

حتـى أشـب لـه ضـراء مكلـب
يسـعى بهـن الخـب كالسـرحان

فحمـى مقاتلـه وذاد بروقـه
حمـى المحـارب عـورة الصـحبان

شـزرا علـى نبض القلوب ومقدماً
فكأنمـا يختلـها بسـنان

حتـى انجلـت عنـه عمايـة نفـره
فكـأن صـراعها ظـروف دنـان

هذه الصور جميعها كان عمادها التشبيه، وجمال التشبيه انه يعرض صورتين يربطهما التماثل، ويزداد جمال التشبيه اذا كانت الصورتان نادرتين، يتطلب استحضارهما خيال بارع وذهن خصيب، وهذه الصور –التي مرت- في جملتها بسيطة غير مركبة، سهلة غير معقدة، ذلك لأنها اتخذت التشبيه وسيلة، والمقارنة بين صورتين سبيلاً.

وهناك صور أخرى أكثر دقة وأبعد خيالاً وألصق بالفن والشاعرية، تلك الصور التي عمادها الاستعارة والكناية، وإذا كان التشبيه يمثل طور البداية وهو أول مراحل التصوير، فإن الاستعارة تمثل مرحلة النضج والدقة الفنية وقوة التصور، والخيال البعيد، ولذلك فلا تتهيأ الاستعارة الجيدة لكل الشاعرين او القائلين. ويقال[2] إن أول

---

(1) ديوانه ص145- 146.

(2) العمدة 1/276.

استعارة جاءت في الشعر الجاهلي قول امرئ القيس[1]:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبق العاذلات بشربة

كميت متى ما تعل بالماء تزيد

والصور التي تعتمد الاستعارة أسلوباً تدل على رقة في الاحساس وشعور بالجمال والحياة، ويكفي ان تنظر في هذه الصور لنجد مدى احساس الجاهليين بالجمال وقوة خيالهم وخصب قرائحهم، وهي صور تلائم الفطرة السليمة والنفس الصافية، يقول تأبط شراً واصفاً قوة صاحبه[2]:

إذا هزه في عظم قرن تهللت

نواجذ أفواه المنايا الضواحك

فقد جعل النواجذ تتهلل وتلمع لمعان البرق في فهم المنايا التي تضحك كأنها انسان فرح مسرور. ويقول زهير مصوراً حبه[3]:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعُرِّيَ أفراس الصبا ورواحله

وهي صورة نادرة غريبة، إذ جعل أسباب حبه لصاحبته أفراساً رواحل يمتطيها الى صاحبته وقد عريت الان فذهب الحب وصحا قلبه وأقصر عن باطله، أما لبيد فيتحدث عن كرمه وقت الجدب والبرد، وكيف دفع عن الجياع هذه الشدة[4]:

وغداة ريح قد وزعت وقرة

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

---

(1) ديوانه ص18.

(2) شرح الحماسة –المرزوقي 98/1

(3) ديوانه ص124.

(4) ديوانه ص315.

فانظر الى هذا التخييل وكيف جعل للغداة زماماً وللشمال يداً تتحكم في زمام الغداة، ويقف عند منظر غروب الشمس وحلول الظلام فيقول[1]:

حتى إذا ألقت يداً في كافر

وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

فقد ألقت الشمس يدها في يد الليل وهو الذي سماه كافراً أي ساتراً. وصور لبيد التي تقوم على الاستعارة كثيرة، وهي من النوع الذي يسميه البلاغيون بالاستعارة (المكنية)، وهي أعز مطلباً وابعد مثالاً من (التصريحية)، وسر الجمال فيها هذا الخيال البعيد الذي لا يتأتى الا للشعراء القادرين المبدعين.

ونجد كذلك استعارات جميلة عند فريق آخر من الشعراء مثل أوس بن حجر في قوله[2]:

وأنى امرؤ أعددت للحرب بعدما

رايت لها ناباً من الشر أعصلا

وعند طفيل الغنوى في وصف ناقته[3]:

وجعلتُ كُورى فوقَ ناجيةٍ

يقتاتُ شحمَ سنامها الرحلُ

وقول النابغة في الليل[4]:

وصدرٍ أراح الليلُ عازب همّهِ

تضاعف فيه الحزنُ من كل جانبِ

---

(1) ديوانه ص316.

(2) ديوانه ص83.

(3)

(4) ديوانه ص54- 55.

تقاعس حتى قلت ليس بمنقضٍ

وليس الذي يرعَى النجوم بآيب

وكما عبروا عن الصور الجميلة عن الصور الجميلة بالاستعارة، فقد عبروا عنها بالكناية، وهي أسلوب من التعبير يعتمد على ايجاز العبارة او ادماج اجزائها، واجادة التعبير بالكناية تدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة دالة موحية، فيها ضرب من الجمال لا يتأتى اظهاره بدونها، يقول النابغة في رفاهية الغساسنة وعفتهم[1]:

رقاق النعال طيب حجزاتهم

يُحَيَّونَ بالريحان يوم السباسب

ويقول لبيد في ذكر الموت[2]:

وكل أناس سوف تدخل بينهم

دويهيه تصفر منها الأنامل

ويعبر عن كثرة فرسان قومه بني جعفر فيقول[3]:

ولقد أراني تارة من جعفر

في مثل غيث الوابل المتحلب

أما صورة الاعشى ففيها دقة وابداع، يقول في سرعة ناقته عند الظهيرة[4]:

بجلالة سرح كأن بغرزها

هر إذا انتعل المطي ظلالها

---

(1) ديوانه ص63.

(2) ديوانه ص256.

(3) ديوانه ص157.

(4) ديوانه ص23.

وهكذا نجد الشعراء الجاهليين لم يتركوا جانباً من جوانب التعبير الفني والتصوير البديع الا طرقوه، وأفادوا منه، سواء كان ذلك باستعمالهم وسائل التحسين البيانية المعنوية، او المحسنات البديعة اللفظية وكلها تدعم الصورة وتملأ جوانبها حسناً وجمالاً.

(1)

بنية القصيدة:

في الشعر الجاهلي ضربان من القصائد، الضرب الأول قصائد طويلة كاملة، تعالج –في غالبها– أكثر من موضوع واحد، اي ان فيها مجموعة تجارب مجزأة الى مراحل وموضوعات، مرتبطة أحياناً ومفككة في أحيان أخرى، ولذلك أسبابه وعلاماته، وهذا الضرب من الشعر هو الذي اعتنت به الدراسات قديماً وحديثاً، ويتمثل في القصائد الطويلة المشهورة وأهمها المعلقات.

أما الضرب الثاني من الشعر الجاهلي فهو القصائد القصار والمقطعات، وفيها نجد التجارب الشعورية الكاملة والصور الصادقة للحياة الجاهلية، وأصداء أمينة لخفقات قلب الشاعر وترجماناً لعواطفه وأحاسيسه، ذلك لأنها قصائد أصيلة لم تصدر عن صناعة او تكلف، وتتمثل في هذه القصائد وحدة الموضوع والتجربة الشعورية الصادقة على ما فيها من سرعة وايجاز. وعلى هذا فالحديث عن بناء القصيدة ومراحل تكوينها لا ينصرف الا الى القصائد الطوال، هذه القصائد التي تتعدد فيها الموضوعات وتسير على نظام معين ونسق موروث سنة القدماء منذ عهد متقدم في الجاهلية، وتبعه المتأخرون في صدر الإسلام وسار على نهجهم كثير من شعراء العصر الاموي والعباسي على تفاوت في مقدار التبعية والالتزام.

ولم تك موضوعات القصيدة أو اجزاؤها مرتجلة على غير نظام، بل يمهد الشاعر للموضوع الذي يختاره، فيجعل له مقدمة طللية، ينتقل

بعدها وبعلاقة من تداعي الخواطر الى ذكر أهل هذه الاطلال، وتذكر أيام الصبا والهوى، ثم يفخر أمام حبيبته ببطولته وكثرة وقائعه وشدة بلائه، ويتداخل فخره بنفسه بفخره بقبيلته، لأنه واحد منها ومجده من أمجادها، ومن مفاخر نفسه تجشمه الاهوال وسعيه في سبيل المجد، وكثرة ترحاله وطول أسفاره وفي هذه الاسفار يصحب الحيوان وبخاصة الناقة، فحديثه عن الناقة جزء من رحلته، وفي الرحلة مشاهد كثيرة من طبيعة قاسية في ليل مظلم وصحراء لافحة ومطر هطال، وفي هذه اللوحة من الطبيعة مسارح للحيوان ومعارك لها مع الصائدين، فينصرف الذهن الى قصة هذه الحيوانات وما تتعرض له من مخاطر وبخاصة مخاطر الصياد وكلابه، فهناك اذا صراع بين الطبيعة وسكانها من انسان وحيوان، ووصف هذا الصراع وتلك المعارك هو وصف للبطولة وتعبير عن ذات الشاعر ممثلاً في انتصار الثور او فوز الحمار بأتانه وانفراده بها بعيداً عن أعين الرقباء وتربص الصيادين، وقد تكون هذه أو تلك أماني الشاعر في أن ينتصر او يخلو بحبيبته، يعيرها هذا الحيوان او ذاك، وبعد ان يعود الى ذاته ويستيقظ من احلامه فيجدد القول في عرض آخر يريده أو يتعرض له من حيث لا يقصد ولا يتعمد، وغالباً الانسان فيها ومصيره وخبر من باد من الناس او هلك من الغابرين، هذا هو نظام القصيدة في عمومه، ولكل جزء من اجزاء القصيدة نظام خاص وعرف –عند الشعراء- متبع، فلنقف عند كل جزء، لعلنا نرى فيه رأياً.

المطلع:

لقد انصرفت عناية الشعراء منذ القديم الى الاهتمام بمطالع قصائدهم، لأنها أول ما تفاجأ السامع فلابد أن يكون لها وقع حسن، ولذلك فقد حمد النقاد للشعراء مطالعهم الحسنة التي تكون واضحة سهلة المأخذ مع القوة والجزالة[1]، وقد لاحظوا كذلك التناسب بين

---

(1) العمدة 218/1.

الشطر والعجز وترابط المعنى بينهما، وكذلك لاحظوا مناسبة المطلع لموضوع القصيدة، فإذا كان المقام مقام حزن كان الاولى بالمطلع ان ينبئ بذلك من أول بيت، وإذا كان المقام مقام تهنئة او مديح كرهوا الابتداء بما يتشاءم به، ولعلك تذكر قول جرير في مديح عبد الملك بن مروان:[1]

أتصحو أم فؤادك غير صاح...

فقال له عبد الملك: "بل فؤادك يا ابن الفاعلة" فقد ساءه هذا المطلع، مع أن عبد الملك يعلم ان الشاعر يخاطب نفسه، وكذلك وقع ذو الرمة فيما وقع فيه جرير، حين دخل على عبد الملك وأنشده قوله[2]:

ما بال عينك منها الماء ينسكب ...

"وكانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبداً، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل، فمنعه وأمر باخراجه، وكذلك كان أمر ابي النجم العجلى مع هشام بن عبد الملك حين أنشده ارجوزته[3]:

والشمس قد كادت ولما تفعل

كأنها في الافق عين الاحول

وكان هشام أحول، فأمر به فحجب عنه مدة. وأسوأ من هذا وذاك قول أبي مقاتل في المديح[4]:

لا تقل بشري ولكن بشريان

غرة الداعي ويوم المهرجان

فاخذ عليه ذلك وأوجع ضرباً، وقيل له لو قلت: "إن تقل بشرى

---

(1) العمدة 222/1.

(2) المصدر السابق والصفحة.

(3) المصدر السابق والصفحة.

(4) الصناعتين ص432.

فعندي بشريانٌ. وقد مدحوا المطالع التي تناسب الحال والمقام، كقول اوس بن حجر في ابتداء مرثيته[1]:

أيتهـــا الـــنفس اجملـــي جزعـــا

ان الـــذي تحـــذرين قـــد وقعـــا

وكـذلك قـول النابغـة الـذبياني الـذي صـور خوفـه مـن النعمـان وخوالجه النفسية في قصيدته الاعتذار فبدأها بقوله[2]:

كلـيني لهـم يـا أميمـة ناصـب

وليـل أقاسـيه بطـيء الكواكـب

وإذا جئنا الى القصائد الطويلة التي هيأ الشاعر لها كل أسباب فَنِّهِ ومواهبه، نجدها تبدأ بالديار والوقوف على الاطلال وبكائها والتأمل فيها، فالديار هي ديار الحبيبة، ديار الذكريات، فهي قطعة من الماضي العزيز الذي يثير في نفسه الشوق والحنين، وهذا هو أسلوب المعلقات في الاستهلال، فامرؤ القيس يقف على الديار ويستوقف: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وكذلك فعل طرفة حين وصف أطلال خولة: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وتبعهما لبيد في وصف الديار: (عفت الديار محلها فمقامها) وزهير يتحدث عن دمن أم أوفى: (أمن أ أوف دمنة لم تكلم) وعنترة يتعرف على الديار بعد طول توهم: (هل غادر الشعراء من متردم) والحارث بن حلزة يعدد مواقع أسماء ويحددها: (آذنتنا ببينها أسماء)، ولم يشذ عن هذه السنة من أصحاب المعلقات الا عمرو بن كلثوم فقد كان مندفعاً الى الكأس وشربها ليهئ نفسه لعتاب عمرو بن هند فبدأها بقوله: (الا هبي بصحنك فاصبحينا).

هذا هو الاسلوب العام في ابتداء المطولات، البدء بالديار وحديثها

---

(1) الصناعتين ص433 وديوانه ص53.

(2) الصناعتين 433 وديوان النابغة ص54.

وذكرياتها، ولكن هذا لا يعني أن كل الشعر الجاهلي كان يفتتح بذكر الديار، فكما شذت معلقة عمرو بن كلثوم، فقد نشزت قصائد كثيرة عن هذا الاسلوب، فمن الشعراء من استبدل الديار بالغزل والحديث عن النفس كما فعل زهير بن أبي سلمى في قصيدته التي يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري[1]:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعري أفراس الصبا ورواحله

وأقصرت عما تعلمين وسددت

عَلَيَّ سوى قصد السبيل معادله

ثم يمضي في وصف الطبيعة والصيد حتى يصل الى قصده من المديح. ولعل زهيراً كان يتابع في قصيدته هذه أستاذه أوس بن حجر في مطلعه وفي مراجعةِ نفسه[2]:

صحا قلبه عن سُكرة فتأملا

وكان بذكرى أم عمرو موكلاً

وكان له الحينُ المتاح حمولةً

وكل امرئٍ رهن بما قد تحملا

وعلى هذه الشاكلة من الخروج على قاعدة البدء بالديار شعر الصعاليك في أكثره، فهو يستعيض عن الديار بمحاورة النساء اللواتي يشفقن عليهم من خوض الغمرات والوقوع في المهالك، على شاكلة قول عمرو بن براقة لصاحبته سليمى[3]:

تقول سُلَيمى لا تعرض لتلفة

وليلُك عن ليل الصعاليك نائم

---

(1) ديوان زهير ص124

(2) ديوان أوس بن حجر ص82.

(3) الاغاني 119/2 وانظر شعر الصعاليك ص267.

وكيف ينام الليلَ من جُلُّ ماله

حسام كلون الملح أبيض صارم

وكذلك يخاطب عروة بن الورد امرأته سلمى ابنة منذر بأن تدعه وشأنه في حياة الصعلكة جريئاً غازياً يبيع نفسه لموت شريف[1]:

أقلي علي اللوم يا ابنة منذر

ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

ذريني ونفسي أم حسان إنني

بها قبل ان لا أملك البيع مشتري

أحاديث تبقى والفتى غير خالد

إذا هو أمسى هامة تحت صير

والذي بين أيدينا من مطولات الشعر الجاهلي تدور مطالعها حول الديار، واذا ضربت عن ذكر الديار، فالى ذكر المرأة والتشبيب بها، وأحاديث النفس حولها، ونريد أن نتلمس أسباب ذلك. حقاً إن بعض القصائد لم تذكر الديار ولا المرأة، وبخاصة القصائد القصار والمقطوعات، وهذه لا يقاس عليها، لانها تجربة شعورية محدودة، ولكن طوال القصائد تتناول هذين الموضوعين: المرأة والديار، والديار ديار المرأة، وذكر المرأة في موطن الذكريات وهي الديار.

أما القدامى فلديهم رأيان، الأول نقله ابن قتيبة عن بعض أهل الادب ولم يسلمه قال: "سمعت بعض أهل الادب يذكر ان مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والد من والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ

---

(1) الاصمعيات ص43.

كانت نازلة العمد[1]، في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء الى ماء، وانتجاعهم الكلاء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ليستدعي به اصغاء الاسماع اليه لان التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء، فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال او حرام، فإذا علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له، عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير، فإذا علم انه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه السماح، وفضله على الاشباه وصغر في قدره الجزيل"[2]

ورأي ابن قتيبة هذا يصدق في شعر المديح والتكسب حيث يقدم الشاعر بين يدي ممدوحه هذه المقدمات، ويصف ما لاقاه من مكاره وما تجشم من صعاب في سبيل الوصول اليه، وقد يصح هذا في عصر صار الشعر فيه وسيلة للارتزاق وبخاصة في العصر الاموي وفي بيئات الشام والعراق، أما شعر العصر الجاهلي، فلا أظن ان فيه من الذين سألوا في الشعر أو مدحوا تكسبا، غير الحطيئة والاعشى- وأحاشي النابغة على ما يظن به فقد كان مديحه للملوك سياسياً في سبيل قومه -ولا أظن ان القصائد الطويلة التي قيلت وفيها ما فيها من مقدمات طللية وغزلية تتصل في أكثرها بالمديح، بل كانت فخراً وهجاء ووصفاً وعتاباً واعتذاراً،

---

(1) نازلة العمد: يريد البدو من عمود الخباء، ونازلة المدر: أي الحضر سكان القرى والمدر التراب والطين.

(2) الشعر والشعراء ص74- 75.

وحتى المديح الجاهلي فإنه كان مديحاً للقبيلة وهو ضرب من الفخر، وما كانت غاية الشاعر ان يهز السامعين للسماح والعطاء، بل ما كان هم الشاعر ان يرضي السامعين بقدر ما كان همه التعبير عن خلجات نفسه وتصوير عواطفه واحساساته، ورأى ابن قتيبة يجرد الشاعر من عفويته وأصالته واحساساته وصدقه في ذكريات وحنينه وحبه، ويمسخ هذا الشعر الاصيل الى شعر تكلف وصناعة بعيدين عن الطبع الاصيل. ولعل ابن رشيق في هذا أقرب الى طبيعة الشاعر الجاهلي وحقيقة شعره، فقد قال: "وسئل ذو الرمة، كيف تعمل اذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف يقفل دوني وعندي مفاتيحه.. الخلوة بذكر الاحباب" ويعلق ابن رشيق بقوله: "فهذا لانه عاشق ولعمري انه اذا انفتح للشاعر تسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء، وإنما كان واصف اطلال ونادب أظعان، وهو الذي أخرجه من طبقة الفحول" (1). أن رأي ابن رشيق هذا في ذي الرمة فيه خير رد على ابن قتيبة، لان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء، فغزله كان تنشيطاً لنفسه واستجابة لنوازعه النفسية وقدحا لملكته الفنية المبدعة، وكذلك كان شأن هذه المقدمات الطللية عند الشعراء.

ان هذه المقدمات الطللية او الغزلية (2) تمثل جزءا من حياة الجاهلي، وهو حين يقف عندها يستحضر ذكرياته ويعود لايامه وصباه، فتثير في نفسه الوانا من الاسى والشجو والحنين، فيندفع في مناجات هذه الديار ومخاطبتها ووصف آثارها وتصور ما كان فيها، فهو في الحقيقة يعبر عن احساسات صادقة وعواطف صحيحة تملاء شعاب نفسه، والديار بالتسبة للجاهلي تمثل الوطن المهجور والاهل والصحب والاحبة، فهي

---

(1) العمدة 206/1.

(2) انظر هنا تطور الغزل -شكري فيصل ص39- 63 شعر الوقوف على الاطلال عزة حسن ص5- 15.

ليست في اساسها تقليدا كما صارت عند المتأخرين من امويين وعباسيين، بل هي حياة عاشها وذكريات عزيزة عليه، فشعره فيها صادق العاطفة ينبع من فيض دافق من المشاعر والاشواق تكاد تمتزج امتزاجا بهذه الديار، ان الشاعر حين يقف في الديار المهجورة تفيض نفسه بشتى العواطف ويمتلئ صدره بخلجات من المشاعر المبهمة وتغرورق عيناه بالدموع، لما تثيره في نفسه من ذكريات، تكاد تلمس هذا في مطلع بشامة ابن الغدير حيث يقول[1]:

لمن الديار عفون بالجزع
بالدوم بين بحار فالشرع
درست وقد بقيت على حجج
بعد الانيس عفونها سبع
إلا بقايا خيمة درست
دارت قواعدها على الربع
فوقفت في دار الجميع وقد
جالت شؤون الرأس بالدمع
كغروض فياض على فلج
تجري جداوله على الزرع
فوقفت فيها كي أسائلها
غوج اللبان كمطرق النبع

أما المطالع الغزلية ففيها احساس دقيق بالجمال وتذوق لمحاسن المرأة، والقارئ لمشاهد الارتحال والفراق، يشعر بهزة من شوق ورهبة وحنين لهذا الفراق، وحين تذكر المرأة وتوصف محاسنها نجد في هذا الشعر اقبالا على الحياة وامتزاجا بها وتعلقا بمباهجها، وأقرأ في معلقة الاعشى على ما في الاعشى من وقار وتعقل، فانك تلمح في مقدمته الغزلية

---

(1) المفضليات ص407.

جمالاً وبهجة وصورة فيها حياة وحركة وصدق وعاطفة[1]:

ودع هريـــرة ان الركـــب مرتحـــل
وهـــل تطيـــق وداعـــا ايهـــا الرجـــلُ

غـــراء فرعـــاء مصـــقول عوارضـــها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوَجِلُ

كـــأن مِشْـيَتَها مـــن بيـــت جارتهـــا
مَـــرُّ السـسحابة لا رَيْـــثٌ ولا عجـــلُ

تسمع للحلي وسواسا اذا انصرفت
كمـــا اســـتعان بـــريح عِشْـــرَقٍ زجـــلُ

ليست كمن يكره الجيران طلعتها
ولا تراهـــا لســـر الجـــار تختتـــلُ

يكـــاد يصـــرعها لـــولا تشـــددها
إذا تقـــوم الى جاراتهـــا الكســـلُ

إذا تعـــالج قرنـــاً ســـاعة فـــترت
واهتـــزَ منهـــا ذنـــوب المـــتن والكفـــلُ

مـلء الوشـاح وصـفر الـدرع بهكنـة
اذا تـــأتي يكـــاد الخَصْـــرُ ينخـــزلُ

التخلص:

وإذا انتهينا من مقدمات القصائد، نسير مع الشاعر خطوة اخرى، لنراه كيف يغادر الموضوع الذي ابتدأ به الى موضوع آخر، أينتقل فجاة دون تمهيد، او يمهد لذلك بأبيات وهل هناك علاقة بين الدار والغزل وما بعدهما من ذكر الناقة او الوصف او الفخر؟

الشاعر المجيد هو الذي يحسن الانتقال، فيغادر موضوعه الاول الى الذي يليه دون خلل او انقطاع، ويجعل معانيه تَنْسَابُ الى الموضوع الاخر انسياباً بحيث لا يشعر قارئه بالنقلة، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو

---

(1) ديوان الأعشى ص 144.

استمرار للاول وامتداد له، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام[1] ويمدحون لزهير بعض انتقالاته الى المديح في مثل قوله[2]:

أن البخيل ملوم حيث كان ولـ

ـكن الجواد على علاّته هرم

ولزهير أساليب في الانتقال، فإذا كان في سياق الحديث عن صد صاحبته وهجرها يحدث نفسه ان يقطع حبال وصلها مثل ما قطعته، وينهض راحلاً على ناقته القوية المتينة فيقول[3]:

فصَرِّمْ حَبلَها إذ صرَّمَتْهُ

وعادَك أن تلاقيها العَداءُ

بآرزة الفقارة لم يخنها

قِطافٌ في الركاب ولا خِلاءُ

ومثل زهير في هذا لبيد في معلقته[4]:

فاقطع لبانة من تعرض وصله

ولشرُّ واصلِ خُلّةٍ صرّامُها

بطليحِ أسفارٍ تركن بقيةً

منها فأحنقَ صُلبُها وسَنامُها

وقد يتخذ الانتقال شكل التساؤل، وبخاصة في سياق رحيل الاحبة، كقول عنترة[5]:

هل تبلغني دارها شَدَنيَّةٌ

لُعِنَتْ بمحروم الشراب مُصَرَّمِ

---

(1) العمدة 1/234.

(2) ديوانه ص152.

(3) ديوانه ص62- 63.

(4) ديوانه ص303.

(5) ديوانه ص199.

وتابعه في هذا زهير فقال[1]:

هل تُلحِقَنّي واصحابي بهم قَلَصٌ
يُزجي أوائلَها التبغيلُ والرَتَكُ

وهناك أساليب كثيرة في التخلص والانتقال، وقد يستخدم الشاعر لذلك: الاستفهام او الاشارة أو بعض الحروف كالفاء والواو ورب وبل، ومن جميل الانتقال بالإشارة قول لبيد[2]:

تلك ابنة السعدي اضحت تشتكي
لتخون عهدي والمخانة ذام

او الاشارة والاستفهام معاً كقوله[3]:

أفتلك أم وحشيةٌ مسبوعةٌ
خذلتْ وهاديةَ الصّوارِ قِوامُها

وقد يتخذ الجاهليون الانتقال المفاجئ بالقطع، وذلك بأن يقول (دع ذا) أو (فدعها) أو (عد عن ذا)، وهذه أساليب ليست مما تمدح في انتقالاتهم، كقول الاعشى بعد ان كان يتحدث عن صاحبته انتقل الى الناقة فجأة[4]:

فدعها وسل الهم عنك بجسرة
تَزَيَّدُ في فضل الزِّمامِ وتَغتلي

وقول المثقب العبدي[5]:

فسلِّ الهمَّ عنك بذاتِ لَوثٍ
عُذافرةٍ كمطرقةِ القيونِ

---

(1) ديوانه ص168.
(2) ديوانه ص291.
(3) ديوانه ص307.
(4) ديوانه ص142.
(5) ديوانه ص34.

الخاتمة:

وقد لاحظ النقاد ان لخاتمة القصيدة أثراً في النفس ووقعا مهما، لأنها آخر معنى يبقى في الأذهان، وفي الشعر الجاهلي نهايات جميلة أعجبت النقاد. قديماً، من ذلك قول تأبط شراً[1]:

لتقرعنَّ علىَّ السنَّ من ندمٍ
إذا تذكرتَ يوماً بعضَ أخلاقي

وكذلك يعجبهم انتهاء الشنفرى في قوله[2]:

واني لحلو إن أريد حلاوتي
ومر اذا نفس العزوف أمرّت
أبيٌّ لما آبى قريبٌ مقادتي
الى كل نفسٍ تنتحي في مسرتي

فقد جمع خلاصة فخره في هذين البيتني بلفظ حسن ومعنى واضح.

وكثيراً ما يختتم الجاهليون قصائدهم بالحكمة، وهي خلاصة تجاربهم ونظرتهم الى الحياة، ومن جميل ذلك قول امرئ القيس[3]:

إلا إن بعد العُدْم للمرء قِنْوة
وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

وأوجز لبيد حكمته في احدى قصائده فقال[4]:

وإنّا وإخواناً لنا قد تتابعوا
لكالمغتدى والرائح المتهجّر
هل النفسُ إلا متعةَ مستعارةَ
تعار فتأتى ربَّها فَرْطَ أشهرِ

---

(1) الصناعتين ص444.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) ديوان امرئ القيس ص108 والصناعتين ص443 وفيه: وبعد الشباب.

(4) ديوان لبيد ص57.

على أن هناك نهايات تشعر ان المعنى ما زال مستمراً حيث ينهي الشاعر قصيدته فجأة وعلى غير ختام، ويبقى المعنى بحاجة الى تكملة واستمرار كقول امرئ القيس في معلقته فقد انهاها بقوله[1]:

كأنَّ مكاكيَّ الجواء غُدَيَّةً
صُبِحنَ سلافاً من رحيقٍ مُفَلفلِ

كأن السِّباع فيه غرقى عشيةً
بأرجائه القُصوى أنابيشُ عُنصُلِ

والقارئ هنا يشعر ان للكلام بقية وللوصف تتمة، فالسياق يقضي ملء الصورة التي رسمها.

الوحدة الموضوعية:

أ. البيت في الشعر العربي يقوم بمعناه، وهو مستقل بنفسه لا يتعلق بما بعده، ذلك لأن العربي يؤثر الايجاز ويفضل المثل السائر الذي تلتقطه الذاكرة ويجري على ألسنة الرواة، ويفضل النقاد القدامى البيت المكتمل لمعناه على المحتاج الى غيره، بل يرون البيت الذي حوى معنين، أجود من الذي اكتفى بمعنى واحد، وفي ذلك يقول قدامه: "أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذي يريد او المعنيين في بيت واحد كان في ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك في بيتين، وكذلك إذا أتى شاعران بذلك، فالذي يجمع المعنيين في بيت، أشعر من الذي يجمعها في بيتين[2].

وقد عابوا الشعر الذي لا يستقل البيت فيه بمعناه، بل يحتاج الى سواه، وسموا ذلك البيت (مبتوراً)[3]، ومثل قدامة لذلك بيت عروة بن

---

(1) شرح المعلقات السبع –الزوزني ص41 وفي ديوانه ص26 خلاف وحتى رواية الديوان بحاجة الى ختام فهي تشعر بالانقطاع.

(2) نقد النثر ص89.

(3) نقد الشعر ص217 والموشح ص129.

الورد[1]:

فلو كاليوم كان عليَّ أمري
ومن لك بالتدبر في الامور

إذا لملكتُ عصمة أم وهب
على ما كان من حَسَكِ الصدور

فالبيت الأول لا يستقيم معناه ولا يتم الا بورود البيت الثاني. وقد يسمى مثل هذا بـ (التضمين) ويكون هذا أشد قبحا اذا تعلقت القافية او لفظة مما قبلها بما بعدها، واستشهد ابن رشيق لهذا بقول النابغة الذبياني[2]:

وهم وردوا الجِفَارَ على تميمٍ
وهم أصحابُ يومِ عُكاظَ إنّي

شَهِدتُ لهم مواطنَ صالحاتٍ
وثقت لهم بحسن الظنِ منّي

وتسامحوا في البيتين اذا اقتضى الاول مجيء الثاني، وافتقر الثاني الى الأول، وسموا ذلك (اقتضاء) ومثلوا له بقول امرئ القيس[3]:

وتعرفُ فيه من أبيه شمائلاً
ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُرْ

سماحة ذا ويسرٌ ذا ووفاء ذا
ونائل ذا إذا صحا وإذا سَكَرْ

وقد خرج ابن الاثير[4] على جمهرة النقاد الذين عابوا تعلق معنى

---

(1) العمدة 171/1 وفي ديوانه ص199:

مواطن صادقات اتيتهم بنصح الصدر مني

(2) الموشح ص49 وديوانه ص113.

(3) المثل السائر ص294.

(4) المصدر السابق والصفحة وفي ديوانه ص18: فيك بامثل.

البيت بغيره ولم ير في ذلك بأساً، واستشهد على المقبول من ذلك بقول امرئ القيس[1]:

فقلت له لما تمطى بصُلْبِهِ

وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ

الا أيها الليلُ الطويلُ الا انجلِ

بصبحٍ وما لأصباحُ منك بامثلِ

أما اذا تعلق معنى البيت العام بأبيات بعده، ولم يكن فيه ما يشعر بالتوقف والانقطاع فذلك أمر مقبول، وقد يكون هذا من أسباب ربط المعنى في القطعة.

وكما لاحظوا استقلال البيت في معناه، لاحظوا أيضاً التناسق بين شطري البيت الواحد من حيث المعنى، وأن يكون الشطر مشاكلاً لأخيه غير غريب عنه، ولا خارج عن مستواه، فقد عابوا على الأعشى قوله[2]:

اغرُّ ابيضُ يُستسقى الغمامُ به

لو قارعَ الناسَ عن أحسابهم قرعَا

إذ لا علاقة ولا ارتباط بين معنى الشطر الأول ومعنى الشطر الثاني، ومثله قول طرفة بن العبد[3]:

ولست بحلّال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القومُ أرفدِ

ففي صدر البيت يتحدث عن شجاعته، بحيث لا يحل التلاع العالية خوفاً من لقاء الخصوم، ثم استدرك في عجز البيت معنى جديداً هو الكرم، وكان المفروض ان يستدرك في معنى الشجاعة. وقد أخذوا على

---

(1) الموشح ص72 وفي ديوانه ص109: لو صارع الناس عن احلامهم صرعاً.

(2) الموشح ص73 وديوان طرفة ص39.

(3) ديوان امرئ القيس ص35.

امرئ القيس عدم التلاؤم في بيته بين الشطر والعجز[1]:

كـأني لم أركـب جـواداً للـذة

ولم أتـبطن كاعبـا ذات خَلْخَـالِ

ولم أسـبأ الـزِّق الـرويّ ولم أقـلْ

لخيلـي كُـرِّي كـرةً بعـد اجفـالِ

فيصـح المعنـى اذا قـدم عجـز البيـت الثـاني الى الاول ويناسـبه في الحديث عن الخيل والفروسية فيكون:

كـأني لم أركـب جـواداً للـذة

ولم أتـبطن كاعبـا ذات خلخـال

ويستقيم البيت الثاني مع عجـز الأول في الحـديث عـن شـرب الخمـر واللهو والغزل، ويكون:

ولم أسـبأ الـزق الـروي ولم أقـل

لخيلـي كـري كـرة بعـد اجفـال

ولاحظـوا أيضـاً التناسـب بـين شـطري البيـت مـن حيـث القـوة والضعف، وانكروا قول جميل[2]:

ألا أيهـا الركـبُ النيـامُ ألا هبـوا

أسـائلكم هل يقتل الرجلَ الحبُّ؟

وقـالوا: "إن النصـف الأول مـن البيـت كأنـه أعرابـي في شملـة، والنصف الاخر كأنه مخنث مفكك" "كأنه والله من مخنثي العقيق".

ب. الوحدة الموضوعية[3] تقوم على أساس تنمية الشاعر لاقسام القصيدة

---

(1) الأغاني 114/4 وينظر ديوان جميل ص25 وفيه: الا ايها النوام ويحكم هبوا.

(2) انظر هنا ما كتبه طه حسين في حديث الاربعاء 30/1 وما بعدها عن قصيدة لبيد، وينظر الشعر الجاهلي –سلسلة الروائع لفؤاد افرام البستاني ص30- 32 والشعر الجاهلي للنويهي ص435 وما بعدها، ص30- 32، ولعبد الجبار المطلبي بحث في مجلة كلية الآداب بغداد نيسان 1964 بعنوان: في الشعر العربي القديم ونقده.

(3) حديث الاربعاء ص30، وقد أسماها النويهي –الشعر الجاهلي 435/2: الوحدة الحيوية، واسماها البستاني –الروائع الشعر الجاهلي ص30: الوحدة الشعورية.

تنمية عضوية بحيث ينشأ كل جزء من سابقه نشوءاً طبيعياً مقنعاً، ويستدعي الجزء الذي يليه استدعاء حتمياً، حتى تتكامل اجزاء القصيدة وتشملها عاطفة موحدة. وتتحقق هذه الوحدة في القصائد ذات الموضوع الواحد، وهي القصائد القصيرة والمقطوعات، او القصائد الطويلة ذات الموضوعات المتعددة ككل جزء على انفراد وليس يعني هذا ان يكون بين موضوعات القصيدة انسجاماً في طريقة التخلص او الانتقال، والشعر الجاهلي -والشعر القديم بعامة- لا تتوفر في قصائده الطوال هذه الوحدة الا قليلاً، ومن الخطأ والتعسف الفاحش تطبيق المفاهيم الاوربية الحديثة على الادب القديم، مع اختلاف طبيعة كل أدب في النظرة والموضوع، فقد دخلت الادب الحديث قيم ومفاهيم جديدة بحيث صارت الوحدة الموضوعية والعضوية ضرورة لا غنى عنها -على قلة توفرها في الشعر الحديث نفسه-، وليس كذلك الادب القديم، وعلينا ان نتفهم الشعر القديم في حدوده وظروفه ومقاييسه في عصوره تلك.

فالوحدة الموضوعية، او الوحدة المعنوية كما يسميها الدكتور طه حسين، تتحقق في الشعر الجاهلي في أجزاء من القصائد الطويلة في الموضوع الواحد وتتحقق في الشعر الذي يسرد قصة او يصور أحداثاً بعينها، وتتحقق في كثير من القصائد القصار، وقصائد الغزل وقصائد الرثا واستطيع ان اسمي بعض هذه القصائد، فمن ذلك قصيدة المرقش الاكبر التي مطلعها[1]:

سرى ليلاً خيال من سليمى

فأرقني وأصحابي هجود

---

(1) المفضليات ص223.

وقصيدة طرفة بن العبد[1]:

أتعـرف رسـم الـدار قفـرا منازلـه

كجفن اليماني زخرف الوشي ماثله

وقصيدة تأبط شرا[2]:

إن بالشـعب الـذي دون سـلع

لقتـيلا دمـه مـا يُطَـلُّ

وقصيدة عروة بن الورد[3]:

أرى أم حمسـان الغـداة تلـومني

تخوفني الأعـداء والـنفس أخْوَفُ

بل إنَّ أكثر شعر الصعاليك تتوفر فيه الوحدة الموضوعية[4]، وليس هذا لأن شعر الصعاليك مقطوعات ولكن حتى القصائد الطويلة تجدها مترابطة متلازمة تداعى أفكارها، إن شئت فاقرأ رائية عروة بن الورد التي يستهلها بقوله[5]:

أقلـي علـيَّ اللـومَ يـا بنـت منـذرٍ

ونامي وإن لم تشتهي النومَ فاسهري

فستجد فيها وحدة متناسقة وترابطاً بين أبياتها وتلازماً في معانيها بحيث لا تستطيع ان تسغني عن بيت فيها في موضعه الذي حدده الشاعر.

وقد تحدث الدكتور طه حسين[6] عن الوحدة المعنوية في القصيدة الطويلة وقال: انها وحدة متقنة متمة اتماماً لا شك فيه ولا غبار عليه، وقال

---

(1) ديوانه ص114.

(2) شرح الحماسة –المرزوقي 827/1.

(3) ديوانه ص107

(4) ينظر الشعراء الصعاليك ص262- 263.

(5) ديوانه ص66.

(6) حديث الاربعاء 30/1.

ان أجزاء القصيدة جاءت ملتئمة الاجزاء قد نسقت احسن تنسيق وأجمله وأشده ملائمة للموسيقى، وعزا الخلل والتفكك والانقطاع في بعض القصائد الى قصور ذاكرة الرواة، وما أحدثت من الاضاعة والخلط والاضطراب.

وتناول معلقة لبيد فحللها وقال: أنها بناء متقن محكم لا تستطيع ان تقدم فيه وتؤخر او تضع بيتاً مكان بيت دون ان تفسد القصيدة وتشوه جمالها. ودون أن تفسد البناء كله وتنقضه نقضاً.

أن محاولة الدكتور طه حسين كانت منصبة على ابراز الترابط العضوي في الموضوع الواحد من القصيدة، وهي حقيقة قائمة في معلقة لبيد وفي كثير من القصائد الطوال، ولكن ليس معنى هذا ان هناك ترابطاً عضوياً في اجزاء القصيدة الواحدة، ولو أنه لاحظ الانتقال او التخلص من موضوع الى آخر فيه يسر وعفوية وبراعة.

ان التئام اجزاء القصيدة لا يعني الوحدة الموضوعية او العضوية، ان الوحدة تتحقق في كل جزء من اجزاء القصيدة لدى لبيد او غير لبيد من شعراء الجاهلية المجيدين، فإذا اعتبرنا كل قسم من أقسام القصيدة وحدة مستقلة، نستطيع ان نلتمس الوحدة الموضوعية في هذا الجزء او ذاك.

وأقسام القصيدة هذه، هل كانت تأتي عفوية وعلى غير نظام، ام ان الشاعر كان يلمح فيها نظاماً، او يريد ترابطاً في موضوعاتها ومعانيها لعل طبيعة الحياة هي التي أوجبت ذلك التسلسل في الموضوعات وجعلت بينها تداعياً في المعاني وتلازما في الافكار، وقد مر بنا رأي ابن قتيبة في توافق الموضوعات وتنظيمها وتعليل ذلك، حين تحدث عن الشاعر الأول (مقصد القصيد) [1]. وقد صار أسلوب الاوائل في نظام القصيدة تقليداً فنياً، وهو -في حقيقة الأمر- ليس بعيداً عن واقع الحياة في البادية العربية، فحياة البادية نقلة وأسفار، فالشاعر يمر في أسفاره وغزواته او

---

(1) الشعر والشعراء 1/47- 75.

رحلة صيده، على ديار الاحبة وقد ظعنوا، فتهيج هذه الديار مشاعره ويتذكر صلاته بأهلها، وقد تكون له فيها ذكريات طفولة وصبا، وقد تكون أيام حب وهوى، فيتغزل بحبيبته ويذكر أيامه وإياها، ثم يصف وداعها حين سارت الظعائن ويعدت الحمول، فيتابعها ببصره، فإذا غابت في لجج السراب تابعها بذهنه وخياله، فيذكر المواضع التي مرت بها أو حلت فيها، ثم يصحو من هذه الذكريات فيركب ناقته ويعاود رحلته في هذه البادية المقفرة الموحشة التي ليس فيها ما يؤنس وحدته ويطرد عنه الوحشة غير ناقة جسرة عيرانة، فيأخذ في وصفها والثناء عليها، ويذكر صفاتها من الصبر والقوة والجرأة والسرعة، ويقرب هذه الصفات بتشبيهها بحيوانات الصحراء، فيتوهم لهذه الحيوانات قصصاً طريفاً يجد فيه تعبيراً عن خوالج صدره وتنفيساً عن همومه، فيقص ويصف ما تقع عليه عينه أو ما يحيط به خياله، وهو بذلك يرضى نزعتين من نوازع نفسه، يخفف همومه ويطرد مخاوف الوحدة من ناحية، ويرضى نزعته الفنية بتعبير قصيدة او جزء من قصيدة من ناحية ثانية.

وهذه الرحلة فيها مصاعب ومتاعب يحرص على تسجيلها، فيذكر صبره وحسن بلائه وبعد همته وقوة عزيمته، ويدعوه هذا الى الفخر بنفسه وذكر أمجاده وخصاله، ثم يدعوه واجبه القبلى ان يذكر قومه ويشيد بفعالهم ويتغنى بأمجادهم، وهو في اثناء ذلك يتأمل في الحياة ومصير الماضين، فيسوق الحكم والامثال والمواعظ.

وهكذا نجد الصلة وثيقة بين موضوعات القصيدة الواحدة، فكل جزء فيها يذكر بجزء بعده ويستجيب لجزء قبله، فإذا المعاني موصولة يأخذ بعضها برقاب بعض، لأن الافكار متداعية، هذا إذا أحسن الشاعر التخلص والربط بين الموضوعات ولائم بين الاجزاء، ولم يكن في القصيدة قطع او بتر او خلل واضطراب، والشاعر الجيد هو الذي يحسن وصل فكرة بأخرى بحيث تبدو امتداداً لها.

لغة الشاعر الجاهلي:

لكل كلمة جرس نغمي تؤديها الحروف المنطوقة، ولاشك ان بعض القبائل كانت تختلف عن الاخرى في طريقة أداء اللفظ ونبر الكلمة من حيث نطق الحروف، كالشدة، والتفخيم، والامالة، والاخفاء، والاظهار، والسرعة والتأني، وغير ذلك. وهذا -لا شك- لا يؤثر على المعنى، لأن طريقة الاداء لا تغير من معنى الكلمة، كما أن هذه الحالة لا تنقل في الشعر، إذ ان كل راو يروي الشعر بنطقه هو فلا يترتب على ذلك خلل في الوزن او تغيير في المعنى، ولذلك فاللهجات التي يتحدث عنها اللغويون بين القبائل وبخاصة بين عرب الشمال وعرب الجنوب لا تظهر في الشعر ولا تنقل في الرواية.

وهناك خلاف يظهر في النطق وفي رسم الكلمة، كالقلب الذي يحصل بين الهاء والهمزة فعرب الشمال يقلبون الهاء همزة في مثل: هراق وأراق، وهيا وأيا. وخلاف آخر في معنى الكلمات المستعملة بين الشماليين والجنوبيين في مثل كلمة (بعل) التي تعني صاحب عند الجنوبيين، وزوج عند الشماليين، وكلمة (وقه) التي تعني أجاب عند الجنوبيين وأطاع عند الشماليين، والملاحظ ان هناك علاقة قريبة بين المعنيين.

ويرى علماء الساميات أن هذه اللغات كانت متقاربة في أول أمرها، وكان العرب يفهمون اللغات السامية المجاورة ويتفاهمون مع أهلها، وإذا كان الامر كذلك فمن الطبيعي ان يفهم العرب اللهجات التي كانت سائدة في الجزيرة قبل أن يوحدها القرآن الكريم وخاصة بين القبائل العدنانية والقبائل القحطانية، ويعلل جرجي زيدان نشاط العرب التجاري ونجاحهم فيه بمعرفتهم بلهجات القبائل ولغات الامم المجاورة، يقول: "وقد ساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة فضلاً عن توسط بلادهم، أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة في ذلك الحين، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً

ومعنى، فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفنيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات من التشعب، بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى، فكان العربي من حمير او مضر إذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني او البابلي او الاشوري الى ترجمان، وكذلك ذا يمم فينيقية او الحبشة فإنه يفهم لسان أهليها كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم، ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن ابراهيم الخليل، فإنه تزوج من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد، فاجتاز سوريا وفينقية وبلاد العرب وخالط اهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم" (1)

وتعود تسأل، أين الخلاف بين اللهجات في الشعر الجاهلي؟ ان اقدم ما وصلنا من الشعر الجاهلي لا يتجاوز القرنين قبل الاسلام، وكانت لغة الشمال قد استأثرت بالالسن، واصبحت اللغة الأدبية التي ينظم بها الشعر وتلقى بها الخطب، وكان ذلك بفضل الاسواق التي تقام في الحجاز، ثم مكانة مكة الدينية والاقتصادية، يضاف الى ذلك ان لغة اليمن كانت قد بدأت بالتنحي وصارت تبتعد عن لغة النقوش الحميرية القديمة، وعلى هذا فلغة امرئ القيس واضرابه من اليمنيين كانت غير لغة اليمن التي حفظتها النقوش قبل امرئ القيس بمئات السنين، وكان من اسباب ذلك ايضاً، مجاورة العربية الشمالية لليمنية القديمة، والاحتكاك الذي يحصل بين اللهجتين وغلبة اللهجة الارقى أدباً والاغزر مفردات والايسر أداء، فكان ان سادت لغة الشمال في اواخر العصر الجاهلي لنفوذ أهلها التجاري والسياسي والثقافي والديني، ويبدو أن كل الظروف كانت ملائمة لغلبة لغة الشمال على لغة الجنوب.

وقد حفظ الشعر الجاهلي جانباً من اللهجات التي نقلها الرواة عن الاعراب، ولم يكن علماء اللغة ليصرفوا هممهم الى العناية باللهجات

---

(1) تاريخ التمدن الإسلامي 10/1.

واختلافها الا فيما يحتاجون اليه للشاهد والتدليل على قاعدة او معنى، وهذا جانب قليل نادر، من ذلك أبيات خناقر الحميري التي رواها ابو علي القالي، وفيها الفاظ يمنية يختلف مدلولها عن الالفاظ الشمالية، قال:

ألم تــــر أن الله عــــاد بفضــــله
فأنقــذ مــن لفــح الــزخيخ خنــافرا

وكشـف لي عـن جحمتَّي عماهمـا
وأوضـح لـي نهجـي وقـد كـان داثـرا

دعــاني شمصــار للـتي لـو رفضـتها
لأصليت جمراً من لظى الهوب واهـرا

وقال: الزخيخ معناها النار، وفسر الجحمتين بالعينين، والهوب بالنار، والواهر بالساكن من شدة الحر، وهذه كلمات يمنية[1].

وتستعمل طئ (ذو) اسماً موصولاً عاماً، ويستشهدون لذلك بقول سنان الفحل الطائي[2]:

فــإن المــاء مــاءُ أبــي وجــدي
وبئــري ذو حفــرت وذو طويــت

ويستعمل أهل الجنوب (أم) أداة للتعريف مكان (أل)، يقول بجير ابن عنمة الطائي:

وأن مــــــولاي ذو يعيرنــــــي
لا احنــــة عنــــده ولا جرمــــه

ينصــرني منــك غــير معتــذر
يرمــي ورائــي بامســهم وامسـلمه

يريد بالسهم والسلمة[3].

---

(1) الامالي 133/1.

(2) شرح الحماسة –المرزوقي 591/2.

(3) المؤتلف والمختلف ص75.

ويستعمل هذيل (متى) بمعنى (من) وتجر بها من ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي[1]:

شـربن بمـاء البحـر ثـم ترفعـت

متـى لجـج خضـر لهـن نئـيج

وقد يستبدلون حرفاً مكان حرف كقولهم (أنطى) بمعنى (أعطى) قال الأعشى[2]:

جيـادك في الصـيف في نعمـة

تصـان الجـلال وتنطـي الشـعيرا

او تستبدل السين تاء كما في قوله:

يـا قـبَّح الله بـني السـعلاة

عمـرو بـن يربـوع شـرار النـات

ليسـوا اعفّـاء ولا أكيـات

يريد: شرار الناس، ولا أكياس[3]

وقد يغيرون بعض الكلمات المجرورة ياء، كقول النمر بن تولب يصف عقاباً:

لهـا أسـارير مـن لحـم تتمـره

مـن الثعـالي ووخـز مـن أرانيهـا

يريد بالثعالي: الثعالب، والاراني: الارانب[4].

وأذا احصينا هذه الشواهد التي تنم عن اختلاف اللهجات نجدها قليلة معدودة.

أما صورة الشعر الجاهلي الذي قاله الجنوبيون والشماليون، فقد

---

(1) ديوان الهذليين 52/1.

(2) الأمالي 67/2 وانظر ديوانه ص71.

(3) الأمالي 67/2.

(4) تاريخ آداب العرب- الرافعي 55/1.

جاء بلغة سليمة موحدة فيها قوة وجزالة ، عبارته متينة وألفاظه رصينة ، والشعر الجاهلي بعامة يبدو -لأول وهلة- صعباً غريباً مغرقاً في البداوة ، وخاصة في الموضوعات التي يتعرض فيها لوصف الصحراء او حيواناتها ، وليس مرد هذه الصعوبة الى المعاني والاخيلة ، بل مرجعها الى اللغة التي يكثر فيها الغريب وتشيع فيها ألفاظ البادية وأسماء مواضعها وصفات حيواناتها. ولا ننسى أن اكثرية الشعراء الجاهليين كانوا من البادية ، وحتى الذين سكنوا الحاضرة كانت حياتهم أقرب الى البداوة ، أو هم على صلة دائمة بالبادية ، فهم يصوغون شعرهم في لغة بدوية ويصفون بيئات صحراوية وفي هذه البيئات يكثر الغريب والوحشي والنادر. على أن اللغة — لغة الشعر الجاهلي ، كلما تأخر زمنها زادت صقلا واتقاناً ، ورسخت على أسس سليمة ونزر فيها الشاذ والمختلط.

ومن المعلوم ان هناك صلة وثيقة بين الموضوع الذي يتناوله الشاعر وبين اللغة ، فموضوعات الوصف التي تتحدث عن بيئات البادية ومشاهدها ، يكثر فيها الوحشي والغريب ، ويعبر الشاعر عن مناظر الصحراء بأسلوب قوي متين يختار الالفاظ الجزلة التي تقوم بتأدية المعاني الشديدة التي تمثلها قسوة الصحراء وخشونة عيشها ، وبخاصة في موضوعات الحماسة والفخر والوصف ، أما في الموضوعات العاطفية ، فالشاعر يرق ويتخير الفاظاً عذبة هادئة سلسلة سهلة ، تعبر عن الحب والحنان والعطف والرقة.

الفصل الثالث

فنون الشعر الجاهلي

الغزل

أهم الفنون وأبرز الموضوعات وأعلقها بالقلب وأقربها الى طبيعة الانسان هو فن الغزل، وقد لقى الغزل عناية كبيرة من الشعراء، سجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم، تناولوا المرأة فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها، وما يفعل فيهم من الشوق والحنين، ولم يحفل العرب بشيء احتفالهم بالغزل، سواء أكان صادراً عن القلب تفرد له القصائد وتحبر له الاشعار أم كان تقليداً مستحباً تفتتح به المطولات ويستراح إليه بعد رحلة الشعر، فيوصل به الحديث ويعقد عليه الحوار.

وترد –في هذا المجال– كلمتان مع الغزل، هما النسيب والتشبيب، وكلها مستعملة في الموضوع نفسه، فهل لكل منهما مدلول معين، أو انها استعمالات لمدلول واحد؟

ان بعض كتب اللغة تجعل هذه الكلمات بمعنى واحد، يقول ابن سيدة: "إن الغزل تحديث الفتيان الجواري، والتغزل تكلف ذلك، والنسيب التغزل بهن في الشعر، والتشبيب مثله"[1]، وفي اللسان: "والغزل حديث الفتيان الفتيات، واللهو مع ... نازلتهن: محادثتهن ومراودتهن والتغزل: التكلف لذلك، وفي ا... زل من امرئ القيس"[2]. ويقول في النسيب: "نسب بالنساء ينسب نسباً ونسيباً ومنسبة: شَبَّبَ بهن في الشعر وتغزل"[3]. أما في التشبيب فيقول: "شب بالمرأة: قال فيها الغزل والنسيب،

---

(1) المخصص 45/4 - 55.

(2) اللسان: (غزل).

(3) اللسان: (نسب).

وهو يشبب بها أي ينسب بها"[1] وكذلك يذهب صاحب تاج العروس ويذكر أن هناك من يفرق بين هذه الكلمات[2].

وحاول بعض القدامى أن يعطى كل كلمة مدلولاً مختلفاً، فقال المريري: النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والاخبار عن تصرف هواها به، وليس هو الغزل، وإنما الغزل: الاشهار بمودات النساء والصبوة إليهنّ، والتسيب: ذكر ذلك والخير عنه[3]. أما قدامة بن جعفر فهو على طريقة أهل المتطق يحب التحديد والتقنين يقول: "إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفرق بين النسيب والغزل، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي اذا اعتقده الإنسان في الصبوة الى النساء نسب بهم من اجله فكأنّ النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه، والغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء"[4] فمنده أن الغزل معنى وأن النسيب التعبير عن هذا المعنى أي عن الغزل. والذي نخرج به من آراء اللغويين، أن النسيب هو بمعنى التشبيب وأن الغزل هو التحدث الى النساء.

وترد الكلمات الثلاث في كتب الادب والنقد مترادفة، يقول ابن رشيق: "والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد، وأما الغزل فهو الف النساء والتخلق بما يوافقهن"[5] وقد استعمل كثير من الكتاب والنقاد القدامى الكلمات الثلاث بمعنى واحد ولم يفرقوا بينها تفرقة دقيقة[6].

---

(1) اللسان: (شبب).

(2) التاج : (شبب، نسب، غزل).

(3) شرح ديوان الحماسة 112/3.

(4) نقد الشعر ص65 ط بريل ص123 ط مصر.

(5) العمدة 117/2.

(6) ينظر تفصيل ذلك في الغزل في العصر الجاهلي ص6- 10.

ومهما يكن من شيء فلا فائدة ترجى من التفريق بين الكلمات الثلاث، والأولى اعتبارها من المترادف، وأخف الكلمات وأكثرها شيوعاً واستعمالاً هي الغزل فعليها المعول:

والغزل لغة العاطفة، صوروا فيه أشواقهم واحساساتهم نحو المرأة وما يلقون منها من وصال او هجر، من وعد واخلاف ودل وغنج، صوروا فيه سعادتهم وشقاءهم آمالهم وآلامهم، واستطاع الشعراء أن يرضوا نزعاتهم الفنية بتحبير القصائد الرائعة التي تصور حبهم وتسجل وقائع هواهم. ولذلك كان الغز الفن الكبير الذي اعتنوا به وصرفوا اليه اكثر شعرهم، فشاع بينهم ودارت عليه قصائدهم، خصصوا له قصار القصائد وطوالها وشارك الموضوعات الباقية.

وكان من شغفهم بالغزل أن جعلوه أول موضوع يبتدئون به القصائد الطوال، سواء أكانوا يذكرون الغزل مباشرة، أم يذكرون الديار -ديار الحبيبة- لتنقلهم الى ذكرها والتغزل بها وسرد ذكرياتهم واياها. وقد لاحظ القدامى هذه الظاهرة فقال ابن قتيبة: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الفريق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها" (1)

ثم يذكر ابن قتيبة أن غرض الشاعر من ذلك أن يميل اليه القلوب والاسماع لأن الغزل أقرب الفنون الى النفوس وأعلقها بالافئدة: "لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال او حرام" (2)

وابن قتيبة يجعل الغزل سبباً في استمالية نفوس الناس واصغائهم،

---

(1) الشعر والشعراء ص74.

(2) المصدر السابق ص75.

وهذا جانب منه، وهناك جوانب أخرى تتعلق بعاطفة الحب وبالصنعة الفنية، وأريد بالصنعة الفنية: أن الشاعر يشحذ قريحته بذكر الغزل ويستنزل معانيه بأن يعيش في جو عاطفي يهيء نفسه ويستثير انفعالاته، روى ابن رشيق: "أن ذا الرمة سئل: كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: وكيف ينقفل الشعر دوني وعندي مفاتيحه، قيل له: وعنه سألناك ما هو؟ قال: الخلوة بذكر الاحباب، ويعلق ابن رشيق بقوله: "فهذا لانه عاشق ولعمري أنه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب" (1)

والمرأة هي موضوع الغزل، وقد تناول الشاعر جمالها، وأول ما لفت نظره جمال وجهها وجمال أعضائها، ووصف الجمال الجسدي هو الامر العام الطاغي على الغزل، أما وصف المحاسن الخلقية والنفسية وتصوير عواطف المرأة وحكاية الحب بين الرجل والمرأة، فيأتي كل ذلك بالمرتبة المتأخرة من وصف الاعضاء، ان الشاعر يقف أولاً عند الصورة الخارجية للمرأة، الصورة التي تحرك فيه عواطف الجنس وعواطف الحب والجمال.

لقد تعارف الجاهليون –ومن جاء بعدهم– على مقاييس في الجمال أحبوها في المرأة وصورها أكثر من شاعر، وأجملها –ممن أجملها– امرؤ القيس في معلقته، فهو يقص حكايته معها بعد أن فأجأها وهي تنضو ثيابها للنوم، ثم خرج بها الى منعقد الرمل في بطن خبت، وصار يغازلها ويصف مفاتنها بقوله (2):

إذا قلت هاتي نوليني تمايلت
علي هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة
ترائبها مصقولة كالسجنجل

---

(1) العمدة 206/1.

(2) ديوان امرئ القيس ص15- 18.

كبكر مقاناة البياض بصفرة

غذاها نمير الماء غير المحلل

تَصُدُّ وتبدي عن أسيل وتتقي

بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش

إذا هي نصته ولا بمعطل

وفرع يغشى المتن أسودَ فاحمٍ

أثيث كقنو النخلة المتعثكلِ

غدائره مستشزرات الى العُلا

تضل المدارى في مثنى ومرسل

وكشح لطيف كالجديل مخَصَّرٍ

وساق كأنبوب السَّقِيِّ المذلل

وتعطو برخص غير شَثْنٍ كأنه

منارة مُمْسَى راهب متبتل

وتضحى فتيتَ المسْك فوق فراشها

نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

الى مثلها يرنو الحليم صبابة

إذا ما اسبكرت بين درعٍ ومِجْوَلِ

لقد وصف امرؤ القيس كل ما شاهد من حبيبته أو لمس، فهي لطيفة الكشح مملوءة الساقين ضامرة البطن، بيضاء صافية اللون، صدرها صقيل متلألئ كالمرآة الصافية، أسيلة الخدين، واسعة العينين، طويلة العنق قد زينته بالحلى، شعرها طويل مسترسل على ظهرها أسود فاحم مجعد، قد عقصت جدائل منه فوق رأسها، فهو كثير منه المعقوص ومنه المرسل، وخصرها لطيف وساقها رائق صاف كأنبوب البردى، وهي مترفة مخدومة تنام الضحى طيبة الرائحة، وترفها هذا جعلها ناعمة

الاصابع رقيقة البنان، أما وجهها فصبيح وضاء يغلب نوره ظلام الليل، وهي طويلة القد مديدة القامة لم تدرك الحلم وان جاوزت سن الجواري الصغار.

وعلى الرغم من جرأة امرئ القيس وما عرف عنه من الاوصاف الحسية في تصوير جسم المرأة والمجاهرة بالخلوات المريبة، فإن عمرو بن كلثوم كان اكثر تكشفاً وصراحة حين وصف حبيبته وقد كشفت عن مفاتن جسمها، فهو يصورها وقد تعرت على خلاء وأمنت عيون الناس، ويصف أعضاءها وصف من قد رأى[1]:

تُريــك إذا دخلــت علــى خَــلاءٍ
وقــد أمِنَــتْ عيــونَ الكاشــحينا

ذراعَــيْ عَيْطَــلٍ أدمــاءَ بِكْــرٍ
هِجــانِ اللــون لم تقــرأ جنينــاً

وثــدياً مِثْــلَ حُــقِّ العــاج رَخْصــاً
حصــاناً مــن أكــفِّ اللامســينا

ومــتني لدنــةٍ سمقــتْ وطالــتْ
روادفُهــا تنــوء بمــا وليْنــا

ومأكمــةً يضــيق البــاب عنهــا
وكشــحاً قــد جُنِنْــتُ بــه جنونــاً

وســـــاريتي بلَـــنطٍ أو رُخَـــامٍ
يَــرِنُّ خشــاشُ حَلْيِهمــا رنينــا

فقد رأى الشاعر منها ذراعين ممتلئتين كذراعي ناقة بكر، طويلة العنق سمينة بيضاء لم تحمل ولم تلد، وثدياً مثل حق العاج أبيض مستديراً مصوناً لم يمسه أحد، ومتنى قامة طويلة لينة، وأردافا مكتنزة ثقيلة، ووركا عظيما ممتلئاً، وكشحاً جميلاً جن من حسنه، وساقين كاسطوانتين من عاج او رخام أبيض فيهما الخلاخيل لها خشخشة ورنين.

---

(1) شرح المعلقات السبع –الزوزني ص120- 121.

وهذا الوصف الدقيق لأعضاء المرأة يتداوله كثرة الشعراء الجاهليين، لم يخرجوا على هذه المقاييس في وصف المحاسن، وأن اختلفوا في كيفية عرض الصورة المحسوسة من الجسم، وقد تكررت هذه الاوصاف عند النابغة والاعشى والمرقش الاكبر وغيرهم.

والملاحظ ان الشاعر الجاهلي صريح في أوصافه وحديثه عن المرأة، وفي عرضه لمفاتنها الجسمية، بل يفتن في وصف الاعضاء المستورة كالنحر والثدي والروادف والساقين والبطن والكشح وغيرها، ولا يجدون في ذلك حرجا، ولعل لطبيعة حياتهم البسيطة الصريحة الواضحة التي لا تعرف المواربة والتغطية والحياء الكاذب المصنوع، لعل لكل ذلك أثراً في هذا الاقبال على الغزل الحسي الصريح فالشاعر -والسامع- يجد في عرض هذه المفاتن لذة ومتنفساً لعواطفه وغرائزه.

وحقاً كان الاهتمام منصرفاً الى المحاسن الجسمية وهو الطابع العام الشائع في الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة، إلا أنهم لم ينسوا الجوانب الخلقية والنفسية، فقد ذكروا المرأة بالحياء والعفة والتمنع، وإن لم يطيلوا في ذلك، ووردت هذه الصفات ضمن الاوصاف الجسدية، من ذلك ان الاعشى يصف صاحبته هريرة ذاكراً وجهها وفمها ومشيتها وحلاها وطيب نشرها ويشبه ذلك بطيب الزنبق ويقارن بين رائحتها الطيبة ورائحة الروض الذي جاده الغيث، ويذكر ضمن كل ذلك أخلاقها: فهي حبيبة الى الجيران كما هي حبيبة الى نفسه، وهي عفيفة كتوم للسر لا تفضح اسرار جيرانها ولا تلوك سيرتهم[1]:

ليست كمن يكره الجيران طلعتها

ولا تراها لسر الجار تختتلُ

والاعشى وإن لم يقف عند المحاسن الجسدية بل فصل في نشرها اللذيذ، فإنه لم يقف أيضاً عند محاسنها الخلقية وقفة متأنية، وأحسن من وقف عند صفات حبيبته ووصف عفتها وأخلاقها وحياءها، الشنفري

---

(1) ديوان الاعشى ص42.

الأزدي في قصيدته التي أولها[1]:

الا أمُّ عمــرو أجمعــت فاســتقلت
وما ودعـــت جيرانهــا إذ تولَّــت

يقول:

لقــد أعجبــتني لا ســقوطاً قناعُهــا
إذا مــا مشــت ولا بـــذات تلفــت

تبيــت بُعَيْــدَ النــوم تُهــدي غبوقَهــا
لجارتهـــا إذا الهديـــةَ قلَّـــت

تَحُــلُّ بمنجــاةٍ مــن اللــوم بيتَهــا
إذا مـــا بيـــوتٌ بالمذمَّـــةِ حُلَّـــت

كــأن لهــا في الأرض نِسْــياً تقصُّــهُ
علــى أمِّهــا وإن تكلِّمْــك تَبْلَــت

أميمـــةَ لا يُخــزِي نَثاهــا حليلَهــا
إذا ذُكِــرَ النِّســوانُ عفَّــتْ وجَلَّــت

إذا هــو أمســـى آبَ قــرَّةَ عينــهِ
مــآبَ السـعيدِ لم يَسَـلْ أيـن ظَلَّـت

فَدقَّت وجلَّتْ واسبكرَّتْ وأكملتْ
فلـو جُـنَّ انسـانٌ مـن الحسْنِ جُنَّـت

فهــي حبيبــة خجــول ذات جمــال وأدب، كريمــة تهــدي لجيرانهــا وتبرهم وتحفظ مودتهم، وهــي شريفة عزيزة عفيفة بعيدة عن الريب، إذا سارت لا تتلفت بل تنظر أمامها كأنها تبحث عن شيء ضيعته فهي تقصده، وهي الى عفة نفسها عفيفة اللسان طيبة السمعة، إذا ذكرها الناس حمدوها، وهي زوجة صالحة تسر زوجها وتحسن معاشرته، ولذلك فزوجها يعود اليها تائقاً مشتاقاً، يلقاها قرير العين لم تبرح بيتها في غيابه،

---

(1) المفضليات ص108- 109.

وهي الى كل ذلك جميلة تكاد تجن من حسنها لو جن أحد من الحسن قبلها.

وهناك طائفة أخرى من الشعراء لم تصرف همها الى وصف محاسن المرأة وأعضائها، ولم تتغن بفضائلها وأخلاقها، ولكن راحت تصور ما يلقاه العاشق المحب من شوق ووجد وهيام، وما يعانيه من ألم الفراق ولوعة البعاد، وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم، يتغنى بخيالها ويمني النفس بزورة من طيفها، وهو سهر متامل في طول الليل وثبات النجوم، أرق مضطرب لما يلقاه عن حب عنيف يكاد يخبل العقل، وتقف قصيدة سويد بن أبي كاهل في طليعة هذا الضرب من الغزل الذي يصور ما يعانيه الشاعر من وجد واشتياق[1]:

بسطت رابعة الحبلَ لنا
فوصلنا الحبل منها ما اتَّسَعْ

هيج الشوق خيال زائر
من حبيب خفر فيه قدَعْ

شاحط جاز الى أرحلنا
عُصَبُ الغاب طروقا لم يُرَعْ

آنس كان اذا ما اعتادني
حال دون النوم مني فامتنع

وكذاك الحبُّ ما أشجعَهُ
يركب الهول ويعصي من وَزَعْ

فأبيت الليل ما أرقدهُ
وبعينيَّ إذا نجم طلع

وإذا ما قلت ليل قد مضى
عطفَ الاولُ منه فرجعْ

يسحب الليلُ نجوما ظُلَّعاً
فتواليها بطيئاتُ التَّبَعْ

ويزجّيها على إبطائها
مُغْرَبُ اللونَ إذا اللوْن انقشعْ

---

(1) المفضليات ص191- 192.

فـدعاني حُسْـنُ سَـلْمَى بعـدما
ذهــب الجـدَّة منـى والرَّيَـعْ

خبلــتني ثــم لمــا تَشْـفني
فـفؤادي كـلَّ أوْبٍ مـا اجتمـعْ

ودعـــــتني برقاهـــــا إنهـــــا
تُـنزل الأعصـم مـن رأس اليَفـعْ

تُسمِـعُ الحـدَّاثَ قـولاً حَسَـناً
لـــو أرادوا غيَـــرهُ لم يُسْـــتَمَعْ

وتعـد هـذه القصـيدة مـن عيـون الشـعر العربـي في الغـزل وتصـوير العواطف والصدق في المشاعر والاحساسات.

وراح فريق آخر من الشعراء يصورون قصص الحب وما يتساقاه الاحبة من كؤوس الحب والوصال وما يسقاه المحب من كؤوس الصد والهجر، كل ذلك في شعر صادق أصيل فيه عفة ونبل، تصونه المثل العليا وتحوطه القيم الجاهلية في المروءة والشرف، ولدينا من قصص الحب الشيء الكثير، ومن أبرز تلك القصص: قصة المرقش الأكبر مع بنت عمه أسماء بنت عوف[1]، والمرقش الاصغر مع حبيبته فاطمة بنت المنذر[2]، وقصة عبد الله بن علقمة العامري مع حبيبته حبيش[3]، وقصة عبد الله بن العجلان النهدي مع هند[4]، غير هؤلاء من تفيض بأخبارهم كتب الأدب وأخبار العشاق والمحبين.

---

(1) الشعر والشعراء 210/1 والاغاني 127/6.
(2) الشعر والشعراء 214/1 والاغاني 136/6.
(3) الاغاني 280/7.
(4) الاغاني 102/19 وتزيين الاسواق ص80.

الحماسة

الحماسة لغة: القوة والشدة والشجاعة[1]، وقوم حمس متشددون في الدين، وحمس غيره شجعه وحرضه، والحماسة فن الحرب والقتال والشجاعة والتغني بصفات البطولة والرجولة وركوب المخاطر وخوض غمرات القتال، ووصف ما في الحرب من كَرٍ وفَرّ وعدد وسلاح ودماء وجرحى وقتلى، ودعوة للحرب وأخذ بالثأر وما الى ذلك، فهو بجملته فن البطولة.

وما دام هذا الضرب من الشعر يصور البطولة والمثل العليا للفروسية التي تقوم عليها حياة الصحراء كان لابد لهذا الشعر ان يكون -مع الغزل- في طليعة الفنون انتشاراً، وأقربها الى نفس البدوي خاصة والعربي عامة. ولذلك فليس غريباً أن يكون حظ المجاميع الشعرية من الحماسة هو الحظ الاوفر فكثير من شعر المفضليات والأصمعيات والوحشيات هو شعر حماسة، بل غلبت على مختارات ابي تمام والبحتري فكانت الفن الأول الذي ابتدأ به، وغلب اسمها على الكتابين[2] فسمى أبو تمام (ت 231 هـ) مختاراته (ديوان الحماسة) وكذلك فعل البحتري (284هـ)[3]

---

(1) والاحمس: الشجاع والشديد الصلب في الدين والقتال، وسميت قريش وكنانة حمساً لتشددهم في دينهم في الجاهلية. الصحاح واللسان (حمس).

(2) كان ابو تمام قد جمع في حماسته كل معاني البطولة والفروسية من وصف الحرب وما ينجم عنها وما يتفرع عنها من صفات خلقية كالنخوة والصبر على المصيبة والتجلد في المحن. أما البحتري فقد فصل في ذكر جزئيات من الحماسة، فأبيات فيما قيل في الفتك وأخرى في مكاشفة الاعداء وترك التستر منهم وثالثة في حمل النفس على المكروه او فيما قيل في التحريض على القتل بالثار وهكذا فقد جزأ في أفكار الحماسة وموضوعاتها، ولذلك جاءت حماسته في أربعة وسبعين ومائة باب، بينما جعل ابو تمام حماسته في عشرة أبواب.

(3) وتابعهما ابن الشجري (542هـ) فسمى كتابه حماسة ابن الشجري (طبع في الهند 1345 ه وطبع في دمشق 1970 باسم: الحماسة الشجرية) وصدر الدين بن أبي الفرج البصري (659هـ) سمى كتابه: الحماسة البصرية (طبع في الهند).. وذكرت المصادر بعض

وشعر الحماسة - الى كثرته- من اصدق الاشعار وأقواها وأشدها أثراً في النفوس ذلك لأن الشعراء كانوا أنفسهم فرساناً يخوضون غمرات القتال فيعبرون عن واقع مشهود وتجارب نفسية صادقة، وأن لم يكن بعضها يخلو من المبالغة ومجاوزة المواقع.

والمعركة هي الميدان الفسيح الذي يستمد الشاعر منه معانيه الحربية، فيعرض في شعره صوراً من أهوال القتال وما يكون فيه من كر وفر وجرحى وقتلى وصياح وقتام، وما يلتمع فيه من مغافر وتروس ودروع وسيوف، وتكاد تسمع أصوات الرماح تتكسر على التروس، والسهام وهم يتراشقون بها فتستقر في الصدرو والافئدة، وهذا الحصين بن الحمام المري يعرض جانباً من معركة خاضها وأبلى فيها وقومه عظيم البلاء، يقول(1):

ولما رأيت الودَّ ليس بنافعي
وإن كان يوما ذا كواكب مظلما

صبرنا وكان الصبر فينا سجية
بأسيافنا يقطعن كفا ومِعْصَما

يُفَلّقنَ هاماً من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

وجوهُ عدُوٍ والصدورُ حديثةٌ
بودّ فأودى كلُّ ودّ فأنعما

فليت أبا شبل رأى كرَّ خيلنا
وخيلهمُ بين السّتار فأظلما

الكتب اتي سميت بالحماسة مما يصلنا او وصل ولم يطبع بعد، فمن ذلك: الحماسة لابن المرزبان محمد بن خلف (309هـ) والحماسة المحدثة لابن فارس (379هـ) والحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري (395هـ) وحماسة الاعلم الشنتمري (476هـ) وحماسة الشاطبي محمد بن يحيى (547هـ) والحماسة للشميم الحلي (601هـ) والحماسه المغربية ليوسف بن محمد العيد لحكاني وغيرها. انظر مقدمة الحماسة البصرية ص3- 16.

(1) المفضليات ص65.

نطـاردُهم نسـتنقذ الجـرْدَ كالقنـا

ويسـتنقذون السَّـمْهَريَّ المقوَّمـا

عشـيَّةَ لا تُغْـني الرمـاحُ مكانَهـا

ولا النبـلُ الا المشْـرفيُّ المصَمِّما

لـدنْ غـدوة حتـى أتـى الليـلُ ما تـرى

مـن الخيـل الا خارجيًـا مُسَـوَّمَـا

وتهب الشعراء يباهون ببطولتهم ومضاء أسلحتهم ويتغنون بالمثل العليا التي جعلتهم فرساناً لا يهابون الموت، فهم شجعان أبداً يقذفون أنفسهم في المخاطر ويخوضوون غمرات المنية ويأبون الذل ويأنفون من الصغار والجبن والهزيمة، والنصر حليفهم في المعارك ولذة النصر ونشوته جعلهم يكثرون من ذكر المعارك التي أوقعوا فيها بأعدائهم وما كسبوا من مغانم، أهمها سبي نساء أعدائهم.

وأقسى ما تلقاه القبيلة أن تُسْبَى نساؤها، ولذلك لا يسكت على السبي او يترك نساءه بيد عدوه الا الضعيف الجبان، فهم يفخرون حين يسبون نساء أعدائهم ويفخرون أيضاً حين يستردون نساءهم اللاتي سباها الاعداء، ولذلك يعاظم طفيل الغنوي بقوله[1]:

فنحن منعنا يوم حَرْسٍ نساءكم

غـداة دعانـا عـامرٌ غـيرَ مـؤتلي

رددنـا السَّـبايا مـن نُفَيْـلٍ وجعفـرٍ

وهـن حبـالي مـن مُخِـفٍّ ومُثْقِـلِ

وما دامت النساء عرضة السبى وهدف العدو المغير، ولذلك كان الحفاظ عليهن غاية المحارب يستميت دونهن ويفديهن بروحه، وقد كان المقاتلون يصطحبون نساءهم في القتال ليزدن في شجاعتهم ويحرضن على القتال ويمنعن الهارب الجبان، يصف عمرو بن معد يكرب الزبيدي نساء قومه عند المعركة وهي خائفات مذعورات وبينهن حبيبته لميس، ظهرت

---

(1) ديوان طفيل الغنوي ص37.

محاسنها فبدت كبدر التمام إذا ظهر، وهو عندئذ لا يرى بدا من منازلة كبش القوم وفارسهم[1]:

لمـــا رأيـــت تسـاءَمنا
يفحصـــن بـــالمعزاء شـَــدّا
وبـــدت لمـــيسُ كأنهـــا
بَـــدْرُ الســـماءِ اذا تبـــدّى
وبـــدت محاســـنُها الـــتي
تخفـــي وكـــان الأمـــرُ جـــدّا
نازلـــتُ كبشَـــهمْ ولم
أرَمـــن نـــزالِ الكـــبش بُـــدّا

وللمرأة في هذه المعارك شعر تحرض فيه المقاتلين على القتال وتحث على طلب الثأر وتعير بالهزيمة وتحذر من قبول ديات القتلى، فهذه كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدي تحرض قومها على الثأر لاخيها عبد الله، وكانت قد تخوفت ان يقبل أخوها عمرو والديه، فصاغت هذه الأبيات على لسان القتيل تعرض بعمرو وتقول لقومها أنكم أن قبلتم الدية وأطعتم عمراً فعمرو جبان فرار وانكم أذل الناس، فليس لكم ان تردوا الماء الا بعد ان يفرغ الناس وتفرغ النساء الطاهرات منهن واللواتي عليهن الحيض[2]:

وأرســل عبــد الله اذحــان يومــه
الى قومــه الا تُخَلــو لهــم دمــي
ولا تأخــذوا مــنهم إفــالا وابكــرا
وأتــرك في بيــت بصــعدة مظلــم
ودع عنــك عَمْــراً ان عَمْــراً مســالمٌ
وهـل بطـن عمـرو غيرشبر لمطعم

---

(1) ديوانه ص68- 69.

(2) الامالي –الذيل والنوادر 191/3- 192.

فـإن أنـتمُ لم تقتلـوا واتّـديتمُ

فمشُّـوا بـآذان النَّعَـام المصَـلَّمِ

ولا تشـربوا الا فضـول نسـائكم

إذا أنهلـت أعقـابهن مـن الـدم

جـدعتم بعبـد الله آنْـفَ قومـه

بني مـازن أن سُبَّ سـاقي المخـزَّمِ

وكان للنساء أثرهن أيضاً في ادامة الحروب واضرام نار القتال، فكلما خبت نار حرب سعرتها بالتحريض على طلب الثأر، وكثير من الحروب التي نَشَبَتْ كان النساء من أسباب قيامها، فحرب البسوس استعرت بسبب لجاجة امرأة وصخبها حول ناقتها البسوس التي لم ترض بها بدلاً، بل ان عويل النساء وبكائهن صباح مساء، هو الذي كان يدفع الرجال للثأر والغارة، على ان الثأر كان متأصلا في نفوسهم، تنخر أحقاده قلوبهم لا يستطيعون السكوت عليه او الصبر على الواترين، وقد حفل شعرهم بالايمان الغليظة والعهود الشديدة التي كانوا يقطعونها على أنفسهم وما يتبع ذلك من حرمان أنفسهم من أطايب الحياة حتى يدركوا بثأرهم، فهذا المهلهل يتعهد لكليب وهو في قبره، أن يحرم على نفسه لذيذ الطعام والخمر ويهجر النساء ويمكث لا يغير ملابسه ولا يخلع درعه او يلقى سيفه حتى يتأثر له ويشفي غليله[1]:

خـذ العهـد الاكيـد عليَّ عمري

بتركـي كـلَّ مـا حـوتِ الـديارُ

وهجـري الغنيـاتِ وشـرب كـأسٍ

ولبســي جبَّـةً لا تُسْـتَعارُ

ولسـتُ بخـالعٍ درعـي وسـيفي

الى أن يخلـعَ الليـلَ النهـارُ

---

(1) اخبار المراقسة واشعارهم ص49 وشعراء النصرانية ص164.

وإلا أن تبيـــدَ سَـــراةُ بَكْـــرٍ
فـــلا تبقـــى لهـــا أبـــداً آثـــارُ

الفخر:

أما الفخر فضرب من الحماسة وهو التغني بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية والصفات القومية، والزهو بالفعال الطيبة، والذ أحاديث المرء عنده هو حديثهُ عن نفسه وخصاله وفعاله، من الشجاعة والكرم والمروءة وحماية الجار وطيب المنبت وعراقة الاصل وكثرة المال والولد الى غير ذلك مما يزهو به الانسان ويختال به على غيره.

ويكره الناس الحديث عن النفس والتباهي بالخصال ويعدونه غروراً وادعاء، الا في الشعر فانه مقبول مستساغ، وقديما اشار الى ذلك ابن رشيق بقوله: "ليس لاحد ن الناس ان يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة، الا أن يكون شاعراً، فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه"[1]. ولعل وذلك ان القارئ للشعر يتعاطف مع الشاعر يشاركه مشاعره حين يتغنى بالمثل العليا، فيكون قد عبر عن خواطر وامنيات القارئ، وإذا كان الفخر يستساغ ويستملح في الشعر فذلك لأن عنصر المبالغة التي تسود الفخر مقبولة في الشعر مرفوضة في غيره.

والفخر انما يحسن اذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفسية والخصال الخلقية بعيداً عن التباهي بالامور المادية والقوة الجسدية او التفاخر بالانساب والاصول والقبائل، وإذا كان هذا الضرب من الفخر مقبولاً في العصر الجاهلي، فإن العصور التالية صارت تستمج ذلك، ولذلك فإن خير الفخر ما كان تغنياً بالفضائل وتمدحاً بالمثل العليا دون مبالغة مفرطة ولا مجاوزة للمألوف، ولذلك استجيد قول حاتم الطائي لأنه تعبير عن واقع مألوف وحقيقة صادقة[2]

---

(1) العمدة 25/1.

(2) ديوان حاتم الطائي ص34.

أمـــا والــذي لا يعلــم الغيــبَ غــيرُه

ويُحْيِــي العظــامَ البِيْضَ وهــي رمــيم

لقد كنت أطوى البطن والزاد يشتهي

مخافــــة يومــــاً أن يقــــال لئــيم

وقد دارت قصائد الفخر على الشجاعة والبأس والنجدة ومنع الجارات واجارة المولى واطعام الفقراء واكرام الضيف وبذل المال وايثار الاخرين.

وأشهر قصيدة عرفت في الفخر هي قصيدة عمرو بن كلثوم التي بلغت أربعة أبيات ومائة وكلها فخر وحماسة، وقد كانت تغلب قبيلة الشاعر تعظم هذه القصيدة وتحتفل لانشادها، حتى هجاهم لذلك أحد الشعراء فقال[1]:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثومِ

يروونها أبداً مذ كان أولهم

يا للرجال لشعر غير مسئومِ

والقصيدة احدى المعلقات السبع التي يبدأها بذكر الخمر متجاوزاً الوقوف على الديار[2]:

ألا هــبي بصــحنك فاصــبحينا

ولا تبقــــي خمــــور الانــــدرينا

وهي شائعة معروفة.

ومن الشعراء من يؤثر قومه في الفخر فينسب اليهم كل فضيلة، ويتحدث عن فضائله من خلال فضائل قومه، ومن جيد الشعر هذا قول

---

(1) الاغاني 54/11.

(2) المعلقات السبع –الزوزني ص118- 135.

عمرو بن الاطنابة[1]:

إنـي مـن القـوم الـذين اذا انتـدوا

بــداوا بحــقِ الله ثـم النائـلِ

المــانعين مــن الخنــا جــاراتهم

والحاشـدين علـى طعـام النــازل

والخــالطين فقيرهــم بغنــيهم

والبــاذلين عطــاءهم للســائل

والضـاربين الكـبش يـبرق بيضُـه

ضربَ المجَهْجِهِ عن حياض الآبل

والقـاتلين لـدى الـوغى أقـرانهم

إن المنيــة مــن وراء الوائــل

خــزرٌ عيــونُهم الى اعــدائهم

يمشون مشـي الأسْـر تحـت الوابل

والقـائِلينَ فـلا يعـاب كلامهـم

يـوم المقامـة بالقضـاء الفاصـل

ليمســوا بأنكــاس ولا ميــلٍ إذا

ما الحربُ شَبَّتْ اشعلوا بالشاعل

فقـد جمـع الشـاعر في قومـه كـل خصـال الخير والشـرف والكـرم والمروءة والحلم والشجاعة وحسن البلاء.

ولا يعـدم الشـعر الجـاهلي بعـض القصـائد الـتي فيهـا غلـو ومجـاوزة حدود المعقول، فقـد أخـذت العصبية عمـرو بـن كلثـوم فجعـل النـاس خـولا لقبيلتـه وعبيـدا لقومـه، وبلـغ بـه الغـرور كـل مبلـغ فكـان يقـول في بعـض معلقته[2]:

وقــد علـم القبائـل مــن معــد

---

(1) شرح الحماسة –المرزوقي 1634/4.

(2) المعلقات السبع ص134- 135.

إذا قَبَبٌ بأبطحها بُنينا

بأنا المطعمون إذا قدرنا

وأنا المهلكون اذا ابتلينا

وانا المانعون لما أردنا

وانا النازلون بحيث شئنا

وانا التاركون اذا سخطنا

وانا الاخذون اذا رضينا

وانا العاصمون اذا أُطِعْنَا

وانا العازمون اذا عُصينا

ونشرب ان وردنا الماء صفواً

ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

ملأنا البَر حتى ضاق عنا

وماءَ البحر تملوه سفينا

إذا بلغ الفطامَ لنا صبي

تخر له الجبَابرُ ساجدينا

وافضل من هذا الصياح المتعالي، فخر من يفتخر بشجاعته وقوته ويقر للاخرين بالفضل والبسالة، وهذا الاقرار اقرب الى روح الفروسية والرجولة، والفارس في المعركة لا يحقق النصر دائماً فالحرب سجال يوم له ويوم عليه، فإذا انتصر افتخر بقوته وشدة بأسه ولا يهجو عندئذ اعداءه المندحرين، بل يذكر صبرهم في الحرب وحسن بلائهم، وإذا اندحر الفارس ونال منه خصمه أقر بقوة عدوه وكثرة رجاله وشدة بأسهم، وانه قد صبر وأبلى ففاته النصر، وهذا الضرب من الشعر الذي لا يحتكر الشجاعة لجانب دون آخر، هو الذي عرف بشعر الانصاف وقصائده المنصفات، وقد ذكرها الجاحظ في جملة قوله: "وقد أدركت رواة المسجدين والمربديين، ومن لم يرو أشعار المجانين[1] ولصوص الأعراب

---

(1) اي العشاق.

ونسيب الاعراب، والارجاز الاعرابية القصار، واشعار اليهود، والاشعار المنصفة، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة"[1]. وفي الخزانة: "وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء وفيما وصفوه من أحوالهم في أمحاض الاخاء قد سموها المنصفات"[2]

وقد شهر من هؤلاء الشعراء مجموعة من أبطال الجاهلية والإسلام منهم: عمرو بن معد يكرب الزبيدي، والعباس بن مرداس السلمى، وعنترة بن شداد العبسي، والمفضل النكري، وعبد الشارق بن عبد العزى، والطفيل الغنوى، وخداش بن زهير العامري، وغيرهم كثير[3].

ومن جياد قصائد الانصاف قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني[4]:

الا حييـــت عنـــا يـــا ردينـــا	نحييهـــا وإن كرمـــت علينـــا
ردينـــة لـــو رأيـــت غـــداة جئنـــا	علـــى أضـــماتنا وقـــد احتوينـــا
فأرســـلنا أبـــا عمـــرو ربيئـــا	فقـــال ألا انعمـــوا بـــالقوم عينـــا
ودســـوا فارســـاً مـــنهم عشـــاء	فلـــم نغـــدر بفارســـهم لـــدينا
فجـــاءوا عارضـــاً بـــرداً وجئنـــا	كمثـل السـيف نركـب وازعينـا
فنـــادوا يـــا لبَهْثَـــةَ إذ رأونـــا	فقلنـــا أحســـني ضـــربا جهينـــا

---

(1) البيان والتبيين 23/4.

(2) خزانة الادب 517/3.

(3) جمع عبد المعين الملوحي شعر الانصاف واصدره بكتاب باسم المنصفات، ط دمشق 1967.

(4) شرح الحماسة –المرزوقي 442/1- 450 والمنصفات ص41- 47.

سمعنا دعوة عن ظهر غيب

فجلنا جولة ثم ارعوينا

فلما أن تواقفنا قليلاً

أنخنا للكلاكل فارتمينا

فلما لم ندع قوساً وسهما

مشينا نحوهم ومشوا الينا

تلألؤ مزنة برقت لأخرى

إذا حجلوا بأسياف ردينا

شددنا شدة فقتلت منهم

ثلاثة فتية وقتلت قينا

وشدوا شدة أخرى فجروا

بأرجل مثلهم ورموا جوينا

وكان أخي جوين ذا حفاظ

وكان القتل للفتيان زينا

فآبوا بالرماح مكسرات

وأبنا بالسيوف قد انحنينا

فباتوا بالصعيد لهم أحاح

ولو خفت لنا الكَلْمَى سرينا

والقصيدة حكاية للمعركة بين الفريقين، فقد أرسلوا أبا عمرو ربيئا يتحسَّس مواضع العدو ويرقب تحركاته، وأرسل العدو فارساً يتعرف أخبار القوم، وقد عرفوه ولكنهم لم يغدروا به، وبدأت المعركة وهجم خصومهم بجمع كثيف كأنه قطعة من السحاب، وقابلوهم بهجوم مثله بجمع غفير انساحوا اليهم كالسيل الذي يحطم ما يلقاه، وتعالى صياح الحرب واشتد وقعها، وتراشقوا بالنبال حتى نفدت فمشى بعضهم الى بعض بالرماح والسيوف، واجتلد القبيلان حتى سقط القتلى أربعة من بهثة وأربعة من جهينة قبيلة الشاعر، منهم أخوه جوين، وكثر الجرحى وتكسرت رماح بهثة، وانحنت سيوف جهينة، فحجز الظلام بين الفريقين.

فترى الشاعر هنا قد وصف المعركة وأقر بقوة الخصم، ولم ينكر عليهم بلاءهم العظيم في هذه الوقعة وما نالوه منهم، فقد قتل كل فريق أربعة من الفريق الآخر، وفي كلا الطرفين جرحى فكلاهما قد نال من صاحبه فلم يكن النصر حليف فريق دون آخر، ولم يشأ الشاعر أن ينحاز لقومه فيهن عدوه أو يستهين بقوته وشدة بأسه، وقد كان من حبة للفروسية وتقديسه لمثلها أنه ذكر أخاه الذي خر صريعاً في المعركة، ولم يبال بذلك، فجعل قتله وقتل كل فتى شرفاً للفتوة والرجولة وأطلقها حكمة مأثورة: "وكان القتل للفتيان زيناً".

وحسبنا بهذه القصيدة مثلاً على بطولة الابطال وإنصاف الخصوم واشاعة روح الفروسية، وقد كانت الحماسة بحق لغة الفروسية والتغني بتقاليدها الأصيلة ومثلها العليا.

الرثاء

الرثاء من الفنون التي جَوَّدَ فيها الشعراء، لأنَّهُ تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه لوعة صادقة وحسرات حرى، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة الى النفس، لأن الرثاء الصادق تعبير مباشر قلما تشوبه الصنعة او التكلف، والحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وغارات يسقط أثرها القتلى، فيبكي الاهل والاصحاب قتلاهم، ويثيرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤججون أحزانهم فيدفعونهم لشحذ سيوفهم استعداداً لجولة جديدة تطفئ نار غيظهم وتشفى أحقادهم بالفوز بثأرهم والظفر برؤوس أعدائهم.

وتلقانا في شعر الرثاء ثلاثة أنواع أو أساليب، فمنه:

1. بكاء ونواح وعويل على الميت بألفاظ حزينة مؤلمة كثيرة الحزن تستمطر الدموع من العيون، وكان النساء يجتمعن في مناحة صاخبة، يصحب ذلك لطم على الوجوه والصدور بالاكف او قطع الجلود او النعال، ويعرف هذا الضرب من الشعر الذي يقال في هذه المناحات بـ (الندب)، وقد برعت النساء في هذا الضرب، وصف الربيع بن زياد احدى هذه المناحات التي أقيمت أثر مقتل مالك بن زهير فقال[1]:

مـن كـان مسروراً بمقتـل مالـك

فليـأتِ سـاحتنا بوجـه نهـار

يجـد النسـاء حواسـرا يندبنـه

يلطمـن أوجههـنَّ بالاسـحار

قـد كُـنَّ يخبـأنَ الوجـوهَ تسـترا

فـاليوم قـد أبـرزن للنظّـارِ

---

(1) شرح الحماسة –المرزوقي 2/995- 996. وكذلك وصف مهلهل بن ربيعة مناحة على مقتل كليب ينظر شعراء النصرانية 1/162 ولبيد بن ربيعة في موت عمه أبي براء – ديوان لبيد ص51 و332.

يضـربن حُـرَّ وجـوههن علـى فتـى

عـفّ الشــمائل طيِّـبِ الاخبــارِ

وقد وصف أبو ذؤيب الهذلي ما تفعله بناته بعد موته من ضرب صدورهن بنعال السبت فقال[1]:

وقـام بنــاتي بالنعــال حواســرا

والصقنَ ضربَ السِّبْتِ تحت القلائد

وجاء الإسـلام فنهى عن كل هـذه الافعال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهليـة"[2]، وقـال: "إن رسـول الله بـرئ مـن الصـالقة والحالقـة والشاقة"[3]، ولـذلك نهى لبيد في الإسلام ابنتيه أن تأتيا أعمال الجاهلية في النواح عليه بعد موته[4]:

فقومـا فقـولا بالـذي قـد علمتمـا

ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

ولم يقتصر الندب على النساء، فقد احترفه بعض الرجال، وعرف منهم في الاسلام الغريض المغني في مكة، فقد كان لصوته الشجي أثر في استثارة النفوس وابكاء الناس، وكان يصاحب هذا الشعر في النواح ضرب بالصنوج ونقر بالدفوف، لزيادة هذا الجو حزناً وأسى وفجيعة.

2. وضرب آخر من الرثاء كان يتخذ شكل الثناء على الميت –أو قد يكون حياً أيضاً– وذكر فضائله وتمداد محامده، ويكون ذلك عند زيارتهم للقبور او اجتماعهم في مجلس يعقد لذكرى الفقيد،

---

(1) ديوان الهذليين 122/1.

(2) صحيح البخاري 322/2.

(3) صحيح البخاري 335/2.

(4) ديوان لبيد ص213.

ويسمى ذلك (التأبين)، وكثيراً ما ينحلون الميت جميع الفضائل والمثل العليا ، من الشجاعة والمروءة والنجدة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم والسماحة والسيادة، وما الى ذلك من خصال الخير، وإذا قرأنا في شعر الخنساء نجدها تبكي في أخيها كل هذه الخصال.

3. وضرب ثالث من الرثاء يتجه الى التفكر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية القدار ونزول البلاء وضعف الانسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمان، فيلتمس في كل ذلك السلوة والصبر والرضا بما نزل به والاستسلام للقدر، ويعرف هذا الضرب بـ (العزاء). وقد عبرت الخنساء عن تعزيها بكثرة من نكبوا بأهلهم وكثرة الباكين حولها إذ تقول[1]:

فلولا كثرة الباكين حولي
على اخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا
ونائحة تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكي أخاها
عشية رزئه او غب أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن
أسلي النفس عنه بالتأسي

وقد برعت النساء في الرثاء، ولعله الفن الوحيد الذي أجادت فيه المرأة، ومَنْ يقرأ الشعر الجاهلي يعجب لكثرة الشواعر اللواتي أنشدن أشعاراً في رثاء القتلى او التحريض على الثأر من القاتلين، ويرتبط شعرهن بالوقائع وأيام العرب.

وقد بلغ من اشتهار المرأة بالرثاء وافتخارها بفضائل قتلاها ومكانتهم ان صارت تفاخر غيرها بعظم مصيبتها كما فعلت الخنساء

---

(1) شرح ديوان الخنساء ص152- 153.

حين فاخرت هند بنت عتبة وعاظمتها بأنها أكثر مصيبة، فقد رزئت بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وقد قالت في ذلك[1]:

أبكــي أبــي عمــراً بعــين غزيــرة

قليــل إذا نــام العيــون هجودهـــا

وصــنوى لا أنســى معاويــة الــذي

لــه مــن ســراة الحــرتين وفودهـــا

وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا غدا

بســاهمة الأطـــال قـــب يقودهــــا

فــذلك يــا هنــد الرزيــة فــاعلمي

ونــيران حــرب حــين شــب وقودهـــا

ففاخرتها هند بأبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد فهي أعظم مصيبة حيث تقول[2]:

أبكــي عميـد الابطحـين كليهمـا

وحاميهمـا مـن كـل بـاغ يريـدها

أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمي

وشـيبة والحـامي الـذمار وليـدها

أولئــك آل المجــد مــن آل غالــب

وفي العز منها حين ينمي عديدها

ولاشك ان المرأة أشد من الرجل حزناً وأرق عاطفة وأكثر جزعاً وأعظم لوعة، وطبيعتهن أقرب الى الرثاء والبكاء واللوعة والاسى، ولكن المرأة- مع كل ذلك- لم تستطع أن تصور في رثائها ما تلاقيه من الآم

---

(1) ديوانها ص58- 59 والاغاني 211/4.

(2) الاغاني 212/4.

مبرحة على فقد ابنها او زوجها او اخيها، فقلما تتحدث عن آلامها النفسية بأصالة وعمق، وآثرت في رثائها البكاء والعويل، وذكر الجوانب العامة من حياة القتيل، وأكثرها يتعلق بالنواحي المادية، فهو الحامي والمعيل والكريم والشجاع وما الى ذلك من فضائل المرثي، ولذلك صار رثاء المرأة أشبه برثاء الرجل، وقلما نجد في رثائها سمات تعبر عن عاطفتها الانثوية، ولعل لسرعة بكاء المرأة وعويلها وجزعها ان جعل لها متنفساً لاحزانها، فإذا أراد التعبير انفجرت همومه وأحزانه، وصار الشعر متنفسه الى الراحة من ثقل الهموم، وتناولت المرأة في رثائها تصوير ضعفها وذلتها، فتتحدث الخنساء عن شيبها قبل اوان مشيبها وعجزها وضعفها وجزعها وذلتها وكثرة دموعها، وهي خير من صورت ما تلقاه في هذا، تقول في رثاء صخر[1]:

تقول نساء شِبْتِ من غير كَبْرَةٍ
وأيسر مما قد لقيت يَشِيبُ
أقول أبا حسان لا العيش طيب
وكيف وقد أُفْرِدتُ منك بطيب
ذكرتك فاستعبرت والصدر كاظم
على غصة منها الفؤاد يذوب
لعمري لقد أوهيت قلبي عن العزا
وطأطأتَ رأسي والفؤاد كئيبُ
لقد قُصِمتْ مني قناةٌ صليبةٌ
ويُقْصَمُ عودُ النَّبعِ وهو صَليبُ

ولكثرة نواح المرأة وبكائها، صار شعرها يدور حول موضوعات واحدة لا يجاوزها، تتصل بوصف الفراغ الذي تركه

---

(1) ديوان الخنساء ص15- 16.

المرثي وتعداد فضائله، فمعانيها تدور في اطار ضيق، ولذلك قلما نجد في شعرها الحكمة والتأمل والنظر الى فلسفة الحياة والمصير، ونظرتها بعامة جزئية فردية، وتكثر في شعر النساء أيضاً عبارات وألفاظ تتكرر وتعاد مثل: (لهفي) و(ويلي) و(سيدنا) و(مولانا) وما الى ذلك[1].

وقد كان الرجل في الجاهلية يأتي أفعالاً تشبه ما تأتيه المرأة من أفعال الجزع والهلع من ذلك أنه كان يعقر الابل على قبر من يحب اكراماً له وتحية لمثواه، وكان ممن عقرت الابل على قبره، ربيعة بن مكدم[2]، وقال الشاعر الذي عقر ناقته على قبر النجاشي[3]:

عقرت على قبر النجاشي ناقتي
بأبيضَ عضبٍ أخلصتْهُ صياقلُه
على قبر من لو أنني متُّ قبلَه
لهانت عليه عند قبري رواحلُه

وكان بعضهم يحيي رفيقه بعد موته بصب الخمر على قبره، ولعل ذلك جاء مما يفعله الندمان عندما يشربون الخمر عند قبر صديقهم، مثل الاعشى الذي شهر بالخمرة، فيقال ان رفاقه وندماءه صاروا بعد موته يشربون عند قبره، وتدور الكأس، فإذا جاء نصيب الاعشى صبوا الخمر على قبره ولهذا كان قبره رطباً ندياً[4]. ويقول الاسدي في رثائه لنديميه[5]:

---

(1) ينظر مثلاً ديوان الخنساء ص21، 124، 153.

(2) العقد الفريد 116/1.

(3) الكامل 1250/3.

(4) الاغاني 126/9- 127.

(5) شرح المرزوقي للحماسة 877/2- 878.

أقيم على قبريكما لست بارحا

طوال الليالي او يجيب صداكما

أصب على قبريكما من مدامة

فإن لم تذوقاها أبلُّ ثراكما

وأبكيكما حتى الممات وما الذي

يرد على ذي عولةٍ ان بكاكما

أو أن يلجأ في استعظام المصيبة الى المبالغة واشراك الطبيعة في أحزانه، يقول النابغة الذبياني في رثاء حصن بن حذيفة الفزارى، كيف تبقى الجبال راسخة لم تجنح للوقوع، ولم تنشر القبور موتاها، ولم تسقط السماء نجومها، وقد جاء النعاة بنعي حصن بن حذيفة[1]:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم

وكيف بحصن والجبال جنوح

ولم تلفظ الارض القبور ولم تزل

نجوم السماء والأديم صحيح

فعما قليل ثم جاش نعيه

فبات نديُّ القوم وهو ينوح

وقد ذهب بعض الرثاة الى استبكاء أسلحة الفقيد وأمواله، فذكروا بكاء فرسه بعده وجمله وسيفه ودرعه وغير ذلك[2]

ولعل خير المراثي وأطرافها هي التي قالها الشعراء في رثاء أنفسهم عند احساسهم بدنو أجلهم أو وقوعهم في شدة او أسر أو مرض، وكثير أولئك الشعراء الذين ذكروا الموت وناحوا على انفسهم وأوصوا أهلهم بما يفعلونه بعد موتهم، أو أرسلوا خيالهم فيما سيكون من أمرهم بعد الموت،

---

(1) ديوان النابغة ص213.

(2) ديوان الخنساء ص40.

ومن ذلك قول المتلمس يوصي أصحابه بعد موته[1]:

خليلـي إمـا مـت يومـاً وزحزحـت

مناياكمـا فيمـا يزحزحـه الـدهر

فمـرا علـى قـبري فقومـا فسلما

وقولا سقاك الغيث والقطر يا قبر

كـأن الـذي غيبـت لم يلـه سـاعة

مـن الـدهر والدنيا لهـا ورق نضـر

ويتساءل السموأل، ماذا تقول النساء في نواحه بَعْدَ موته[2]:

يا ليت شعري حـين أنـدب هالـكـا

مـــاذا تـــؤبنني بـــه أنـــواحي

أيقلـن لا تبعـد فـرب كريهـة

فَرَّجْتُهـــا بشـــجاعة وسمـــاح

وقد أسرت تيم عبد يغوث بن صلاءة، وشدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم، ثم أطلقوا لسانه وقطعوا عرقه الاكحل فصار ينوح على نفسه ويبكيها[3]:

أقـول وقـد شـدوا لسـاني بنسعة

أمعشـر تـيم اطلقـوا مـن لسـانيا

أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا

فإن أخـاكم لم يكـن مـن بوائيـا

أحقـا عبـاد الله أن لسـت سـامعا

نشـيد الرعـاء المعـزبين المتاليـا

وكذلك فعل أفنون (صريم بن معشر) الذي لدغته حية في موضع

---

(1) ديوان المتلمس ص256.

(2) ديوان السموأل ص86 وفي طبقات الشعراء ص240 منسوبة لشعية ابن الغريض.

(3) الامالي 133/3 والعقد الفريد 396/3.

الالاهة، فقال يرثي نفسه ويخاطب أخاه معاوية[1]:

ألا لست في شيء فروحا معاويا

ولا المشفقات إذ تبعن الحوازيا

فلا خير فيما يكذب المرء نفسه

وتقواله للشيء يا ليت ذاليا

فطأ معرضاً ان الحتوف كثيرة

وإنك لا تبقي بمالسك باقيا

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي

إذا هو لم يجعل له الله واقيا

كفى حزناً ان يرحل الحي غدوة

وأصبح في أعلى إلآهة ثاويا

ويمتزج هنا الالم بالحكمة والتبصر بعواقب الحياة، وبمثل هذه النظرة الحكيمة الى الموت نظر أعشى نهشل، وهو يتفكر في موته ومصيره ويلتمس العزاء بمن سبقوه الى القبور[2]، أما الممزق العبدي فقد كان أحسن من غيره خيالاً وتصويراً لما يكون من أمره بعد ان يسقى كأس المنية ويجري عليه حكم الدهر الذي لا يخطئ أحداً، فيصور كيف سيرجلون شعره ويلبسونه ثياباً جديدة هي أكفانه، ويحملونه على نعش ويسدونه التراب، ثم يطبقون عليه حفرته ويتركونه ثم وحيداً تتناوح على قبره الرياح، ويوصي من بعده —أو يوصي نفسه- بأن لا يجزع فالكل الى ذهاب، وان للدهر رمية بسهام خفية لا ريش لها ولا فواق[3]:

---

(1) المفضليات 261 والعقد الفريد 3/247- 248.

(2) شعره في ديوان الاعشى- الصبح المنير ص306.

(3) المفضليات ص300.

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ

أم هل له من حمام الموت من راقِ

قد رجلوني وما رجلت من شَعَثٍ

وألبسوني ثياباً غير أخلاقِ

ورفعوني وقالوا أيما رجل

وأدرجوني كأني طي مخراق

وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا

ليسندوا في ضريح الترب أطباقي

هون عليك ولا تولع بإشفاق

فإنما مالنا للوارث الباقي

كأني قد رماني الدهر عن عرض

بنافذات بلا ريش وأفواق

أما علقمة بن سهل، فإن نفسه تتبع ماله بعد الموت، فيذكر ان ماله بالامس سيكون لغيره غدا، بعد ان يقتسم ذووه ومواليه أمواله، ويترك هو في قبره وحيداً لا يُعْنَى به أحد [1]:

فلن يعدم الباقون قبراً لجثتي

ولن يعدم الميراث مني المواليا

حراص على ما كنت أجمع قبلهم

هنيئاً لهم جمعي وما كنت واليا

ودليت في زوراء ثمت أعنقوا

لشأنهم قد أفردوني وشانيا

فأصبح مالي من طريف وتالد

لغيري وكان المال بالامس ماليا

وإذا جئنا الى العصر الاسلامي ستجد هدبة بن الخشرم يذكر

---

(1) الحيوان 121/1.

نفسه عندما يقدم لتضرب عنقه قصاصاً، وله أشعار كثيرة في ذلك[1].

وأروع ما قيل في رثاء النفس قصيدة مالك بن الريب غير مدافع، التي قالها حين كان في جيش سعيد بن عثمان بن عفان قافلاً من أرض فارس، وقد نهشته أفعى، فقال قصيدته الطويلة الرائعة التي أولها[2]:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

وفيها تصوير دقيق لأحوال المحتضر الذي يشعر بالموت يدب في جسمه، فهو يوصي أصحابه كيف يؤدون حقه بعد الموت، وينظر ما سيكون من أمر أهله وبكائهم عليه.

وأكثر الرثاء كان متوجهاً للرجال، ذوي الشأن والمكانة في القبيلة خاصة، وهناك أشعار فيها جوانب انسانية من البر والحنان والوفاء والصحبة، هي تلك الاشعار التي قيلت في رثاء الزوجات، ومن الازواج الذين ذكروا زوجاتهم في الجاهلية عمرو بن قيس بن مسعود المرادي، الذي خاطب سعيدة أخت زوجه أو ابنتها بقوله[3]:

سعيد قومي على سعدي فبكيها
فلست محصيةً كل الذي فيها
في مأتم كظباء الروض قد قرحت
من البكاء على سعدي مآقيها

وكذلك فعل العوام بن كعب المزاني[4]. وقد كثر هذا الضرب من البكاء على النساء في العصور المتأخرة، وقد لاحظ القدامى أن هذا الضرب من الشعر صعب، ولعل مرجع ذلك الى العرف السائد في أن يكون

---

(1) الاغاني 264/21- 276، وينظر شعر هدبة بتحقيقنا.

(2) ذيل الامالي والنوادر 136/3- 138. وجمهرة أشعار العرب ص269- 272.

(3) معجم الشعراء ص60.

(4) معجم الشعراء ص164.

الرجل جلداً صبوراً قليل الجزع، ولذلك يقول ابن رشيق: "ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر ان يرثى طفلا او امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات" [1].

ويلاحظ في قصائد الرثاء عامة- وبخاصة القصائد الطويلة الجيدة- أنها تبدأ بالحكمة والتفكر في الايام وصروف الزمان، وقد يطيل الشاعر في ذكر الحكمة وتقليب الرأي في أفاعيل الزمان، كما فعل لبيد في كثير من قصائده في رثاء أخيه إربد أو في رثاء النعمان بن المنذر الذي يبدأ قوله فيه بهذا التساؤل [2]:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول

أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

حبائله مبثوثة بسبيله

ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل

وتكثر في الرثاء ألفاظ، من مثل: (لا تبعد)، تقول أخت قبيصة بن ضرار في رثاء أخيها [3]:

لا تبعدَنَّ وكل شيء ذاهب

زينَ المجالس والندي قبيصا

ويقول تأبط شرا في رثاء الشنفري [4]:

فلا يبعدن الشنفري وسلاحه الحـ

ـديد وشدٌّ خطوهُ المتواتر

---

(1) العمدة 154/2.

(2) ديوان لبيد ص254.

(3) شرح الحماسة- المرزوقي 1053/3.

(4) الوحشيات ص130.

ويقول لبيد[1]:

فـــلا تبعـــدن إن المنيـــة موعـــد

عليـــك فـــدان للطلـــوع وطـــالع

ويكثر كذلك الدعاء بالسقيا لقبر الميت، وكثيراً ما يجيء هذا الدعاء ختاماً للقصيدة، وإن لم يكن ذلك شرطاً، يقول متمم في رثاء أخيه مالك[2]

سـقا اللهُ أرضـاً حلـها قـبر مالـك

ذهـاب الفـوادي المـدجنات فأمرعـا

وتقول الخنساء لاخيها صخر[3]:

سـقيا لقـبرك مـن قـبر ولا برحـت

جـود الرواعـد تسـقيه وتحتلـب

وكذلك يقول المهلهل لأخيه كليب[4]:

سـقاك الغيـث انـك كنـت غيثـا

ويســـراحين يلـــتمس اليســـار

والامثلة في هذا أكثر من أن تحصى.

وقد لاحظوا في قصائد الرثاء أنها قلما تبدأ بالغزل، بل يشينها أن تبدأ به، فمواضع الحزن لا يليق بها التفكر بالمرأة والتشبيب بها، يقول ابن رشيق: "وليس من عادة الشعراء ان يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء، وقال ابن الكلبي –وكان علامة– لا

---

(1) ديوانه ص171.

(2) المفضليات ص268 وشعر مالك ومتم ص112.

(3) ديوان الخنساء ص15

(4) شعراء النصرانية 163/1.

أعلم مرثية أولها نسيب الا قصيدة دريد بن الصمة[1]:

أرث جديد الحبل من أم معبد

بعاقبة وأخلفت كل موعد

وفي القصيدة يقول:

وبانت ولم أحمد اليك جوارها

ولم ترج فينا ردة اليوم أو غد

أعاذل ان الرزء في مثل خالد

ولا رزء فيما أهلك المرء عن يد

تنادوا فقالوا أردت الخيل فارساً

فقلت أعبدُ الله ذلكم الردى

وإن يك عبدُ الله خلى مكانه

فما كان وقّافاً ولا طائش اليد

وقد التمسوا لدريد عذرا بأنه قال قصيدته "بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته"[2].

على أن ابن رشيق لم يكن دقيقاً في حكمه، فقد سقطت في الشعر الجاهلي أشعار مبدوءة بالغزل، من ذلك قصيدة المرقش الاكبر الذي رثى ابن عمه، وقد بدأها بذكر الديار والغزل بأسماء، ثم انتقل الى الرثاء، والقصيدة هي التي أولها[3]:

هل بالديار ان تجيب صَمَمْ

لو أن رسماً ناطقاً كلّمْ

ومهد أبو ذؤيب الهذلي لرثاء نشيبة بن محرث بالغزل بأم عمرو في

---

(1) العمدة 151/2 والشعر في الاصمعيات ص106- 108.

(2) العمدة 152/2.

(3) المفضليات ص237.

قصيدته التي أولها[1]:

هـــل الــــدهر إلا ليلـــة ونهارهــــا

وإلا طلـــوع الشـــمس ثـــم غيارهـــا

وكذلك يبدأ لبيد رثاءه لاخيه اربد في احدى قصائده بذكر المرأة فيقول[2]:

طَـــرِبَ الفـــؤادُ وليتـــه لم يطـــرب

وعنـــاه ذكـــرى خُلَّـــةٍ لم تصـــقب

ونلاحظ أن هذه القصائد جميعاً تبدأ بالغزل وفيها ألم وشكوى وعتاب وروح حزين، كل ذلك يمهد للانتقال الى الرثاء، اي ان الجو السائد في القصائد هو جو حزين، فيه ألم وشجا وحكمة وتفكر، ولذلك ينتقل لبيد الى الرثاء بقوله: انه لم يطع العواذل وقد زجر قلبه عن الصبا والهوى، وعدل عما هو فيه الى الرثاء فقال متعزياً[3]:

فتعـــزَّ عـــن هـــذا وقـــل في غـــيره

واذكـــر شمائلَ مـــن أخيـــك المنجـــب

يـــا أربـــد الخـــير الكـــريم جُـــدودُه

افـــردتني امشـــي بقـــرن أعضـــب

وكثيراً ما يكون حديث الشاعر مع المرأة في القصيدة وسيلة الى ذكر الميت، وانه لا يعنيه فراقها وصرمها، فقد شغله أمر مفجع وخطب شديد، كما فعل متمم بن نويرة، الذي لا يبالي بفراق حبيبته، بل قد

---

(1) ديوان الهذليين 21/1.

(2) ديوان لبيد ص156. وكذلك بدأ ربيعة بن جحدر اللعياني قصيدته في رثاء اثيلة بن المتنخل بالغزل (شرح اشعار الهذليين- السكري 644/2) ولغزل غوية بن سلمى بن ربيعة بأمامة في قطعة يرثى بها قومه (شرح الحماسة- المرزوقي 1002/1).

(3) ديوانه ص156.

سعى الى ذلك الفراق، يقول[1]:

صرمت زُنَيْبَةُ حبل من لا يقطعُ
حبلَ الخليل وللأمانة تفجعُ
ولقد حرصتُ على قليل متاعِها
يومَ الرحيل فدمعها المستنفعُ
جُذّي حبالكِ يا زُنَيْبَ فإنني
قد استبدُّ بوصل من هو أقطعُ

والرثاء حزن وبكاء ولوعة وتفجع، ولذلك كان طبيعياً أن يكثر في هذا الشعر الحديث عن العين والدموع وغزارتها وحرقة العين واباءها الغمض والنوم، فمتمم بن نويرة يصور غزارة دموعه بأن عينيه كأنهما دلو ممزق تجري مياهه فتروي الديار والزروع[2]، وهذه الصورة –صورة القربة المزقة- ترد في شعر أبي ذؤيب الهذلي[3]، والخنساء[4]، ويقول عدي بن زيد العبادي في رثاء نفسه[5]:

ومالي ناصر الا نساء
أرامل قد هلكن من النحيب
يحدرن الدموعَ على عديٍ
كشنٍّ خانه خرزُ الربيب

أما المتنحل الهذلي فقد زاد الصورة بأن جعل عينيه مكحولتين بالصاب فهما تجريان الدمع كما يجري الماء من الدلو الممزق[6]:

---

(1) المفضليات ص48– 49 وشعر مالك ومتمم ص93.

(2) المفضليات ص271 وشعر مالك ومتمم ص102.

(3) ديوان الهذليين 86/1.

(4) ديوانها ص25.

(5) ديوان عدي ص40.

(6) ديوان الهذليين 33/2.

ما بال عينيك تبكي دمعُها خَضِلُ

كما وَهَي سَرِبُ الأخراتِ منبزِلُ

لا تفتأ الدهرَ من سَحٍّ بأربعةٍ

كأنَّ إنسانَها بالصاب مكتحلُ

وجعل أبو ذؤيب عينه لكثرة ما بكت، كأنها سملت بالشوك فهي عور تبكي على أبنائه الخمسة[1]:

فالعينُ بعدهم كأن حِداقَها

سُمِلَتْ بشوكٍ فهي عُورٌ تدمعُ

أما الخنساء ففي عينها عوار، وهي كثيراً ما تتحدث عن عينيها وتناجيهما[2]

وقد أفتن شعراء الرثاء في اظهار الصور واثارة المشاعر، ولا شك ان اصدق الرثاء ما كان صادراً عن القلب، وما كانت الفجيعة فيه أليمة شديدة، وليس أشد من فجيعة رجل جاءه نعي أبنائه الخمسة الذين سقطوا واحداً بعد الاخر، ففقدهم كلهم في عام واحد، ذلك هو أبو ذؤيب الهذلي -خويلد بن خالد- [3] فقد ذهب أولاده مع الجيش الفاتح لمصر، فأصابهم الطاعون هناك والشاعر ان كان اسلامياً، إلا أنه عاش أكثر زمانه في الجاهلية، وأدرك الاسلام وأسلم وحسن اسلامه، فشعره -كشعر أكثر المخضرمين بين سكان البادية- ألصق بالشعر الجاهلي وصفاته وخصائصه، وليس هنا قصيدة -فيما أحسب- تفوق هذه القصيدة بروعة معانيها وعمقها وانسانيتها وصدق عاطفتها، ولذلك أوثر ان اختم بمقطع

---

(1) ديوان الهذليين 3/1.

(2) ديوان الخنساء ص73 و85.

(3) قال ابو عمرو بن العلاء: سئل حسان: من أشعر الناس؟ قال حيا او رجلا؟ قال حيا. قال: أشعر الناس حياً هذيل، واشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب (طبقات الشعراء ص110).

منها الحديث عن فن الرثاء، يقول أبو ذؤيب[1]:

أمِنَ المَنُونِ وريبِها تتوجع
والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يجزعُ

قالت أُميمةُ ما لجسمكَ شاحبا
منذ ابتُذِلتَ ومثلُ مالكَ ينفعُ

أم ما لجنبكَ لا يلائمُ مضجعاً
إلا أقضَّ عليك ذاك المضجعُ

فأجبتُها أمَّا لجسمي أنَّهُ
أودى بنيَّ من البلاد فودَّعوا

أودى بنيَّ وأعقبوني غُصَّةً
بعد الرُقاد وعَبْرَةً لا تُقلِعُ

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهمُ
فتخرَّموا ولكل جنب مصرعُ

فغبرتُ بعدَهمُ بعيشٍ ناصبٍ
وإخال أني لاحقٌ مستتبَعُ

ولقد حَرِصْتُ بأن أدافعَ عنهم
فإذا المنيةُ أقبلت لا تُدْفَعُ

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها
ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فالعينُ بعدَهم كأن حِداقَها
سُمِلتْ بشوك فهي عور تدمع

حتى كأني للحوادث مَرْوَةٌ
بصفا المُشَرَّقِ كلَّ يومٍ تُقْرَعُ

---

(1) المفضليات ص421- 422 والقصيدة طويلة في 65 بيتاً، يتحدث بعد هذه الأبيات عن صراع حمار الوحش والثور مع الصائد وكلابه، ومصرع البطل ليلتمس بذلك العزاء والسلوى من قوة الأقدار وهول الموت وحتميته.

وتجلّدي للشامتين أريهم
أنّي لريب الدهر لا أتضعضعُ

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها
وإذا تُرَدّ الى قليلٍ تقنعُ

ولئن بهم فجعَ الزمان وريبهُ
إني بأهل مودتي لمفجّعُ

كم من جميع الشمل ملتئم القوى
كانوا بعيشٍ قبلنا فتصدّعوا

والدهر لا يبقى على حدثانهِ
جون السراة له جدائد أربع

الهجاء

الهجاء تعبير عن عاطفة السخط والغضب تجاه شخص تبغضه او جماعة تنتقم منها، والشاعر الهاجي ينفس بأهاجيه عما يعتلج في صدره من ضغائن واحقاد، ولذلك كان الهجاء سلاحاً من اسلحة القتال، يضعف الشاعر به معنوية خصومه ويرتبط بالوعيد والتهديد والانتقاص من أقدار الخصوم والبحث عن معايبهم.

ويرتبط الهجاء عادة بالحروب ويزدهر بازدهارها، وكثيراً ما يسبقها، فشأنه في هذا شأن شعر الحماسة، وكثيراً ما يختلط بالقصائد الحماسية، وبخاصة الشعر الذي يتناول الهجاء القبلي.

والهجاء طبيعة في النفس الانسانية، جاء نتيجة تفاوت الناس في حظوظهم من الرزق والجمال والجاه والسلطان، والمنافسة عادة هي المحك الذي يدفع الناس الى الهجاء والتعبير عن شعورهم بالسخط تجاه الخصوم، وقد كان الهجاء قديماً أثراً من آثار حب الانتقام والتشفي والثأر وقد لازم الهجاء الانسان على مر العصور وان اختلفت وسائله وطرقه، وكان الشعر

وما زال الطريقة المثلى لفن الهجاء، وكان النثر أقل صلاحاً له، وقد استعمل على نطاق ضيق، كما في هجاء لبيد لبقلة تدعى التربة[1]، وفي العصور المتأخرة استعمله الكتاب العباسيون على نطاق واسع، مثلما فعل الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير[2] في هجاء أحمد بن عبد الوهاب وقد تكفلت الصحافة في العصر الحديث بهجاء المعارضين والخصوم، كما أدخلت فن (الكاريكاتير) للسخرية بالخصم وتجسيد معايبه.

وقد كان هم الشعراء الهجائين الإنتقاص والنيل من خصومهم واضحاك الناس منهم، ولذلك كان جرير –وهو من أعلام الهجاء– يوصى بقوله: "إذا هجوت فاضحك"[3]، وقد برع في هذه الناحية ابن الرومي فقد كان يصور خصومه بصور هازئة مضحكة كما في تصويره البخيل الذي يتنفس لتقتيره من منخر واحد، او وصفه الاحدب المصفوع، او كقول جرير في هوان تغلب[4]:

لـــو أن تغلـــب جمعـــت أحســـابها

يـــوم التفاضـــل لم تـــزن مثقـــالاً

ويقال ان بشارا كان يعد أشد ما هجي به قول حماد عجرد الذي عمد الى عنصر الاضحاك من المهجو[5]:

ويــــا أقــــبحَ مـــــن قِــــردٍ

إذا مــــا عَمِــــيَ القِــــردُ

ولا شك ان نشأة الهجاء كانت مرتبطة بالعصبيات القبلية، وما

---

(1) امالي المرتضى 190/1 وينظر لبيد بن ربيعة ص106.

(2) رسالة التربيع والتدوير تحقيق شارل بلات طبع المعهد الفرنسي دمشق 1955.

(3) العمدة 172/2.

(4) ديوان جرير.

(5) الاغاني 333/14.

تثيره من حروب وأحقاد فالشاعر لسان القبيلة الذي يذب عنها ويهجو خصومها، ولذلك تجد الهجاء مرتبطاً بالفخر من ناحية وبالمديح من ناحية ثانية، مرتبطاً بالفخر حين يكون هجاء قبلياً تحركه الحروب او رغبة في الانتقام او الثأر، ومرتبطاً بالمديح حين يتوجه الشاعر الى مديح شخص يرجو نواله فيعرض بخصم ممدوحه وينال منه، فيقيم هجاءه على عنصر المفاضلة والمخايرة، وهذا أشد الهجاء وأقبحه ولذلك حين نهى عمر بن الخطاب الحطيئة عن الهجاء المقذع سأله الحطيئة: وما المقذع؟ فأجاب: "أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم" [1]. وكان الحطيئة قد مدح بغيضاً وهجا الزبرقان بقوله [2]:

ما كان ذنبُ بغيضٍ أن رأى رجلاً
ذا فاقةٍ عاش في مستوعرٍ شاسِ
جاراً لقومٍ أطالوا هُونَ منزلهِ
وغادروه مقيماً بين أرماسِ
ملوا قراه وهرته كلابهم
وجرحوه بأنياب وأضراسِ

وقد عزا العرب القدامى الاثر الذي يتركه الهجاء في النفوس الى فعل السحر، وقرنوا بين السحر والهجاء للغموض الذي يحيط بهما والرهبة التي يتركها السحر والهجاء في النفوس، ولذلك عزوا الهجاء الى ايحاء وعون الشياطين وزعموا ان لكل شاعر تباعاً او هاجساً من الجن، فالشاعر حين يهجو يستعين بشيطانه لاستمطار اللعنات على خصومه، كما يستعين الساحر بالأرواح الشريرة على الحاق الاذى بمن يريد سحرهم، وقد ذكر الشعراء أنفسهم أن لهم شياطين تعينهم على الشعر وسموا تلك الشياطين، يقول الاعشى انه استعان بشيطانه (مسحل) على

---

(1) العمدة 2/170.

(2) ديوان الحطيئة ص283- 284.

هجاء خصومه الذين دعوا شيطانهم (جهنام)[1]:

فلما رأيت الناس للشر أقبلوا
وثابوا الينا من فصيح وأعجم

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له
جهنّام جدعاً للهجين المذمّمِ

حباني أخي الجني نفسي فداؤه
بأفيح جياش من الصدر خضرمِ

وكذلك صور سويد بن أبي كاهل خصومته مع شاعر آخر فأعانه شيطانه وظهر على شيطان خصمه فجعله يولي هارباً[2]:

فَـرَّ منّي هارباً شيطانه
حيث لا يعطي ولا شيئاً مَنَعْ

وأتاني صاحب ذو غيث
زفيان عند انفاد القرع

قال لبيك وما استصرخته
حاقراً للناس قوال القذعْ

ذو عباب زبد آذيُّهُ
خَمِطُ التيَّار يرمي بالقَلَعْ

وقد افتخر أبو النجم العجلي في مراجزة العجاج بأن شيطانه ذكر وشيطان غيره أنثى[3]:

إني وكل شاعر من البشرْ
شيطانه انثى وشيطاني ذكرْ

---

(1) ديوان الأعشى ص95- 96.

(2) المفضليات ص201- 202.

(3) الشعر والشعراء ص603 وينظر الحيوان 229/6 فيه أخبار وأشعار عن شياطين الشعراء.

ومن طريف ما يروى أن جريراً حين هجا الراعي وابنه بقصيدته التي يقول فيها[1]:

فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

رحل الراعي وابنه فلما وصل الى قومه وجد الشعر قد سبقه اليهم، ويقسم الراعي بالله ما بلغها انسي، وأن لجرير لاتباعا من الجن، فتشاءمت به بنو نمير وسبوه وسبوا ابنه[2].

ولصلة الشعر هذه بالسحر، نسبوا القوة الخفية الى الشعر فقالوا: (شيطان الشعر)، ولم ينسبوها للخير فيقولوا: (ربة الشعر) كما كان اليونان يفعلون[3]. ولعل هذه الصلة –صلة الشعر بالسحر والشياطين– ان كان الشعراء عند الهجاء يلبسون أزياء غريبة ويمسخون هيئاتهم كما يفعل السحرة، وقدروى عن لبيد حين هاجى الربيع بن زياد في مجلس النعمان، وكان الربيع يكيد لقومه الجعفريين من بني عامر، فأدخل لبيد على النعمان وقد حلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين، وألبسوه حلة، وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى ازاره وانتعل نعلاً واحدة ثم صار يهجو خصمه، ويقول المرتضى: "وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا ارادت الهجاء"[4] ولهذا كان العرب يخشون الهجاء لارتباطه بالسحر واللعنات، ويرون ان شعر الهجاء يجلب النحس ويورث الشر والمرض، وما الهجاء الا دعوة ساخطة يدعوها ساخط او غاضب، يروي ان قريشاً حين اخذت خبيباً لتصلبه دعا عليهم، فألقى أبو سفيان ابنة معاوية أرضاً خوفاً من دعوة خبيب، وكان خبيب قد قال: "اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا،

---

(1) ديوان جرير ص821.

(2) خزانة الادب 35/1.

(3) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص59.

(4) أمالي المرتضى 191/1 وتاريخ العرب الأدبي ص129.

ولا تغادر منهم احداً" وكانت العرب تزعم ان الرجل اذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه[1] وقد كانوا اذا أسروا شاعراً شدوا لسانه لئلا يهجوهم، كما فعلت تميم مع عبد يغوث بن صلاءة الذي يقول[2]:

أقـول وقـد شـدوا لسـاني بنِسْـعةٍ

أمعشـر تـيم أطلقـوا عـن لسـانيا

وكانت العرب تخشى الهجاء وتفرق منه وبخاصة الاشراف، فقد كانوا يبكون بالدموع الغزار من وقع الهجاء، كما يحكى مخارق بن شهاب وعلقمة ابن علاثة، وكذلك عبد الله بن جدعان وكان هجاه خداش بن زهير[3]

وقد كان من خوفهم من الهجاء وأثره في نفوسهم أنهم اذا هجاهم شاعر بسوءة –ولو كانت مفتراة- فانهم يتوارون منها خجلا، لأنها تلازمهم وتلصق بسمعتهم، من ذلك ما كان من أمر بني العجلان الذين كانوا يباهون بلقب جدهم وهو عبد الله بن كعب العجلان، سمي بذلك لتعجيله القرى للاضياف، وظل هذا القلب مصدر فخر وزهو لهم، حتى هجاهم قيس بن عمرو النجاشي بقوله:

أولئـك أخـوال اللعـين وأسـرة الـ

ـــهجين ورهـط الـواهن المتـذلل

ومـا سمـى العجـلان إلا لقـولهم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فصار هذا اللقب سوءة وسبة، وكان أحدهم إذا سئل: ممن الرجل؟ أجاب: كعبي، أي من بني كعب متجاوزاً عن العجلان[4].

---

(1) السيرة النبوية 173/3.

(2) المفضليات ص157 والبيان والتبيين 45/4.

(3) الحيوان 364/1.

(4) زهير الآداب 19/1.

وكذلك كان حال بني عبد المدان الذين بارك الله لهم بسعة الصدور وطول الاجسام وغلظها، فكانوا يفخرون بذلك على غيرهم حتى عكسفهم حسان حين هجاهم بقوله[1]:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ

جسم البغال وأحلام العصافير

فصاروا يتوارون من الناس ويضائلون أجسامهم خجلاً من غلظها.

وقد بلغ من أثر الهجاء في نفس النعمان بن المنذر ان طرد صاحبه ونديمه الربيع بن زياد لفرية افتراها لبيد، فقد هجاه ورماه بالبرص حين كان الربيع يؤاكل النعمان، قال[2]:

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معهْ

ان استه من برص ماَمعهْ

وانه يدخل فيها اصبعهْ

يدخلها حتى يواري أشجعهْ

كأنه يطلب شيئاً أودعهْ

فسخط النعان ونفر من الربيع وأمره بالانصراف الى اهله، ولم ينفعه بعد ذلك اعتذاره.

وكان اشراف الناس ووجوه القوم وذوو المكانة فيهم من القادة والرؤساء، هم أشد الناس خوفاً من الهجاء وفرقاً منه، ولذلك يتصدى شعراء الهجاء لذوي الشرف والمكانة من الناس والقبائل ويسلم من الهجاء صغار القوم والقبائل الخاملة، يقول الجاحظ: "وإذا بلغ السيد في السؤدد والكمال حسده من الاشراف من يظن أنه الاحق به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاضه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه، ومن طلب عيباً وجده، فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما اذا

---

(1) ديوان حسان ص214 والعقد الفريد 328/5.

(2) أمالي المرتضى 191/1- 193 وانظر لبيد بن ربيعة ص106.

ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه، ولذلك هجى حصن بن حذيفة، وهجى زرارة بن عدس، وهجى عبد الله بن جدعان، وهجى حاجب بن زرارة"[1]. ولهذا كانت القبائل تعتز بشعرائها الذين ينبون عنها وينوهون بشرفها ويردون خصومها، وكانت منزلة الشاعر الذائد عن حياض قبيلته رفيعة كريمة، وكان يقدم على الخطيب، كما روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم من غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم"[2] وأبو عمرو هنا يبين وظيفة الشاعر في القبيلة ويحدد واجباته في الذب عن قومه. ولذلك كان الشعر سلاحاً من أسلحة الحرب، ووسيلة من وسائل القتال في الدفاع او الهجوم.

ولعل هدبة بن الخشرم أوضح من بين واجبه تجاه قبيلته وشحذ لسانه لهجاء من يعاديها وشهر شعره سلاحاً للذود عنها يقول[3]:

إنـي مـن قضـاعة مـن يكـدها
أكـده وهـي مـني في أمـان

ولسـت بشـاعر السفسـاف فيهم
ولكـن مـدره الحـرب العـوان

سـأهجو مـن هجـاهم مـن سـواهم
وأعـرض مـنهم عمَّـنْ هجـاني

ويوضح حيان بن ربعة كيف تتظافر السيوف والشعر عند استعار نار الحرب، فيتناولون خصومهم بسلاح الشعر وأسلحة الحديد[4]:

---

(1) الحيوان 93/2.

(2) البيان والتبيين 241/1.

(3) شرح الحماسة- المرزوقي 472/1- 473.

(4) المصدر السابق 288/1- 289.

لقــد علــم القبائــل أن قـــومي

ذوو جـــد إذا لُـــبِس الحديـــدُ

وأنّــا نعْــمَ أحــلامُ القــوافي

إذا اســتعر التنــافرُ والنشــيدُ

وأنّــا نضــرب الملحــاءَ حتــى

تــولى والســيوف لنــا شــهودُ

وقد صور جرير في محاورة له مع الراعي كيف وظف لسانه في خدمة قبيلته، فيشهر هجاءه بوجه من يتصدى لها، ففي الاغاني: "لقى جرير الراعي فقال له: أن أهلك بعثوك مائراً، وبئس والله المائر انت، وإنما بعثني أهلي لأقعد لهم على قارعة هذا المريد فلا يسبهم أحد الا سببته، فإن على نذرا ان كحلت عيني بغمض حتى أخزيك"(1)

وقد نظر النقاد القدامى في الهجاء، فرأوا أن أشده وقعاً في النفوس وأكثره ايلاما ما كان صادقاً عفيفاً لا فحش فيه ولا اقذاع، وقد كان أبو عمرو ابن العلاء يقول: "خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها، نحو قول أوس:

إذا ناقة شدت برحل ونمرق

الى حيكم بعدي فضل ضلالها"(2)

وكأنه نظر الى الهجاء المقذع على أنه سباب وشتيمة يستطيع أن يتفوق فيهما عامة الناس، والهجاء الذي يبقى عالقاً في النفوس هو الذي تكون صياغته جميلة، ومعانيه عميقة ذات دلالة، تنال من المهجو بأسلوب ذكي وطريف، كأن يتخذ طريقة الاستهانة بالخصم او تجاهله او التشكيك به كما فعل زهير ابن ابي سلمى في آل حصن اذ قال(3):

---

(1) الاغاني 170/20 ط بولاق.

(2) العمدة 170/2 وفي ديوانه ص100: الى حيكم بعدي.

(3) ديوان زهير ص73- 74 والعمدة 171/2.

وما أدري وسوف اخال أدري

اقوم آل حصن أم نساءُ

فإن تكن النساء مخبآت

فحق لكل محصنةٍ هداءُ

وقد عد النقاد هذا الشعر من أشد الهجاء وأمضه، مع أنه ترفع عن السباب والقذف والافحاش ويكون هذا مصداقاً لرأي الجرجاني في جيد الهجاء: "فاما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فأما القذف والافحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن وتصحيح النظم"(1)، ولا شك ان عفة الهجاء وصدقه من أسباب نجاحه وسيرورته على الالسن، لأن الناس لا تصدق الكاذب المفتري المتحامل، ولكن إذا رأت في الهجاء شيئاً من الحقيقة تميل مع الشاعر في تصديقه في كل ما يهجو به صاحبه، وقد أدرك خلف الاحمر هذه الحقيقة فقال: "أشد الهجاء ما عف لفظه وصدق معناه"(2)

وللشعراء في هجائهم طرق وأساليب، فمنهم الذي يحتال في اتخاذ الوسائل الهادئة الذكية الموجعة، كأن يهزأ بخصمه او يسفه رأيه او يقارنه بغيره ويفضل عليه عن طريق التعريض والتلميح، ومنهم الذي يهجم على خصمه فيذكره صراحة وينهال عليه تهديداً ووعيداً وانذاراً وشتيمة، ولا شك ان الاسلوب الاول أحذق وأليق وأشد ذكاء واكثر ايجاعا، فهو في هجائه يكسب السامع او القارئ ولا ينفره، في حين ان الثاني يبدأ بالخصومة ويجاهر بالعداوة فيميل السامع الى المهجو على انه مظلوم معتدى عليه.

وقد مر بنا كيف ان زهيراً حين هجا آل حصن شكك فيهم

---

(1) الوساطة ص23.

(2) العمدة 171/2.

وتجاهل قدرهم ونال من خصومه بمنطق وحسن احتيال، وهو بارع في هجائه يتبع في قصيدته أسلوب النصح وبيان العواقب واظهار السوآت، ويمزج كل ذلك بشيء من الانذار والتخويف، يقول[1]:

وأما أن يقول بنو مصاد … السيكم أتنسا قوم براءُ

وأما أن يقولوا قد أبينا … وشر مواطن الحسب الإباءُ

وإما ان يقولوا قد وفينا … بذمتنا وعادتنا الوفاءُ

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ … يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

فمهلا آل عبد الله عدّوا … مخازيَ لا يُدَبُّ لها الضّراءُ

أرونا سُنّةً لا عيب فيها … يسوّى بيننا فيها السّواءُ

فإن تدعوا السّواءَ فليس بيني … وبينكمُ بني حِصْنٍ بَقاءُ

ويبقى بيننا قذعٌ وتلفوا … إذا قوما بانفسهم أساءوا

وتوقدُ نارُكمْ شررا ويُرفعْ … لكم في كل مجمعةٍ لواءُ

فنرى زهيراً اتبع اسلوب النصح ودعاهم الى الروية والتبصر بالعواقب وإيثارِ القصد، وحاجهم محاجة منطقية، فإن لم يلتزموا السبيل السوى فإنه سوف ينالهم بلسان سليط وهجاء شديد ولا يلومون بعدها الا انفسهم. ويقال ان آل حصن جاءوا بعد هذه القصيدة الى زهير يعتذرون اليه.

ومن الشعراء من تناول خصمه بالهجاء الساخر، فاستهزأ به وتجاهل قدره وحط من شأنه وانكر عليه فخره، وسلبه كل مكرمة،

---

(1) ديوانه ص74- 75 و84- 85.

كما فعل الحطيئة في هجاء قدامة العبسي في هجاء العبسي وقومه[1]:

قدامـة أمسـى يعـرك الجهـلُ أنفَـهُ

بجـدَّاءَ لم يعـرك بهـا أنـفُ فـاخرِ

فخرتم ولم نعلم بحادث مجدكم

فهـاتوا هَلُـمَّ بعـدها للتنـافرِ

ومـن أنـتم أنـا نسـينا مـن أنـتمُ

وريحكـم مـن اي ريـح الأعاصـرِ

فهذي التي تأتي على كل منهج

تبـوع أم القعـواء خلـف الـدوابرِ

متى جئتم إنَّا رأينا شخوصَكم

ضئالا فما ان بيننـا مـن تفـاكرِ

وأنتم أولي جئتم مع البَقْل والدَّبا

فطار وهذا شخصُكم غيرُ طائرِ

أريحـوا الـبلادَ منكمُ ودبيبكمْ

بأعراضـنا فعْـلُ الإمـاء العَـواهرِ

ومن أخبث الهجاء ذلك الذي يتخذ شكل المقارنة والمخايرة، فيوازن الشاعر بين من يريد هجاءه وبين من يريد مدحه، فيجعله أقل شأناً، فيشعره بالضعة والحقارة والانحطاط، وقد برع الحطيئة في هذا الضرب من الهجاء أيضاً، فتراه يقول هاجياً الزبرقان بن بدر، ومادحاً بني أنف الناقة[2]:

ألم أكُ جـارَكم فتركتمـوني

لكلـبي في ديـاركمُ عـوَاءُ

وآنيـتُ العَشـاءَ الى سُـهيلٍ

أو الشِّـعْرَى فطـال بـي الإنـاء

---

(1) ديوان الحطيئة ص310.

(2) ديوانه ص98.

فلمـــا كنــتُ جــارَكُم أبيــتمْ

وشــرُّ مــواطنِ الحســبِ الإبــاءُ

ولـــا كنـــتُ جَسارَهمُ حَبَـــوني

وفــيكم كــان لـو شـئتم حِبَـاءُ

ومشهور قوله في مدح بني أنف الناقة والتعريض بقوم الزبرقان بن بدر[1]:

قـوم هـمُ الانـفُ والأذنـابُ غيـرهم

ومَـن يُسَوِّي بـأنفِ الناقـةِ الـذَّنَبا

أو قول الشاعر ربيعة بن عبد الرحمن الرقي في المقارنة والتفضيل بين مهجوه وممدوحه[2]:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى

يزيـد سـليم والاغـر ابـن حـاتم

فهَـمُّ الفتـى الازدي اتـلافُ مالـه

وهَمُّ الفتى القيسي جمعُ الدراهم

فـلا يحسبُ التمتـامُ أنـي هجوتُـه

ولكـنني فضـلُ أهـلَ المكـارمِ

ومن الشعراء مـن يعـرض بمهجوه تعريضاً، وهـذا أقسـى وأشـد مـن التصريح، فالتعريض يصحبه شيء من التشكيك والتحريض والاثارة.

وضـرب آخـر مـن الهجـاء يتنـاول الخصـم صـراحة ويهـاجمه مهاجمـة سافرة، فيوعد ويهدد وينذر ويقذف بالشتيمة الصريحة والسباب الواضح، وقـد يتنـاول هـذا الضـرب الاعـراض والعورات ويجـاهر بـالفحش والاقـذاع، يقول أوس بن مغراء في هجاء بني عامر[3]:

فلسـت بعـاف عـن شـتيمة عـامر

---

(1) ديوانه ص128.

(2) العمدة 173/2.

(3) نقد الشعر ص95.

ولا حابسي عما أقول وعيدها

ترى اللؤم ما عاشوا جديداً عليهم

وأبقى ثياب اللابسين جديدها

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر

من اللؤم ما دامت عليها جلودها

وقد ينحدر بعض الشعراء نحو الافحاش والاقذاع، وهذا قليل في الشعر الجاهلي، نجد أبياتاً منه في شعر الحطيئة، وقد بلغ هذا الضرب على يدي جرير والفرزدق مبلغاً من السوء والاقذاع على ما تصوره النقائض بين الشاعرين، وبين جرير والاخطل كذلك.

والهجاء بعامة يقوم على سلب المعاني الكريمة والمثل العليا، فالشاعر إنما يهجو خصمه بالغدر والخيانة والجبن والقعود عن المكارم والهزيمة واللؤم والبخل والنزق والطيش، وما الى ذلك من الصفات التي يراها العربي عاراً يبرأ منه.

ويتميز الهجاء الجاهلي بخصائص ابرزها: قصر قصائد الهجاء، فأكثره مقطعات وأبيات، ويرون أن قصر الهجاء وعفته هما أول أسباب رواجه وشهرته، والعفة أمر ظاهر في هذا الشعر فلم ينحدر الى الاقذاع والشتم الواضح والفحش الا الحطيئة في بعض أبياته، وشعرهم أقرب الى اللوم والعتاب منه الى البذاءة والاقذاع، وقد كان النابغة بارعاً في هجائه العفيف الشديد الموجع، فهو لا يغضب القبيلة حين يهجو فارسها، وإنما يحط من قدره بأن يقارنه بأعيان قومه فيمدحهم ويؤخره عنهم، فيكون هجاؤه اياه أقسى من النيل منه صراحة، يقول النابغة مجيباً عامر بن الطفيل بعد معركة حسي [1]:

إن يك عامر قد قال جهلا

فإن مظنّة الجهل الشبابُ

فإنك سوف تحلم أو تناهى

إذا ما شِبْتَ او شابَ الغُرابُ

---

(1) ديوان النابغة ص155- 156.

فكــن كأبيــك أو كــأبي بَــراءٍ

توافقــك الحكومــةَ والصَّــوابُ

ولا تـــذهبْ بحلمـــك طافيـــاتٌ

مـــن الخَـــيَلاءِ لـــيس لهـــن بـــابُ

فكان وقع هذا الهجاء الذي اتخذ طابع النصح والموعظة شديداً موجعاً.

وقد كانت صور الهجاء مستمدة من البيئة الجاهلية ومن العرف السائد والمثل التي تعارف عليها الناس، فالكرم مفخرة لدى العرب، واللؤم والبخل أقسى ما يُهْجَى به المرء، ولذلك رأوا في هجاء الاعشى لعلقمة بن علاثة وقومه بأنهم ينامونَ ملاء البطون وجاراتهم ساغبات يتضورون من شدة الجوع، رأوا في هجائه قذفاً فاضحاً وسبه شديدة، جعلت علقمة بن علاثة يبكي حين سمع قوله[1]:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم

وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وقال: أنحن نفعل هذا بجاراتنا؟

ومن الشعراء من كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة، فقد قيل لصخر بن عمرو عند رثاء أخيه معاوية: أهج قتلته، فقال: ما بيننا أجل من القذع ولو لم أكفف نفسي إلا رغبة عن الخنا لفعلت، وقال[2]:

وعاذلـــةٍ هبَّـــت بليـــلٍ تلـــومُني

الا لا تلومينى كفـى اللّومُ ما بيا

تقـــول ألا تهجـــو فـــوارسَ هاشـــمٍ

ومـــا لـــي إذ أهجـــوهمُ ثـــم مـــا ليـــا

أبى الشتم أنى قد أصابوا كريمتي

---

(1) ديوان الأعشى ص109 والاغاني 121/9.

(2) الاغاني 10/15.

وأن ليس إهداءُ الخَنَا من شماليا

ومن طريف ما يروى في هذا، وإنَّ حسان بن ثابت قال للخنساء: " أهجي قيس بن الخطيم، فقالت: لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه، قال، فجاءته يوماً فوجدته في مشرفة ملتفاً في كساء له، فنخسته برجلها وقالت: قم، فقام، فقالت: أدبر، فأدبر، ثم قالت: أقبل، فأقبل، قال: والله لكأنها تعترض عبداً تشتريه، ثم عاد إلى حاله نائماً، فقالت: والله لا أهجو هذا أبداً، "[1] ،فالخنساء رأت في قيس بن الخطيم ما تراه في الرجل المهيب الكامل، فلم تستطع أن تكذب وتفترى في هجائه.

وعماد أسلوب الهجاء الوضوح والبساطة وقلة الصنعة والتكلف، لأن الهجاء وليد الفطنة وسرعة الخاطر واللمحة الدّالة، وهذا يتجافى مع التقعر والتكلف وإطالة التفكير ، ولذلك يعزى تفوق جرير في هجائه إلى هذه البساطة والوضوح ، فتشعره وليد البديهة الحاضرة، فإذا سئل عن التغلبي أجاب بديهة:[2]

والتغلبيُ إذا تنحنحَ للقِرَى
حكَ استَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

أما الأخطل، فكان يجود في هجائه ويتكلف، فيخرج هجاؤه مصنوعاً وليد الذهن المكدود والخاطر البطيء المتأمل، فلا يفهم هجاؤه إلا بعد إعادة نظر، وقد غلب جرير الفرزدق لأن الفرزدق كان يعتمد الاقذاع والفحش، وكان هجاؤه صريحاً مكشوفاً، أما جرير فقد كان يعمد إلى التلميح دون التصريح، وهذا أشد وقعاً وأبعد دلالة، فهو حين يرمي نساء بني نمير لا يصرح بأنهن يخرجن بالّيالي لفاحشة، ولكنه يلمح

---

(1) الأغاني 10/3.

(2) ديوان جرير ص 362.

إلى ذلك بقوله: [1]

إذا قامت لغير صلاةٍ وتْرٍ
بعيد النوم أنبحت الكلابا

أما الشعراء الذين برزوا في هذا الفن، وتميزوا عن غيرهم، وأطالوا فيه وأكثروا، فأشهرهم ثلاثة: الحطيئة والأعشى وحسان بن ثابت، ولكل منهم نهج خاص به، وأسلوب تميز به عن غيره. وكان الحطيئة أعلاهم صوتاً، وأخبثهم لساناً، وأشدهم هجاءً فلم ينازعه في هذا الضرب منازع، لأنه نشأ وقد هيأته ظروفه وبيئته ونفسيته ليكون جاء سليط اللسان.

وقد شاركت النساء في هذا الفن بقدر يسير، ففي شعر النساء قطع فيها هجاء وتعبير عن عواطف السخط والغضب، نجد في هجاء الخنساء لدُرَيْد بن الصمة حين خطبها فردته، ثم هجاها فأجابته تهجوه بسوء الخلقة والبخل والفقر والجبن [2]

معاذ الله يرضعني حبركى
قصير الشبر من جُشَم بن بكر

يرى شرفاً ومكرمةً أتاها
إذا أغدى الجيس جَرِيْمَ تَمْرِ

لئن أصبحتُ في جُشَمٍ هَديًا
إذا أصبحت في ذُلٍّ وفقر

قَبَيْلَةَ إذا سَمِعوا بذعرٍ
تخفى جمعُهم في كلِ جُحْرِ

وقد تضيق المرأة بزوجها فتتناوله بالهجاء والتقبيح وتدعو عليه بالفراق والهلاك وإبداله بخير منه، كما فعلت أم الصريح بن أوس

---

(1) ديوانه ص 62.

(2) ديوان الخنساء ص 120- 121 والأغاني 77/15 وفي روايته خلاف.

الكندية في هجاء زوجها أبي الصريح الكليبي، إذ تقول[1]:

كـأن الـدار يـوم تكـون فيهـا
علينـا حفـرة ملئـت دخانـا

فليتـك في سَـفين بـن عبّـاد
طريـدا لا نـراك ولا ترانـا

وليتـك غائـبٌ بالهنـد عنـا
وليست لنـا صـديقا فاقتانـا

ولـو أن النـذور تكـف منـه
لقـد أهـديُتها مائـة هجَانـا

وللخرنق قطع في هجاء عبد عمرو بن بشر الذي وشى بأخيها طرفة إلى الملك عمرو بن هند فقتله[2]، وكذلك هجت دختنوس النعمان بن قهوس التميمي الذي فر في يوم شعب جبلة وترك أباها لقيط بن زرارة فقتل، فكانت تهجوه وتعيره بالجبن والفرار[3].

وهجاء النساء بعامة عفيف لا فحش فيه، قصير في أبيات أو قطع، وهو على العموم قليل، وأكثره قيل بعد المعارك والحروب مرتبطاً بالبكاء على القتلى والسخط على القاتلين.

وكان المؤمل أن يكثر الهجاء بين النساء الضرائر خاصة، ولكن ما وصل من ذلك قليل ضئيل الشأن، ويعلل الحوفي ذلك بأن المرأة كانت " تتقنع بالكيد والاغارة والنظرات الشزر والكلمات المرة والحركات الساخرة، ثم هي تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضرتها وأن زوجها يؤثرُ ضرتها عليها "[4] ومن صور ذلك قول امرأة تهجو زوجها وضرتها:[5]

---

(1) بلاغات النساء ص 118 وينظر المرأة في الشعر الجاهلي ص 638- 639.

(2) ديوان الخرنق ضمن رياض الأدب ص 36- 37. وجمهرة اشعار العرب ص 77.

(3) الأغاني 11/133- 134.

(4) المرأة في الشعر الجاهلي ص 637.

(5) بلاغات النساء عن المرأة في الشعر الجاهلي ص 638.

لا خــارَ ربّــي لأبــي الفَضِــيلِ

ولا وقـــاه عثـــرة الـــدلول

يَــدُلّ مـــني أخبـــثَ اليـــديلِ

هوجــاءَ مَقْــاءَ كشــبه الغــولِ

تحمــل رِدْفــاً واســعَ الفضــولِ

مثــل إهـــاب المتحـــة المنجـــولِ

يبيــت فيـــه الـــذئب أو يقيـــل

الوصف

الوصف من الفنون البارزة التي برع فيها الشعراء الجاهليون، فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية ودققوا النظر، فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم، وصفوا الطبيعة ممثلة في حيوانها ورياضها ونباتها وديارها وأطلالها، وتأملوا في أمطارها وسحبها وبرقها ونورها وظلامها فرسموا من ذلك لوحات ناطقة بالفن الاصيل، وقد اعتنوا بكل صغيرة وكبيرة من مشاهد الصحراء ومنظر الحاضرة ومجالسها وأزيائها، ولم يتركوا شيئاً من ذلك الا سجلوه في شعرهم.

وكان للحيوان أكبر الاثر في حياتهم، وهو أقرب الى نفوسهم وعواطفهم، ولذلك فقد اعتنوا به عناية خاصة، وصفوا جسمه وقوته وصفاته وعاداته وحركته وطباعه، حتى عرف بعض الشعراء بالاجادة في وصف حيوان واحد والتدقيق في وصفه، فقد برز في وصف الخيل: امروء القيس والطفيل الغنوي والنابغة الجعدي، وفي وصف الناقة: طرفة بن العبد وأوس بن حجر، وفي وصف الحمر الوحشية الشماخ وكذلك في وصف القسي، أما الأعشى فقد برع في وصف الخمر وذكر مجالسها.

ولعل الناقة من أبرز الحيوانات التي عنى بها الشاعر الجاهلي، فهي مصدر الخير والرزق ورفيقة السفر الصبور على الأين، تقطع الفيافي وتجتاب الفلوات دون كلل او ملل، وقد وقف الشعراء يتأملون فيها،

فوصفوا جسمها الضخم القوي، وشبهوه بالملاة وهي سندان الحداد والقصر قصر الهاجري، والقلمة الضخمة، والصخرة الصلبة، ودققوا في أعضائها فلم يغادروا عرقاً ولا عصبا الا وصفوه أدق وصف، ونظروا في أحوالها وسرعتها ونشاطها وعاطفتها وحنينها، فعبروا عن احساساتها ومشاعرها وأحوالها بعاطفة انسانية ومشاركة وجدانية لما يعاني هذا الحيوان.

وأوصاف الناقة لدى الشعراء تكاد تكون متشابهة، فهي قوية متينة صلبة قبل السفر، وهي نحيلة مهزولة بعد ان قطعت الفيافي وجابت الفلوات في حر الهواجر وقر الشتاء، يعتنون بوصف شكلها ولونها وصفاتها، ويشبهونها بالبقرة الوحشية والثور والحمار والاتان والظليم، كما يشبهونها بالبناء الشامخ والسفينة والميف والدلو والسحابة، وفي كل تشبيه الناقة بتلك الحيوانات فلا يكاد الشاعر يذكر الناقة حتى يأخذ بتشبيهها بالبقرة الوحشية او الثور او الحمار او الاتان او الظليم، ثم يذهب يسرد قصة ذلك الحيوان وما كان من أمره مع الصياد وكلابه، حتى إذا انهى تلك القصة عاد الى ناقتها فشبهها بحيوان آخر فيسرد قصة هذا الحيوان الاخر وهكذا، فكان نصيب الناقة من القصائد الطوال نزراً، ويتضح ذلك عند اكثر الشعراء مثل امرئ القيس والاعشى ولبيد وزهير والنابغة.

ولم يقف أحد عند وصف الناقة وقفة طويلة متأملة مثل طرفة في معلقته، فقد رصد لها ثمانية وعشرين بيتاً على شاكلة قوله[1]:

وإنـي لأمضـي الهـم عنـد احتضـاره
بعوجـــاء مرقـــال تـــروح وتغتـــدي

أمـــون كـــالواح الأرانِ نســـأتها
علـى لاحـب كأنـه ظهـر بـرجـد

---

(1) ديوان طرفة ص10- 13.

تبـــاري عتاقـــاً ناجيـــات وأتبعـــت

وظيفـــا وظيفـــا فـــوق مـــور معبـــد

تربعـــت القفـــين في الشـــول ترتمـــي

حـــدائق مـــولى الأسِـــرَّةِ أغيـــد

تريـــع الى صـــوت المهيـــب وتتقـــي

بـذي خصـل روعـات أكلـف ملبـد

كـأنّ جنـاحي مضـرحي تكنفـا

حفا فيه شكا في العسيب بمسرد

فطـورا بـه خلـف الزميـل وتـارة

علـى حشـف كالشَّـنِ ذاو مجـدَّدِ

لها فخذان أكمل النحض فيهما

كأنهمـــا بابـــا مُنيـــف مُمَـــرَّدِ

فتراه يشبه عظامها العريضة بألواح الاران وهو تابوت السادة الاشراف، وشبه طريقها بالكساء المخطط، وشبهها بالنعامة في عدوها وشبه فخذيها بمصراعي قصر، ثم يتناول فقارها وعنقها وجمجمتها وخدها ومشفرها وعينيها وأنساعها وأعضادها، كل ذلك بما اتفق له من بيئته من محسوسات، حتى ينتهي به المطاف ان يقول[1]:

على مثلها أمضى إذا قال صاحبي

الا ليـتني أفـديك منهـا وأفتـدي

أما بقية الشعراء فقد وصفوا الناقة وصفاً مباشراً ولكنهم لم يطيلوا في وصفها، آثروا ان يتحدثوا عن صفاتها وأحوالها النفسية عن

---

(1) ديوان طرفه ص22.

طريق تشبيهها بالحيوانات الاخرى، فاظهروا عواطفها من الخوف والفزع والحب والكره والجرأة وشدة الاحتمال في قصص الحيوان كالبقرة المفجوعة بولدها الذي تحبه، والتمسوا قوتها ونشاطها وسرعة حركتها في حمار الوحش وأتانه وفي الثور، ولكل قصة طريفة فيها حيوية ونشاط وقُوّة.

ولم يعن الجاهليون بحيوان عنايتهم بالخيل، فهي حبيبة الى نفوسهم عزيزة عليهم، يكرمونها ويؤثرونها بالطعام والشراب، وهي زينة الفارس يمتطيها في نزهه وصيده، وتكون حصنه عند الغارة، وسلاحه في الكر، ونجاته عند الفرار، ولذلك خصوها بعناية فائقة، وليس أكثر من أن تفدي بالانفس ويجاع لها العيال ولا تجاع كما يقول الشاعر[1]:

مقـــداة مكرمـــة علينـــا

يجـــاح لهـــا العيـــال ولا تجـــاع

وكانوا يقربونها عند بيوتهم ولا يرسلونها ترعى مع أنعامهم حباً في المحافظة عليها، يقول ربيعة بن مقروم[2]:

وجـــردا يقـــر بـــن دون العيـــال

خـلال البيـوت يلكـن الشـكيما

وكانوا يحفظونها من البرد ويصنعون لها الاردية والاغطية لتقيها قسوة البرد وشدة الحر، يقول عنترة[3]:

مقربـــة الشـــتاء ولا تراهـــا

وراء الحـــي يتبعهـــا المهـــار

لهـــا بالصـــيف أصـــبرة وجـــل

ونيـــب مـــن كرائمهـــا غـــزار

---

(1) شرح الحماسة- المرزوقي 210/1.

(2) المفضليات ص185.

(3) ديوان عنترة ص309.

ويسقونها الماء الدافئ في الشتاء، ويسقونها اللبن، يقول المتلمس[1]:

أبقت لنا الأيام والـ

ـمزيات والعماني المرهق

جردا باطناب البيو

ت تعل من حلب وتغبق

وكانوا يصنعون لها النعال لتحفظ حوافرها من صلابة الأرض وشدة الصخور، يقول زهير[2]:

تهوي على ربذات غير فائرة

تحذى وتعقد في أرساغها الخدم

وحافظوا على كرمها وأصالتها ونقاء عناصرها، واهتموا بنسلها وأنسابها ونجابتها، يفخر علقمة الفحل بنسب فرسه وأصالتها بقوله[3]:

وقد أقود أمام الحي سلهبةً

يهدي بها نسب في الحي معلوم

ولشدة عنايتهم بأنسابها وصفتها وطباعها، فقد ألفوا في ذلك كتباً مثل: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام لابن الكلبي[4]، والخيل للاصمعي[5]، والخيل لأبي عبيدة[6]، وأسماء خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابي[7]، ونخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد لمحمد الجزائري[8]

---

(1) ديوان المتلمس ص245- 246.

(2) ديوان زهير ص156.

(3) ديوان علقمة ص73.

(4) طبع دار الكتب 1946.

(5) طبع فيينا 1895.

(6) طبع الهند 1358.

(7) طبع ليدن 1928.

(8) طبع بيروت 1366.

وغير ذلك[1]. وقد اختاروا لها أسماء وحفظوها، ونسبوها الى فرسانها، ونسبوا الفرسان اليها، ففرس عامر بن الطفيل (المزنوق) وفرس والدة الطفيل (قرزل) وفرس مالك بن نويرة (ذو الخمار) وفرس عنترة (جروة) وفرسا قيس بن زهير العبسي (داحس والغبراء) وفرسا حذيفة بن بدر الفزاري (الحنفاء والخطار) ومن خيل زيد الخيل (الهطال والورد ودوول) وغير ذلك[2].

وقد وصفوا الفرس وصفاً دقيقاً، وصفوا جسمه وقوته وعظم هيكله، ووصفوا سرعته ونشاطه وحمحمته، ويتميز في وصفهم نوعان من الخيل، او نوعان من الوصف، نوع يمثل الفرس الذي يبكرون معه الى الصيد واللهو والطرب، فهو يباكر الوحوش ويقيدها، كفرس امرئ القيس، وفرس يغدون عليه الى الحرب والقتال، أعدوه للحرب والغارة والفروسية، كفرس عنترة الذي يتسربل بالدم.

فأما فرس امرئ القيس الذي يبكر قبل استيقاظ الطير، فهو ضخم عظيم الجسم قصير الشعر سريع العدو، يكر ويفر ويقبل ويدبر كأنه صخرة قذفها السيل من شاهق، كميت اللون يضرب الى الصفرة التي يخالطها الاحمرار، أملس الظهر صقيل المتن بحيث يزل عنه اللبد لنعومته وقوته، وهو بعد ذلك كثير النشاط سريع الحركة له هباب وحمى عند نشاطه كالقدر حين يغلي، ينصب في عدوه انصبابا لاتكاد حوافره تمس الارض فلا يثير غباراً كما تثير الجياد التي تضرب الارض ضرباً، لا يكاد الفارس المتمرس ان يثبت على صهوته، ويقذف بالرجل الثقيل الشديد الذي قلت خبرته بركوب الخيل، وهو في سرعته كأنه دوامة مما يلعب بها الصبيان حين يلفها بخيط على اصبعه ثم يديرها

---

(1) وقد ذكروا ممن الف في الخيل أيضاً: النضر بن شميل (ت204هـ) وابا عمرو الشيباني (ت 206هـ) وقطرب (ت 206هـ)، ينظر المعجم العربي- حسين نصار.

(2) انساب الخيل –ابن الكلبي في مواضع متفرقة.

سريعاً، أما جسمه: فله خاصرتا ظبي، وساقا نعامة، وسرعة ذئب، وقفز ثعلب صغير، وهو قوي الاضلاع طويل الشعر الذنب، صلب الجسم كأنه صخرة من صخور العرائس التي تدق عليها الطيب او حجر يسحق عليه الحنظل، وقد أعد هذا الفرس للصيد، فتجد ماء الطرائد تسيل على صدره وتصبغه فكأنه عصارة حناء خالطت شيباً قد سرح ورجل، وعلى هذه الشاكلة يقدم امرؤ القيس صفات فرسه فيقول[1]:

وقد أغتدى والطير وكناتها
بمنجرد قيد الاوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من علِ

كميت يزل اللبد عن حال متنه
كما زلت الصفواء بالمتزل

مسح إذا ما السابحات على الونى
أثرن غبارا بالكديد المركل

على العقب جياش كأنه اهتزامه
إذا جاش فيه حميه غلي مرجل

يطير الغلام الخف عن صهواته
ويلوى بأثواب العنيف المثقل

درير كخذروُف الوليد أمره
تقلب كفيه بخيط موصل

له ايطلا ظبي وساقا نعامة
وارخاء سرحان وتقريب تتفل

كأن على الكتفين منه اذا انتحى
مداك عروس أو صراية حنظل

---

(1) ديوان امرئ القيس ص19- 23.

كـــأن دمـــاء الهاديـــات بنحـــره

عصـــارة حنـــاء بشـــيب مرجـــل

أما فرس عنترة فقد أعده للحرب والغارة، فهو فرس اصيل صبور جري، تحدث عنه في معلقته عند الحديث عن فروسيته، وقد وزع ذكره في ثنايا المعلقة فلم يجمعه في موضع واحد، فهو يسائل عبلة، ألم تسأل الخيل عنه وتستوضح أمر فرسانها ماذا كانت فعاله في الحرب، قد كان على صهوة جواد سريع لين الجرى كأنه يسبح في الهواء سباحة، وهو ضخم مرتفع، في صدره جروح من طعنات الفرسان وكذلك في جسمه آثار مما خلفته الرماح والقسى، على مثل هذا الفرس يغشى عنترة الحروب ويبلو البلاء الشديد، فإذا ما كانت الغنائم فهو يعف منها وينصرف عنها، ويسترسل في حديثه عن الحرب وشدة بلائه ثم يعود الى ذكر فرسه الذي يكر عليه ويخوض غمار المعركة، وتنهال عليه الرماح، فهي في صدر فرسه كأنها حبال مرسلة في بئر، وتسيل الدماء على صدره غزيرة كأنها سربال غطى جسمه، ويزور الفرس ويميل من شدة وقع الرماح وجراحها، وتسيل دموعه فهو يصهل ويحمحم مما به من ألم، ويتعاطف عنترة مع فرسه، ويشعر بالامة، فهو حيوان أعجم لو يستطيع الكلام لكلمه وحاوره وشكا اليه مما به، ومع ذلك كله ففرسه بين هذه الخيل وسط غبار المعركة عابساً يخوض الغمرات.

وقد أوْضَحَ عنترة حال الحيوان وعاطفته وقوته وشدته، ولم يقف عند جمال جسمه ووصف شياته وحسب، وقد أظهر صورته وأحواله من خلال الحرب ووصف القتال، يقول[1]:

---

(1) ديوان عنترة ص207- 209 و216- 219.

هلاّ سألت الخيل يابنة مالك
ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة سابح
نهد تعاوره الكماة مكلم
طورا يعرّض للطعان وتارة
يأوي الى حصد القسيّ عرموم
يخبرك من شهد الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم
لمّا رأيت القوم أقبل جمعهم
يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر في لبان الادهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلبانه
وشكا اليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
أو كان يدري ما جواب تكلمي
والخيل تقتحم الخبار عوابسا
ما بين شيظمة وأجرد شيظم
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر قدّم

وقد وصف الخيل كثرة من الشعراء، وشبهوها في سرعتها بالظبى والنعامة والذئب وحمار الوحش والباز والعقاب والطير، ولعل بيت النابغة في هذا المجال من خير ما وصفت به سرعة الخيل ومرورها مراً سريعاً عنيفاً

كالطير التي تهرب خفيفة نجاة من دَفْقَة المطر القوية[1]:

والخيـــل تنـــزع غربـــا في أعنتهـــا
كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

وقريب من هذا تشبيه لبيد لكتيبة فيها خيل سريعة كالحمام تباري الرماح عند العشي[2]:

ومُشْـعلةٍ رهـــوا كـــأن جيادهـــا
حمـــام تبـــاري بالعشـــي ســـوافلا

ووصفوا الثور والبقرة الوحشية، وأكثر ما يرد ذكرهما في سياق قصة من القصص، يستطردون اليهما حين يتحدثون عن الناقة فيشبهونها بهذه البقرة أو ذاك الثور الذي كان من أمره قصة يرونها تمثل صراع الثور مع كلاب الصيد او البقرة التي افترس السبع ولدها، فيروون قصتها الحزينة المؤثرة.

وأبرز من صور حزن البقرة على ولدها الذي أكلته السباع، لبيد في معلقته[3] وكذلك فعل زهير وكذلك الاعشى الذي ساق قصة البقرة المسبوعة وصراعها مع كلاب الصيد الكاسرة، ويتحدث الاعشى عن الوحوش التي تفترس ولد البقرة حين تواتيها الفرصة في غفلة من أمه، ثم يصور حال هذه البقرة التي كانت راتعة مع القطيع، فلما امتلأ ضرعها باللبن طلبت فصيلها لترضعه فلم تجد منه غير مزق وبقايا عظام ودم مسفوح، وباتت ليلتَها حزينة ثكلى، حتى اذا ذر قرن الشمس صبحها صائد من بني نبهان كأنه ذئب أغبر صحب كلاباً ضارية في أعناقها سيور، فإذا عدت هذه الكلاب فهي سهام منطلقة، يقول الاعشى مصوراً

---

(1) ديوان النابغة ص18.

(2) ديوان لبيد ص252.

(3) ديوانه ص307- 312.

هذه القصة[1]:

كأنها بعدما افضى النجاد بها
بالشيطين مهاة تبتغي ذرعا

أهوى لها ضابئ في الأرض مفتحص
للحم قدماً خفي الشخص قد خشعا

فظل يخدعها عن نفس واحدها
في أرض فيء بفعل مثله خدعا

حانت ليفجعها بابن وتطعمه
لحما فقد أطعمت لحما وقد فجعا

فظل يأكل منها وهي راتعة
حد النهار تراعي ثيرَةً رتعا

حتى اذا فيقة في ضرعها اجتمعت
جاءت لترضع شق النفس لو رضعا

عَجِلاً الى المعهد الأدنى ففاجاها
أقطاع مسك وسافت من دم دفعا

فانصرفت فاقداً ثكلى على حزَنٍ
كلُّ دهاها وكل عندها اجتمعا

وذاك إن غفلت عنه وما شعرت
أن المنية يوماً أرسلت سبعاً

حتى إذا ذر قرن الشمس صبحها
ذؤال نبهان يبغي صُحبه المتعا

بالي كلبي كسراع النبل ضارية
ترى من القدّ في أعناقها قطعا

فتلك لم تترك من خلفها شبها

---

(1) ديوان الاعشى ص84- 85.

الا الـــدوابرَ والاظـــلافَ والزمعـــا

وقد تناول لبيد وصف الثور وصراعه مع كلاب الصيد التي تركتها صريعة مضرجة بالدماء معفرة بالتراب، يقول[1]:

حتـى أشـبَّ لـه ضـراء مكلِّـب
يسـعي بهـن أقـبُّ كالسـرحانِ

فحمـى مقاتلـه وذاد بروقـه
حَمْـيَ المحـارب عَـورةَ الصُـحْبَانِ

شـزرا علـى نـبض القلـوب ومُقْـدماً
فكأنمـا يختلـها بسـنان

حتـى انجلـت عنـه عَمايـة نفْـرِهِ
فكـأن مَـرْعَاها ظـروف دنـان

وقد تناول غير شاعر صورة الثور وصراعه مع كلاب الصيد، وخروجه منتصراً، كالنابغة في قصيدته الدالية[2]، وزهير في قصيدته القافية[3]، وامرئ القيس في قصديته السينية[4]، وكذلك فعل أوس بن حجر والمتلمس وغيرهم، والملاحظ ان الثور يخرج من المعركة منتصراً مزهواً عند اكثر الشعراء، الا شعراء هذيل فإنهم يُمَكِّنونَ سهام الصائد من قلب الثور ويمكنون الكلاب منه، فتصرعه وترديه قتيلاً، وقد لاحظ الجاحظ ان الشعراء يجعلون كلاب الصيد هي التي تقتل بقر الوحش اذا كان الشعر في مجال الرثاء والموعظة، أما إذا كان الشعر مديحاً فتكون الكلاب هيَ المقتولة والثيران هي المنتصرة السالمة[5].

---

(1) ديوان لبيد ص145- 146.

(2) ديوان النابغة ص7- 12.

(3) ديوان زهير ص42- 48.

(4) ديوان امرئ القيس ص101- 104.

(5) الحيوان 20/2.

ومثلما شبهوا الناقة بالبقرة والثور وساقوا لكل منهما قصة، فقد شبهوا الناقة بحمار الوحش والاتان، ويتخذون التشبيه وسيلة للحديث عن قصة حمار الوحش مع كلاب الصيد، او مع آتانه التي تعاسره حيناً فيطاردها ويعارك الفحول ويناضل الحمر الاخرى ليتفرد بالتتان ويدفعها أمامه ويخلو بها بعيداً وهي تستجيب له تارة وتتمرد عليه أخرى، ويقضيان أشهر الشتاء راتعين يجتزئانِ بالرطب عن الماء، حتى إذا جاءت شهور الصيف انطلق بها يريد الماء، وتعدو الاتان وهو يتبعها يعدو على جانب منها تارة، ويرتقي النجاد والربايا يرقب الطريق تارة أخرى، وهما في هذا العدو يثيران غباراً كأنه غلالة رقيقة يتجاذبانها او دخان نار العرفج الساطعة، حتى إذا بلغا الماء شربا منه وخاضا فيه.

وقد تناول هذه القصة أكثر من شاعر، كامرئ القيس والنابغة وزهير، ولكنهم -فيما أحسب- لم يبدعوا في هذا الوصف مثلما أبدع لبيد في قصة الحمار والاتان، فقد سرد قصتهما في معلقته حيث يقول[1]:

أو ملمــع وســقت لأحقــب لاحــه
طرد الفحول وضربها وكدامها

يعلـو بهـا حـدب الإكـام مسحج
قـــد رابَـــهُ عصـــيانها ووحامهـــا

بـــاحزة الثلبـــوت يربـــأ فوقهـــا
قفـــرَ المراقـــب خوفهـــا آرامُهـــا

حتـــى إذا ســـلخا جمـــادى ســـتةً
جـــزءاً فطـــال صـــيامه وصـــيامُها

رجعـــا بامرهمـــا الى ذي مـــرَّةٍ
حَصِـدٍ ونجـــحُ صـــريمةٍ إبرامهـــا

ورَمَـــى دوابرهـــا السَّفَا وتهيجـــت

---

(1) ديوان لبيد ص304- 307.

ريح المصايف سَومُها وسِهامُها

فتنازعا سبطا يطير ظلاله

كدُخانِ مشعلة يشب ضِرامُها

مشمولة غُلِثتْ بنابت عَرْفَجٍ

كدخان نار ساطع أسنامُها

فمضى وقدّمها وكانت عادةً

منه إذا هي عردت اقدامُها

فتوسطا عرض السري وصدَّعا

مسجورةً متجاوراً قُلاّمُها

محفوفة وسط اليراع يظلها

منه مصرع غابة وقيامُها

وللحمار صفات وعلامات ذكروها، فهو شتيم الوجه، يسوق أتناً سمانا، قد شبع حتى بشم، ضخم غليظ سريع، إذا عدا لا يكبو ولا يتعثر، أسود اللون وقد يكون في حَقيبُه بياض، وهو كثير الشحيج، جرئ ضامر البطن، وقد يصفوه بصفات العقلاء، فسحيله يشبه صوت الانسان حين يدعو صاحبه، كما يقول[1]:

كأن سحيله في كل فجر

على أحساء يمؤود دُعَاءُ

ويعيره لبيد صفة الإنسان المفكر الذي يقلب الرأيَ على وجوهه، ويمنحه من الإنسان لهوه وطربه وغوايته، فإذا نهق فهو سكير أخذت الخمر منه كل مأخذ[2]:

يطرّبُ آناء النهار كأنه

غويٌ سقاه في التجار نديمُ

أميلت عليه قرقفٌ بابلية

---

(1) ديوان زهير ص70.

(2) ديوان لبيد ص96- 97.

لها بعدَ كأسٍ في الظلام هَميمُ

وقد تناول الشعراء الجاهليون كل ما وقعت أعينهم عليه من حيوان الصحراء، فقد وصفوا الذئب والقطاة والباز والعقاب واللقوة والغراب والنعامة والظليم والافعى والوعول والظباء، سواء أكان وصفهم لها مباشراً أم عن طريق التشبيه. فهم يشبهون المرأة الحبيبة بالظبية في جمال عنقها وعينها، ويشبهون الاطفال بالغزلان، يقول الحطيئة مشبها حبيبته بالظبية التي تتناول الغصن بظلفها إذا ارتفع عنها، ويصفها بحسن الجيد تزجي غزالاً وتتناول ثمر العضاة[1]:

كعاطيــــة مــــن ظبيــــاء السـيـل

حمــُـانةِ الجيــدِ تزجــي غــزالا

تعـــاطي العضـــاة إذا طالهـــا

وتقــرو مــن النبــت أرطــى وضــالا

ولا يفوتنا هنا جيد حبيبة امرئ القيس الذي هو (كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل).

وكثيراً ما يأتي وصفهم للحيوان مرتبطاً بذكر الديار مرتبطاً بذكر الديار التي خلت فسكنتها الوحوش وأطفلت فيها بعد ان نزل المطر وأينع النبت، فصارت مرتعاً ومراحاً، يقول زهير في ديار حبيبته[2]:

بهــا العــين والآرام يمشــين خلفــة

وأطلاؤهــا ينهض مـن كـل مجثم

ويتناول لبيد هذه الصورة فيوضح معالمها ويجلو مفاتنها وما فيها من حياة وحركة[3]:

فعـــلا فـــروع الايهقـــان وأطفلـــت

بالجلـــهتين ظباؤهـــا ونعامُهـــا

---

(1) ديوان الحطيئة ص214.

(2) ديوان زهير ص5.

(3) ديوان لبيد ص298- 299.

والعـين سـاكنةً علـى اطلائهـا
عـوذا تاجّـلَ بالفضـاءِ بهامُهـا

ولابد أن يرتبط ذكر الحيوان بذكر الصيد، فصراع كلاب الصيد مع البقرة أو الثور او الحمار او الاتان، وخلفها الصائد يترصد بسهامه، كل ذلك يثير في نفس الشاعر شعوراً بالمأساة والمغامرة، فقد عنوا بهذه المشاهد عناية كبيرة، تأملوا فيها ودققوا النظر في مشاهدها، وكثير هم الشعراء الذين برعوا بوصف الصيد، وكل له أسلوبه وصوره ولوحته، فمن أولئك زهير، ولبيد، والنابغة، وامرؤ القيس، وكان امرؤ القيس اكثر الجميع ذكراً للصيد، لانه أعد فرسه للنزه ومطاردة الحيوان، ومجالس اللهو التي تصيب نصيبها من لحوم الطرائد، فنجده في قصيدته البائية التي ذكر فيها أم جندب، يصور قطعياً من النعاج ترعى في خميلة، وهن لفتوتهن وصباهن كالعذارى اللواتي يَمِسْنَ بملاء مهدب، فينادي صحابه ان الجموا الفرس، قبل ان تُجْفِل النعاج فتهرب، وحملوا غلامهم على فرس شديد المتن، فانطلق كدفعة من مطر العشي القوي المتدافع وخلف وراءه سحابة من غبار، وراح الغلام يستحث فرسه ويزجره ويلذعه بساقه وسوطه، فانطلق الفرس يجود بكل نشاطه وسرعته، حتى أدرك القطيع، فأعمل فيه رمحه طعناً وضرباً، فصرع فريقا ونجا فريق، بفضل قرون حديدة كالمخرز.

وقد تهيأ للقوم طعام فنزلوا ونصبوا ثيابهم على أسنة الرماح تقيهم حر الشمس، فطعموا ورموا عيون الوحش، فبدت متناثرة حول رحالهم وأخبيتهم كأنها جزع لم يثقب، لما فيه من سواد وبياض ناصعين، وبعد أن طعموا وغادروا مجلسهم كانت مناديلهم أعراف الجياد يمسحون بها ما علق في أيديهم من دسم، وحملوا بقية الصيد على الخيول كأنها عدول التمر. وفي القصيدة تفصيل في كثير يوضح الصورة ويجلو مشاهدها،

يقول[1]:

فبينـــا نعـــاج يـــرتعين خميلـــة
كمشي العذارى في الملاء المهدب
فكـــان تنادينـــا وعقـــد عـــذاره
وقال صحابي قد شأونك فاطلب
فلأيـــا بـــلأي مـــا حملنـــا وليـــدنا
على ظهر محبوك السراة محنب
وولى كشـــؤبوب العشـــي بوَابـــلٍ
ويخـرجن مـن جعـد ثـراه منصَّب
فللســـوط الهـــوبٌ وللســـاق درَّةٌ
وللزجـر منـه وقـع أهـوجَ مِنْعَب

حتى إذا أدركهن صور مشهد القتال:

فعـــادى عـــداءً بـــين ثـــور ونعجـــةٍ
وبـين شَبُوبٍ كالقَضيمة قَرْهَب
وظـــل لـــثيران الصَّـــريمِ غمـــاغمٌ
يداعِسُـــها بالسَّـــمْهريَ المعلـــبِ
فكـابٍ علـى حُـرِّ الجبين ومُتَّقٍ
بمدريـــةٍ كأنهـــا ذَلْـــقُ مِشْـــعَبِ

ثم يدعو صحابه الى النزول فقد وجبت الوليمة:

وقلنـــا لفتيـــان كـــرام ألا انزلـــوا
فعـالوا علينـا فضـل ثـوب مُطَنَّب
وأوتـــــاده ماذيَّـــــةٌ وعمـــــادُه
رُدينيَّـــة فيهـــا أســـنَّةُ قعضـــب
وأطنـا بُـه أشـطان خـوصٍ نجائـبٍ
وصـهوته مـن أتحمـيٍّ مُشَـرْعَب

---

(1) ديوان امرئ القيس ص50- 55.

فلمــا دخلنــاه أضــقنا ظهورنــا

الى كـل حـاري حديـد مُشَـطَّبِ

كـأن عيونَ الـوحش حـول خبائنا

وأرحُلِنـا الجـزْعُ الـذي لم يُثَقَّـبِ

نَمُـشُّ بـأعراف الجيـاد أكفَّنــا

إذا نحـن قمنـا عـن شِـواءِ مُضَـهَّبِ

ورحنــا كأنــا جُــوءاتى عشـيةً

نُعـالي النعـاج بـين عـدْلٍ ومُحْقَـبِ

ولا ينس بعد ذلك فرسه وما لـه من قوة ومكانة في نفسه ونفس أصحابه، وما له من بلاء عظيم في الصيد بحيث تجد دماء الطرائد تسيل على صدره وتخالط لونه كأنها (عصارة حناء بشيب مخضب).

وعلى الرغم من أن عناية الشاعر الجاهلي بالحيوان كانت شديدة فائقة، فإنه كان يربط ذكر الحيوان بما يحيط به من طبيعة ساكنة، فلم ينس ان يتأمل في الصحراء ورمالها وديارها وأطلالها وما يمر عليها من رياح او سحب او مطر، ويتأمل كذلك في السماء والنجوم، وكان يشيم البرق ويستطلع الغمام ويذكر شدة الحر وقسوة البرد، ولا ينسى حظه من مجالس يعقدونها للهو وشرب الخمر وسماع الغناء.

لقد تأمل الشعراء الجاهليون في الليل وظلامه ونجومه المتلألئة وسحبه الداكنة والبرق الملتمع كأنه سيوف والمطر الهاطل الشديد، فافتنوا في كل ذلك، ولعل أبرز شاعرين عرفا بوصف المطر والبرق والليل هما لبيد وامرؤ القيس، فهما يقدمان لوحات رائعة مدهشة وبينهما شبه في موضوعيهما، فاما لبيد[1] فيوفر لصورته هذه كل أسباب الكمال، فهو يحدد الزمن بعد هذه من الليل حين نام أصحابه على شعب رحالهم، فهم على هذا في قافلة راحلة، وهو ينظر في جوف اليل وقد سهر لهذا البرق وصوبه نحو نجد، ولبيد وصحبه فيما يبدو في تهامة من أرض الحجاز،

---

(1) لبيد بن ربيعة للمؤلف ص265.

ويرسم لبيد صورة دقيقة رائعة حين يضيء البرق فيسطع ضوؤه على صفحة السحاب الاسود الكثيف المتدلى، وكأن الرائي يرى أحباشاً محاربين شديدي السواد شهروا حرابا بيض ساطعة، ويستعير الشاعر للرعد من الابل رغاءها حين تعزل عن صغارها وتمنع منها، فتحنّ اليها هادرة مرزمة، ويستعير من النساء النائحات نواحهن وندبهن ومن يحركن خرقاً سود يندبن ويلوحن بها، وقد لاحظ في ذلك لون قطع السحب السود حين تتحرك في كبد السماء، ولا يترك لبيد هذه الصورة دون أن يحققها ويستكمل جوانبها، فقد هطلت الامطار في موضع من ديار بني عامر من هذه السحب المتدلية التي يسطع فيها البرق فتبدو كأنها خيل فيها لونان: أسود وأبيض، البياض في بطون الخيل وصفاحها وهي ترمح عن صغارها، وتجمعت الامطار فإذا هي سيول في أرض شاسعة تمتد من جبل (دهر) حتى (أثال) وانحدر السيل فتدفق نحو (الملحين) فغطى جانبيه، وقد ذعرت الوحوش في جبل (صاحة) فانحطت هاربة مخافة أن يجرفها هذا السيل كما جرف أشجار الشث من أعلى الجبال، ولبيد بعيد عن هذه الديار، وهو على بعده يدعو لقومه بني مجد –وفيهم أسماء حبيبته– أن يرعوا نبت السماء ربيعا وصيفا هانئين منعمين مبرأين من كل داء او وباء. واقرأ قصيدة لبيد هذه، وقارنها بقصيدة امرئ القيس في وصف البرق والمطر الذي نزل الوحوش من أعاليها وأغرق الأرض(1)، فتجد لوحتين رائعتين لكل منهما طعم ومذاق ولون، يقول لبيد(2):

أصاح ترى بريقا هب وهنا
كمصباح الشعيلة في الذبال

---

(1) ديوان امرئ القيس ص24- 26 قوله:

أصاح ترى برقا- أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلل

(2) ديوان لبيد ص88- 93.

أرقـت لـه وأنجـد بعـد هـدء

واصـحابي علـى شـعب الرحـال

يضـيء ربابـه في المـزن حبشـا

قيامـا بـالحراب والإلال

كـأن مصـفحات في ذراه

وأنواحـا علـيهن المـآلي

فـافرع في الربـاب يقـود بلقـا

مجوفـة تـذب عـن السـخال

وأصـبح راسـياً برضـام دهـر

وسـال بـه الخمائـل في الرمـال

وحَطَّ وحوشَ صاحةَ من ذراها

كـأن وعولهـا رَمَـك الجمـال

علـى الاعـراض أيمـن جانبيـه

وأيسـره علـى كـورى أثـال

وأردف مزنـه الملحـين وبْـلا

سـريعاً صـوبه سـرب العزالـي

فبـات السـيل يركـب جانبيـه

مـن البقـار كالعمـد الثقـال

اقـول وصـوبه مـني بعيـد

يحـط الشـثَ مـن قُلَـلِ الجبـال

سـقى قـومي بـني مجـد وأسـقى

نمـيراً والقبائـلَ مـن هـلال

رَعَـوْهُ مرَبعـاً وتصَـيّفوهُ

بـلا وَبَإٍ سُـمَيٌّ ولا وَبَـالِ

ويطول بنا الكلام اذا وقفنا عند معالم الصحراء وهي كثيرة، فقد وصف الشعراء الجاهليون الرياض والديار والاطلال والدمن، وارتبط كل هذا بذكرياتهم وغزلهم، كما وصفوا الغارة والحرب والاسلحة وما

تخلفه الحرب من جرحى وقتلى ورؤوس مقطعة وأشلاء متناثرة في حومة القتال.

أما مجالس اللهو وحانات الخمر وما فيها من قيان ورقص وغناء، فقد وقفوا عندها وقفة هادئة متأملة فيها فن وابداع. وقد تناولوا الخمر ووصفوا مجالسها وأثرها في شاربيها[1] وذكروا لونها وصفاءها وطعمها وما تفعله في النفوس، وكان لحبهم للخمر ان شبهوا ريق محبوباتهم بالخمر طيبا ونكهة، يقول عبيد بن الابرص[2]:

لمن جمال قبيل الصبح مزمومه

ميممات بلاداً غير معلومةْ

فيهن هند وقد هام الفؤاد بها

بيضاء آنسة بالحسن موسومةْ

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت

صهباء صافية بالمسك مختومةْ

مما يغالي بها البياع عتّقها

ذو شارب أصهب يُغلي بها السِيمَة

وأكثر الشعراء الجاهليين ذكروا الخمر وافتخروا بشربها، لأن شربها من علائم السخاء والاريحية والكرم وانها تبعث في النفوس القوة والنشوة وتهز للكرم والعطاء، يقول حسان بن ثابت[3]:

ونشربها فتتركنا ملوكا

وأسداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاءُ

---

(1) للتوسع في شعر الخمر ينظر: تطور الخمريات في الشعر العربي- جميل سعيد ص34 وما بعدها وأساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة- محمد حسين ص36 وما بعدها، والحياة العربية من الشعر الجاهلي- أحمد الحوفي ص345 وما بعدها، وفن الشعر الخمري وتطوره عند العرب- ايليا حاوي ص11 وما بعدها.

(2) ديوانه ص127- 128.

(3) ديوان حسان ص4.

ويقول عمرو بن كلثوم [1]:

تجـورُ بـذي اللبانـةِ عـن هـواه
إذا مـا ذاقهـا حتـى يلينـا

تـرى اللَّحِـزَ الشـحيحَ إذا أمِـرَّتْ
عليـه لمالـه فيـه مهُينـا

وقد وصفوا سقاتها ولونها وطعمها قبل المزج وبعده، وأعجبهم شكلها في الكأس حين يطفو عليها الحبب [2]:

ثـم نـادوا علـى الصبوح فقامت
قينـة في يمينهـا ابريـقُ

قدَّمتـه علـى عُقَـارٍ كعيـن الديـ
ـكِ صَـفَّى سُلافَها الـراووقُ

مُـزَّةٌ قبـل مزجهـا فـإذا مـا
مُزِجَـتْ لَـذَّ طعمُهـا مـن يـذوقُ

وطفـا فوقهـا فقـاقيعُ كالـ
ـياقوتِ حمـرٍ يزينُهـا التصفيقُ

ولا نجد شاعراً جاهلياً يخلو شعره من ذكر الخمر والتفاخر بشربها أو وصف مجالسها والسعي الى حانوتها ومسبائها، ولكن أشهر شاعر أحب الخمر وأشاد بذكرها ووصف مجالسها وأثرها في النفوس هو الاعشى، فهو شاعر الخمر غير منازع، فهو يصور سعيه الى الحانوت ومعه صاحب خفيف سريع الى خدمته، وينظم الى رفقة من الندمان من كرام القوم، همهم ان ينالوا نصيبهم من ملاذ الحياة، ويضمهم مجلس للشرب حافل بضروب من العطر والازاهير، فشربوا خمراً مزة، فغلبتهم

---

(1) شرح المعلقات السبع- الزوزني ص118- 119.

(2) ديوان عدي بن زيد ص78.

وأسكرتهم، ولا يكاد أحدهم يصحو من سكرته الا صاح طالباً المزيد، ويطوف عليهم غلام يحمل كؤوس الخمر حاذق جيد الخدمة سريع الاجابة في أذنه لؤلؤة قد شمر ثيابه، ويستمعون في هذا المجلس الى ألحان العود الذي يرافقه صوت الصنج على ترديد قينة تسمعهم الغناء، وهي في ثوب خفيف لا يكاد يستر جسمها، وهكذا نجد الاعشى يتأنق في وصف هذا المجلس فيقول[1]:

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشلٌ شَوِلُ
في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ
نازعتهم قَضُبَ الريحان متكئاً
وقهوةً مُزّةً راووقُها خَضِلُ
لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ
إلاّ بهاتِ وأن عَلّوا وان نَهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف
مقلّصٌ أسفلُ السّربالِ معتملُ
ومستجيبٌ تخالُ الصّنجَ يسمعهُ
إذا ترجّعُ فيهِ القَينةَ الفَضُلُ

ووصف هذه المجالس كثير في شعر الاعشى، وفي كل مجلس يعرض صوراً ومشاهد جديدة بارعة رائعة، ويلاحظ ان الأعشى يقرن بين هذه المجالس وبين ما يكون فيها من معابثة القيان، ففي شعره ان القينة التي تعزف لهم وتطربهم، تلبس ثوباً خفيفاً معطرا بالمسك ملطخاً بالزعفران، وفيه فتق في موضع كمها يتسع لايدي الشاربين وعبثهم

---

(1) ديوان الأعشى ص45- 46.

يجسمها[1]:

وقـد أقطـعُ اليـومَ الطويـلَ بفتيَـةٍ
مسـاميح تسـقى والخبـاءُ مـروقُ
ورادعـة بالمسـك صـفراءَ عنـدنا
لجسِّ النـدامى في يـد الـدرع مفتقُ
إذا قلت غنّى الشرب قامت بمزهـرٍ
يكـاد اذا دارتْ لـه الكفُّ ينطقُ

ويشير الى أنهم يشربون الخمر طيلة النهار، حتى اذا جاء الليل آووا الى بيوت البغايا التي تكون قريباً من الحانات[2]:

ثـم راحـوا مغـربَ الشـمس الى
قَطَـفِ المشـي قليـلاتِ الحـزَنْ

وقد يصور الاعشى ما يكون بينه وبين البغايا من مجادلة ومساومة[3]، وقد يصف ما يكون بينه وبين الخمار من مساومة لشراء الخمر الجيدة، وحرص الخمار على فحص الدراهم وعلى الثمن الغالي الربيح. ولم يغادر الاعشى معنى من معاني الخمر او صفة من صفاتها الا ذكرها وافتن في وصفها وقد اجاد في تصوير أثرها في الشاربين وفعلها في الرؤوس والعظام والمفاصل[4]:

وصهباء صرف كلون الفصوص
بـاكرت في الصـبح سـوّارَها
فطـوراً تميـل بنـا مـرّةً
وطـوراً نعـالجُ امرارَهـا

---

(1) ديوان الأعشى ص147.

(2) المصدر السابق، ص228.

(3) القصيدة 78، البيت 8- 12 ص227.

(4) ديوان الأعشى ص214.

تكـــاد تُنْشَـــى ولـمّــا تـــدْقّ

وتغشـــى المفاصـــلَ اقتارهـــا

تـــدب لهـــا فـــترة في العظـــام

وتغشـــى الذؤابـــة فوّارهـــا

تمززتهـــا في بـــني قايبـــا

وكنــت علـى العلــم مختارهــا

وإذا عدنا الى الوصف بعامة نلقي نظرة على صفاته وخصائصه، فماذا نجد؟ ان الشاعر الجاهلي كان يحيط بالصورة احاطة تامة، فهو يستحضر دقائقها، ويحصر أطرافها، ويستقصي جوانبها مع دقة في التعبير ومهارة وحذق وروية واجالة نظر، والفن الجاهلي بسيط جميل من غير ضعف ولا تعقيد والبساطة مظهر من مظاهر البيئة، فالبادية واضحة بسيطة بساطة الصحراء ووضوح الشمس، لم تعقدها الحضارة ولم يفسدها الترف، ومع البساطة صدق في التعبير عن المشاعر والاحساسات، فالشاعر حين يصور عواطف الحيوان ومشاعره يصف الحاضر المشاهد من خلال عواطفه واحساساته هو من غير غلو ولا مبالغة ولا اسراف.

والوصف الجاهلي لوحات كاملة يوفر لها الشاعر كل أسباب الصورة الموحية المؤثرة، فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة وحتى الصوت في بعض الاحايين. وقد صوروا عواطف الحيوان ومرحه ونشاطه وسرعته وخوفه ووساوسه وحذره وجرأته وشدة بطشه، وقد أظهروا كل ذلك في القصص التي يسردونها عن الثور والبقرة وحمار الوحش والاتان، واتخذوا التشبيه وسيلة من وسائل الاداء وتقريب الصور البعيدة. ومن الشعراء من كان يعني بوصف ضخامة الحيوان والعناية بأعضائه ويفصل في وصف جوارحه وهيكله ولونه وحسن شياته، وقد أكدوا كذلك على الخصال المعنوية والاحوال النفسية، وقد ظهرت انسانيتهم من تعاطفهم مع الحيوان، فقد أضفوا عليه من صفات الإنسان وعواطفه وصفاته، فعبروا عن محنة الثور ومخاوفه حين يغشاه الليل

بظلامه وصمته فيلوذ بأرطاة وهو يرتجف من قرة ريح الشمال وشدة المطر، ومن مظاهر تعاطف الشاعر مع الحيوان ان جعله منتصراً في اكثر الاحوال في صراعه مع كلاب الصيد، فهو يجرحها ويصرعها.

وقد تتكرر الصور لدى الشعراء او لدى الشاعر الواحد، ومرجع ذلك الى البيئة المحدودة التي تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور، وهذه الصور وإن كانت متشابهة في اطارها العام، لكن لكل صورة معالجة معينة وتفصيلات خاصة بها. وعلى العموم فقد احتل فن الوصف مكاناً بارزاً ومساحة واسعة في شعر الشعراء الجاهليين.

الحكمة

الحكمة الجاهلية دليل على رقي عقلية الشعراء وتفكيرهم وتأملهم في قضايا الناس والحياة، وهي ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس واخلاقهم، والماضين ومصائرهم، وتأمل في سعي الانسان وغايته ونهايته، ثم احساس دقيق بالحياة.

لا أزعم أنها فلسفة ذات أصول او تفكير منظم وفق علم مدروس، بل هي الى الاحساس الذاتي والتأثر أقرب منها الى التفكير العلمي، فهي نظرات وانطباعات وتأمل في الحياة والموت، ومحاولات لسن نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، او ما ينكرونه من أفعال وعادات، ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجردة في متناول الفطرة السليمة تمليها التجربة والمشاهدة وفق مثلهم العليا السائدة في عصرهم، وكانت أفكارهم صدى لهذه التأملات والمشاهدات، تصاغ في بيت شعر أو مثل او عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة، تقع من النفس موقعها الاثير، فيقبل عليها السامعون يروونها ويحفظونها، وتغدو أمثالاً تجري على الالسنة على مر العصور، وقد وجدوا لها في أنفسهم أصداء فكتب للحكمة بذلك الدوام والبقاء.

وقد عرفت الحياة الجاهلية كثيراً من الحكماء ذاع صيتهم وعرفت حكمتهم، مثل قس بن ساعدة وقصي بن كلاب، ولقمان بن عاد، ولقيم بن لقمان وعامر بن الظرب، ومجاشع بن دارم، وأكثم بن صيفي، وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة[1]. وظهرت الحكمة في شعر شعراء الجاهلية مثل لبيد بن ربيعة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعبيد بن الابرص، وعدي ابن زيد العبادي، وأمية بن أبي الصلت، وأوس بن حجر، وذي الاصبع العدواني، وعلقمة بن عبدة، والافوه الاودي، وحاتم الطائي، وغيرهم كثير.

---

(1) البيان والتبين 365/1.

وقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلي، فقد أفادوا من خبرة الماضين وأخبار الملوك وقصص الأمم البائدة. وشهد بعضهم حياة طويلة حافلة، رأوا أجيالاً تمضي وأخرى تنشأ، وأصابوا من خير الحياة وشرها، وذاقوا حلوها ومرها، ففرحوا بما حبتهم، وحزنوا بما رزأتهم به من فقد ولد أو ذهاب حبيب، واعتبروا بكل ذلك، وكان من هؤلاء الشعراء الجاهليين من نظر واعتبر بالماضين، وتأمل في مصير الناس وغاية الحياة، ولجأوا أخيراً الى الله سبحانه، كما فعل لبيد وزهير، ومنهم من يصور ويخبر ويقص قصصاً دينياً كأمية بن أبي الصلت، ومنهم من يئس وتشاءم وهام وبكى كعدي ابن زيد، ومنهم من انصرف الى الحياة يلهو بها ويعب من ملذاتها ويعيش ليومه بل لساعته كطرفة بن العبد.

فأما لبيد[1] فحكمه منثورة في قصائد كثيرة، تأتي في نغمة روحية صافية، في سياق تسبيح الله وذكر الدين، وتأتي للعبرة والموعظة عند ذكر الماضين من الأمم والملوك، وتأتي في ثوب حزين كئيب حين يرثي أخاه ويبكي موتاه، وتأتي محملة بأثقال السنين فيها سأم وضجر من الحياة حين يتحدث عن الشيخوخة وتطاول العمر.

ومن جياد قصائده في الحكمة، قصيدته في رثاء أخيه أربد، وليس من الغريب أن يرتبط بالحكمة، فالرثاء يدعو الى التفكير في الحياة والموت والزمان، وتذكر الماضين الذاهبين فالشاعر في هذا يسجل تجاربه وخبراته في حكم يسوقها وأمثال يضربها، على شاكلة قوله[2]:

بُلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ
وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ

---

(1) ينظر كتابنا لبيد بن ربيعة ص333.

(2) ديوان لبيد ص168- 170.

وقد كنت في أكناف جار مضنة

ففارقني جار باربد نافعُ

فلا جَزِعٌ ان فرّقَ الدهرُ بيننا

وكل فتى يوما به الدهر فاجعُ

فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحة

ولا انا مما أحدث الدهر جازعُ

وما الناس الا كالديار وأهلها

بها يومُ حلوها وغَدواً بلاقعُ

وما المرءِ الا كالشهاب وضوئه

يحور رماداً بعدُ إذ هو مساطع

وما البر الا مضمراتٌ من التقى

وما المال الا معمراتٌ ودائعُ

وما المالُ والأهلونَ الاوديعة

ولابد يوماً ان تردَّ الودائعُ

فهو ينظر الى نفسه وإلى الناس، كلهم أبناء فناء صائرون الى بلى، وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة، فالنجوم طوالع، والجبال والبيوت ثابتة، ومن هؤلاء الذين أفناهم الدهر أخوه الذي يضن به ويحبه، وهو مع ذلك لا ييأس ولا يجزع على فراق أحبته ما دامت هذه هي سنة الحياة، لا يسلم من نوازل الدهر أحد، فقد كتب على الناس العذاب، ووقفت لهم المصائب في كل مرصد فصار مستهيناً بالدنيا، لا يفرح بشيء من متاعها، ولا يجزع إن ألمّتْ به المصائب أو نزلت عليه الكوارث، ويتأمل في الموت وفناء الناس، فيرى حالهم كهذه الديار التي تراها عامرة آهلة، وما هي الا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة وآثار بالية تتناوح بها الرياح وتسفى عليها التراب، والإنسان في سرعة زواله وفنائه يشبه النار ما أن تراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظات رماديا بالياً كابياً لا خير

فيه، والانسان في الحياة لا يملك شيئاً فما بيده من مال ان هو لا وديعة سرعان ما تسترد، وهو نفسه وديعة سيعود يوما الى بارئه، ويمضي مع الناس حين يمضون زرافات الى وادي الفناء كأنهم ابل يزجرها راعيها، يسوق ما تفرق منها ليضمه الى القطيع السائر، وهو هنا يؤكد حقيقة كبرى، هي ان الموت نصيب كل حَيّ ولا ينجو منه أحد.

وأما زهير فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية، فقد خبرها وعرف شرورها، وخبر أخلاق الناس ونوازعهم، فتراه يسوق حكمه بأسلوب وعظي حسي ملموس، يقدم بين يدي الناس نظرته الى الحياة، فالموت نصيب الإنسان لم يصبه اليوم فغدا، وإنْ أخطأه عاش دهراً فيهرم ثم يدركه الموت، والمرء مجبر في حياته ان يماشر الناس ويصانعهم وإلاّ ظلموه وأذلوه، أما المال فلا خير فيه اذا لم ينفق في صالح القوم ويبذل دون الشرف، والضعيف في مجتمع القوة لا خير فيه فإن لم يقو في حياته سحقه الاقوياء، والجبان في هذه الدنيا الخائف من منيته لا قرار له وهل يستطيع ان يتخذ له سلما في السماء؟ وعلى هذا النمط يعرض زهير أفكاره ويسوق مواعظه[1]:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطيء يعمر فيهرمِ

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍعَمِ

ومن لا يصانع في امور كثيرة

يُضَرَّسْ بانياب ويوطأ بمنسمِ

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله

على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويذممِ

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتم يشتمِ

---

(1) ديوان زهير ص29.

ومــن لا يــذد عــن حَوْضِـهِ بســلاحه

يهـدم ومـن لا يظلـم النـاس يظلـمِ

ومــن هـــاب أسـباب المنايـــا ينلنـــه

ولــو نــال أسـباب السـماء بسُلّمِ

وإذا كانت هذه نظرة زهير الى الدنيا وقد رضى منها بهذا الواقع السيء، فإن من الشعراء من حاول الهروب من هذا الواقع والتمرد عليه فالتمس طريقاً للهروب منه بأن اتخذ القوة والغارة والخمر واللهو واللذة والمجون سبيلا الى نسيان شبح الموت وبؤس الحياة، وكانت هذه هي فلسفة طرفة بن العبد في حياته، أن يعيش لساعته ويغنم من ملذات حياته القصيرة[1]:

ومـا زال تشـرابي الخمـور ولـذّتي

وبيعــي وانفـاقي طريفـي ومتْـدي

إلى أن تحـامتني العشـيرةَ كلـها

وأفــردتُ إفــرادَ الــبعير المعبَّــدِ

وما دام الموت مترصداً له وإذا استهدفه لا يخطئه، فلم الحذر منه والخوف من لقائه؟ وما دام الامر كذلك فقد رسم له نهجاً في الحياة أن يعب من لذاتها ما استطاع، ولذلك يجيب اللائمين ويلخص لهم مذهبه في الحياة[2]:

الا أيـذا الزاجـري أحضـرَ الـوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسـطيعُ دفع منيتي

فذرني أبادرها بما ملكت يدي

فلولا ثلاث هـن من حاجة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودي

---

(1) ديوان طرفة ص27.

(2) ديوانه ص27- 28.

وتسأل عن هذه الثلاث فيجيبك، انها الخمر والفروسية والغزل بالنساء، ويذكرها على هذا النظام[1]:

فمنهن سبقي العاذلات بشربة
كميت متى ما تُعلَ بالماء تُزْبِدِ

وكري اذا نادى المضاف محنباً
كسيد الغضا نبهتُه المتوردِ

وتقصيرُ يوم الدَّجن والدَّجن معجب
ببهكنة تحت الطِّراف المعمَّدِ

وقد يرى –من يرى– أن طرفة غوي ماجن، دفعه طيش الشباب الى ركوب هذا المسلك الوعر، ولكن طرفة يجيب هؤلاء بحكمة الشيوخ ويضعهم أمام صورة الموت وجهاً لوجه، يمثله لهم ويحدثهم عن العمر الذي ينقص كل يوم، الموت الذي يترصد بالناس ولا يخطئ منهم أحدا صغيرهم او كبيرهم، غنيهم او فقيرهم، فنصيب كل منهم جثوة من تراب، لا فرق بين جثوة الغنى وجثوة الفقير فكلهم تراب في تراب[2]:

أرى قبرَ نحامٍ بخيلٍ بماله
كقبر غويٍ في البطالة مفسدِ

ترى جُثوتين من تراب عليهما
صفائحُ صُمٌ من صفيح منضَّدِ

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مالِ الفاحش المتشدِّدِ

أرى المال كنزا ناقصا كلَّ ليلةٍ
وما تنقص الأيامُ والدهرُ ينفدِ

لعمرُك إنَّ الموتَ ما اخطأ الفتى
لكالطِوَلِ المرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ

---

(1) ديوانه ص29.

(2) ديوانه ص31- 32.

أما عدي بن زيد فيتخذ من التاريخ دروساً وعظات، يتفكر في مصير الناس وفناء الماضين وزوال النعم، وهو في مواضع كثيرة من شعره يقص على الناس أخبار الملوك والجبابرة الذين أبادهم الدهر وأخنى عليهم الزمان، ولذلك فلا مطمع في الدنيا ولا مأمن من غدرها، فالانسان ضيف في هذه الدنيا مسافر في طريق الفناء، فلا يغرنك ما تراه من رفاه الناس وما عليهم من نعمة وترف، يقول[1]:

مــن رآنــا فليحــدّث نفسَــهُ
أنــه مــوفٍ علــى قــرنِ زَوال

وخطــوب الــدهر لا يبقــى لهــا
ولمــا تــأتي بــه صُــمُّ الجبــالْ

رُبَّ ركــبٍ قــد أنــاخوا عنــدنا
يشــربون الخمــرَ بالمــاءِ الــزُلالْ

والأبــــاريقُ علــــيهم فــــدم
وعتــاقُ الخيــلِ تــردي في الجــلالْ

عمــروا دهــراً بعــيش حَسَــنٍ
آمنــي دهــرهم غــير عِجّــالْ

ثــم أضــحوا أخنــعَ الــدهرُ بهــمْ
وكــذاك الــدهُر يــودي الجِبَــالْ

وكــذاك الــدهر يرمــي بــالفتى
في طــلاب العيش حــالاً بعــدَ حَــالْ

ومن الشعراء من يتجه في نفسه وافكاره الى الله، مثل لبيد، الذي كان في جاهليته -ككثير من رجالها- يومن بالله وحده ولا يشرك به أحدا، فهو يدري ان كل شيء يؤول الى الله، وإن كل ما في الدنيا هالك الا وجهه، وإن كل نعيم في الحياة مصيره الزوال، وإن الناس

---

(1) ديوان عدي ص82- 83.

يذلهم الموت ويفرق شملهم، وكل امرئ صائر الى يوم حساب، يوم تكشف أعمال الناس فيعلم كل منهم ما قدمت يداه ويعرف حقيقة مسعاه[1]:

أرى الناس لا يدرون ما قدْر أمرهمْ
بلى: كلُّ ذي لُبٍّ الى الله واسِلُ
ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ
وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائِلُ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينَهمْ
دويهيَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ
وكل امرئ يوماً سيعلمُ سعيَهُ
إذا كُشِفَتْ عند الاله المحاصلُ

هذا ضرب من الحكمة تناول القضايا الكبرى في الحياة، وهناك ضرب آخر اتجه الى الناس وأخلاقهم وطباعهم والشكوى من أذاهم وما جبلوا عليه من غدر وخديعة او طمع وبخل وجبن، فهذا أوس بن حجر يبصر بصنف من الناس[2]:

فإني رأيت الناس إلا أقلَّهمْ
خفافَ العهود يكثرون التنقلا
بني أمِّ ذي المال الكثير يرونه
وان كان عبداً سيد الامر جحفلا
وهم لمقلِّ المالِ أولادُ علّةٍ
وإن كان محضاً في العمومة مخولا
وليس أخوك الدائم العهد بالذي
يذمُّك إنْ ولّى ويرضيك مقبلا

---

(1) ديوان لبيد ص255.

(2) ديوان اوس بن حجر ص91- 92.

ولكن اخوك النائي ما دمت آمناً

وصاحبك الأدنى اذا الامر أعضلا

أما علقمة بن عبدة فيبين طبيعة المرأة وما جبلت عليه من حب للشباب والغنى فيقول[1]:

فإن تسألوني بالنساء فانني

بصير بأدواء النساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء او قل ماله

فليس له من ودهن نصيبُ

ويوجز زهير خبرته بالناس ويبصر بأخلاقهم ودخائل نفوسهم فيقول[2]:

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه

ومن لا يكرِّمْ نفسَهُ لا يُكرَّمِ

ومهما تكن عند امريء من خليقةٍ

وأن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ

زيادتُهُ او نقصهُ في التكلمِ

لسانُ الفتى نِصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ

فلم يبقَ الا صورةَ اللحمِ والدمِ

والملاحظ في الحكمة أنها تلخص تجربة الشاعر ونظرته الى الحياة والناس، وقد جاءت بعامتها في أسلوب واضح سهل بعيد عن الغريب والتكلف، وقد تغلب على الحكمة مسحة من الحزن والعاطفة التي يشيع فيها الالم والحسرة والتشاؤم، وذلك لارتباط الحكمة بالرثاء من ناحية، وللتفكر بمصير الناس والموت والفناء من ناحية ثانية، ويتضح فيها أثر السن وخبرة الأيام، ففيها تجارب ذاتية، وفي بعضها وعظ وارشاد ونصح

---

(1) ديوان علقمة بن عبدة ص35- 36.

(2) ديوان زهير ص32، والبيتان الاخيران من شرح المعلقات السبع- الزوزني ص89.

وهداية.

وأكثر شعرِ الحكمة جاء في تضاعيف القصائد الطوال أو في نهايتها، ويكون الانتقال اليها من شعر الخمرة واللهو، فهو صحوة بعد سكرة العبث، أو مرتبطا بالرثاء لأنه حديث عن الموت أو يكون متعلقاً بالديار لأنها تذكر بالزوال والفناء، او ختماً لقصيدة يلخص فيها خبرته ونظرته في الناس والحياة، ولا نعدم أن نجد بعض القصائد تنفرد بموضوع الحكمة ولا تشرك به غيره ويكثر ذلك في شعر عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت، ولا يخلو ديوان شاعر من الحكمة التي تفكر في الحياة ومصير الإنسان والزمان واحداثه والدهر وتقلباته والناس وأخلاقهم وطباعهم والاقوام التي كانت والامم التي صارت أحاديث وذكريات.

مصادر البحث ومراجعه

- ✓ إحياء علوم الدين- الغزالي: أبو حامد محمد بن أحمد (ت 505 هـ) ط الحلبي، مصر 1939م.
- ✓ الاخبار الطوال- الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282 هـ) ط وزارة الارشاد القومي، مصر.
- ✓ أدب الكتاب- الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335 هـ) تحقيق محمد بهجة الاثري، ط مصر 1341ه.
- ✓ الازمنة والامكنة- المرزوقي: أحمد بن محمد بن الحسن (ت 21، هـ) ط دائرة المعارف، الهند 1332هـ.
- ✓ أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين- محمد محمد حسين، ط دار نشر الثقافة، الاسكندرية مصر 1960م.
- ✓ أسباب نزول القرآن- الواحدي: علي بن أحمد النيسابوري تحقيق أحمد صقر، ط مصر.
- ✓ الاستيعاب في معرفة الاصحاب –ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله النمري (ت 463 هـ) تحقيق محمد البجاوي، ط نهضة مصر.
- ✓ أسد الغابة في معرفة الصحابة –ابن الاثير: علي بن محمد بن الجزري (ت 630) ط المكتبة الاسلامية، طهران.
- ✓ أسماء جبال تهامة وسكانها- عرام بن الاصبغ السلمي (ت القرن الثالث الهجري) تحقيق عبد السلام هارون، ط سنة 1373ه.
- ✓ أسماء خيل العرب وفرسانها- ابن الاعرابي: محمد بن زياد (231 هـ) تحقيق جرجي لوي دلافيدا، ط بريل 1928م.
- ✓ الاصمعيات- الاصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ) تحقيق شاكر وهارون، ط دار المعارف مصر 1955م.
- ✓ الأصنام- ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السائب (ت 205 هـ) تحقيق أحمد زكي، ط دار الكتب المصرية 1924م.

- ✔ اعجاز القرآن- الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ) تحقيق السيد أحمد صقر، ط الدار المعارف مصر 1963م.
- ✔ أعجب العجب في شرح لامية العرب- الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ) ط حجر، مصر.
- ✔ الأغاني- الاصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين الاموي (356هـ) ط دار الكتب وبولاق وليدن وساسي، حسب ما يشار في الهامش.
- ✔ الأمالي (وذيل الأمالي والنوادر) القالي: أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي (ت 356هـ)، ط السعادة، مصر 1953م.
- ✔ الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد)- الشريف المرتضى: علي بن الحسين العلوي (ت 436هـ). تحقيق أبي الفضل ابراهيم، ط الحلبي مصر 1954م.
- ✔ الانباه على قبائل الرواة- ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله النمري (ت 463هـ) ط القاهرة 1350هـ.
- ✔ انباه الرواة على انباء النحاة- القفطي: جمال الدين علي بن يوسف (646هـ) تحقيق أبي الفضل ابراهيم، ط دار الكتب المصرية 50-1955م.
- ✔ أنساب الاشراف- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (279هـ) الجزء الأول ط دار المعارف والجزء الخامس ط القدس.
- ✔ أنساب الخيل- ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السائب (ت 206هـ) تحقيق أحمد زكي، ط دار الكتب المصرية 1946م.
- ✔ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن ابن ابي بكر (ت 911هـ). ط السعادة القاهرة 1326هـ.
- ✔ بلاغات النساء- ابن طيفور: أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني (ت280هـ) ط القاهرة 1908م.
- ✔ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب- الآلوسي: محمود شكري (ت1342م) تحقيق الاثري ط سنة 1924م.

- البيان والتبيين- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) تحقيق عبد السلام هارون، ط الحلبي مصر 1945، وط لجنة التأليف سنة 1948م.
- تاج العروس –الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني (ت 1205 هـ) ط الخيرية، مصر 1306هـ.
- تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)- ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت 808هـ) ط دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956م.
- تاريخ آداب اللغة العربية –جرجي زيدان، ط الهلال، القاهرة 1957م.
- تاريخ الادب العربي –بروكلمان: كارل، ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف، مصر 1960م.
- تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي)- بلاشير: ريجيس ترجمة ابراهيم كيلاني، ط دمشق 1956م.
- تاريخ الجاهلية –عمر فروخ ط بيروت 1964.
- تاريخ الشعر العربي- نجيب محمد البهبيتي ط دار الكتب المصرية، مصر 1950م.
- تاريخ الطبري- الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ) ط أوربا وط الحسينية.
- تاريخ العرب الأدبي –نيكلسون: رينولد، ترجمة صفاء خلوصي، ط دار المعارف، بغداد 1970م.
- تاريخ العرب قبل الاسلام –جواد علي، ط المجمع العلمي العراقي، بغداد 1956م.
- تاريخ العرب (مطول)- فليب حتى وجرجي جبور، ط الكشاف، بيروت 1952م.
- تاريخ اليعقوبي- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت 282 هـ) ط الغري، النجف 1358هـ

- ✓ تجارب الأمم –ابن مسكوية: أبو علي أحمد بن محمد (ت 421هـ) نشر كياتاني، ط ليدن 1909م.
- ✓ تزيين الاسواق بتفضيل أشواق العشاق– الأنطاكي: داود بن عمر (ت 1008هـ) ط مصر 1291هـ.
- ✓ تصور الخمريات في الشعر العربي– جميل سعيد، ط الاعتماد، مصر 1945م.
- ✓ تفسير الكشاف –الزمخشري: محمود بن عمر (ت 538هـ) ط مصر.
- ✓ التنبيه على أوهام ابي علي في أماليه– البكري: عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ) ط السعادة، مصر 1954م.
- ✓ جزيرة العرب في القرن العشرين– حافظ وهبة، ط القاهرة 1946م.
- ✓ جمهرة أشعار العرب– القرشي: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب. ط بيروت 1963م.
- ✓ جمهرة أنساب العرب– ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد الاندلسي (ت 456هـ) تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف مصر 1962م.
- ✓ حديث الاربعاء –طه حسين، ط الحلبي، مصر 1925م.
- ✓ حماسة البحتري– البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (ت 284هـ) تحقيق لويس شيخو، ط الكاثوليكية بيروت 1910م.
- ✓ حماسة ابن الشجري –ابن الشجري: هبة الله علي بن حمزة العلوي (ت542هـ) ط دائرة المعارف العثمانية، الهند 1345 وط دمشق 1970م.
- ✓ الحماسة البصرية– البصري: صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري (ت 659هـ) تحقيق مختار الدين احمد، ط الهند 1964م.
- ✓ الحياة العربية في الشعر الجاهلي– أحمد محمد الحوفي، ط 3 نهضة مصر 1956 وط نهضة مصر 1962م.
- ✓ الحيوان– الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ) تحقيق عبد السلام هارون، ط الحلبي 1945م.

- ✓ خزانة الادب- البغدادي: عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ) ط بولاق مصر 1299هـ
- ✓ الخصائص- ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) ط دار الكتب المصرية 52- 1956م
- ✓ الخيل –الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ) تحقيق هافنر، ط فيينا 1885م
- ✓ الخيل –أبو عبيدة: معمر بن المثنى (ت 210هـ) ط حيدر آباد، الهند 1358هـ.
- ✓ ديوان الاعشى –الأعشى: ميمون بن قيس (ت 629م) تحقيق رودلف جاير.
- ✓ جاير، ط بيانه 1927م. وط محمد حسين، مكتبة الجماميز.
- ✓ ديوان امرئ القيس –امرؤ القيس بن حجر الكندي: تحقيق أبو الفضل ابراهيم، ط دار المعارف مصر 1958م
- ✓ ديوان أوس بن حجر –تحقيق محمد يوسف نجم، ط صادر بيروت 1960م.
- ✓ ديوان جرير- جرير بن عطية بن الخطفى (ت 110هـ) تحقيق نعمان أمتن ط ، دار المعارف مصر 1971م.
- ✓ ديوان جميل- جميل بن معمر العذري (ت 82 هـ) تحقيق حسين نصار ط مصر 1967م.
- ✓ ديوان حاتم الطائي- حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي (ت 578م) ط لندن 1872م.
- ✓ ديوان حسان بن ثابت- حسان بن ثابت الأنصاري (ت 54 هـ) ط ليدن 1910م وط السعادة مصر بلا تاريخ.
- ✓ ديوان الحطيئة- جرول بن أوس (ت 30 ه) تحقيق نعمان آمين طه، طه الحلبي مصر 1958م.

✓ ديوان الخرنق –الخرنق بنت بدر بن هفان (ت 574م) ضمن رياض الادب في مرائي شواعر العرب، جمع لويس شيخو، ط بيروت 1897م.
✓ ديوان الخنساء- الخنساء: تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية (ت 24هـ).
✓ أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء. تحقيق لويس شيخو، بيروت 1896م.
✓ ديوان زهير –زهير من أبي سلمى الزمني الغطفاني (ت 609م) ط دار الكتب المصرية 1944م.
✓ ديوان سراقة البارقي- سراقة بن مرداس البارقي الازدي (ت 79هـ) تحقيق حسين نصار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1947م.
✓ ديوان السموأل- السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي (ت 560م) تحقيق لويس شيخو، ط الكاثوليكية بيروت 1920م.
✓ ديوان الشنفري- الشنفري: عمرو بن مالك الازدي (ت 525م) ضمن الطرائف الأدبية، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط القاهرة 1937م.
✓ ديوان طرفة –طرفة بن العبد البكري (ت 564م) شرح الأعلم الشنتمري. تحقيق مكس سلغون، ط باريس 1900م.
✓ ديوان طفيل الغنوي- طفيل بن عوف الغنوي (ت 610م) ط لندن 1927م.
✓ ديوان عبيد بن الأبرص- تحقيق لايل، ط دار المعارف مصر، بلا تاريخ، وط حسين نصار 1957م.
✓ ديوان عدي بن زيد –عدي بن زيد العبادي (ت 590م). تحقيق محمد جبار المعيد، ط بغداد 1965م.
✓ ديوان عروة بن الورد- عروة بن الورد العبسي (ت 594م) ط ابن أبي شنب، الجزائر 1926م وط دمشق 1966م.
✓ ديوان علقمة الفحل- علقمة بن عبدة (ت 603م) ط لطفي الصقال، حلب 1969م.

- ديوان عمرو بن معد يكرب- عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت 642م) تحقيق هاشم الطعان، ط بغداد 1970م.
- ديوان عنترة- عنترة بن شداد العبسي (ت 600م) تحقيق محمد سعيد مولوي، ط المكتب الإسلامي دمشق 1970م.
- ديوان الفرزدق -همام بن غالب بن صعصعة (ت 110ه) تحقيق الصاوي، ط مصر 1936م.
- ديوان لبيد -لبيد بن ربيعة العامري (ت 40 هـ) تحقق احسان عباس، ط الكويت 1962م.
- ديوان المتلمس -جرير بن عبد العزي الضبعي (ت 569م) تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية 1970م.
- ديوان المثقب العبدي- العائذ بن محصن بن ثعلبة (ت 588م) تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط المعارف بغداد 1956م.
- ديوان النابغة الذبياني- زياد بن معاوية (ت 604م) صنعة ابن السكيت، تحقيق شكري فيصل، ط بيروت 1968م.
- ديوان الهذليين- ط دار الكتب المصرية 45- 1950م.
- رسالة التربيع والتدوير- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 225 ه) تحقيق شارل بلا، ط دمشق 1955م
- رياض الأدب في مراثي شواعر العرب- جمع وتحقيق لويس شيخو، بيروت 1897م.
- الروض الانف- السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي (ت 581ه) ط سنة 1914م.
- زهر الآداب- الحصري: ابراهيم بن علي (ت 453ه) تحقيق علي محمد البجاوي، ط الحلبي مصر 1953م.
- السيرة النبوية- ابن هشام: عبد الملك بن هشام (ت 218ه) تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ط الحلبي مصر 1955م.

- ✔ شرح أشعار الهذليين- السكري: أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت 275هـ) تحقيق عبد الستار فراج، ط المدني القاهرة 1965م.
- ✔ شرح ديوان الحماسة- التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي (ت 520هـ) ط بولاق 1296 هـ وط السعادة مصر 1346هـ.
- ✔ شرح ديوان الحماسة- المرزوقي: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين (ت 421هـ) تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط لجنة الترجمة والتأليف والنشر 1951م.
- ✔ شرح المعلقات العشر- التبريزي: يحيى بن علي (ت 520هـ) تحقيق فخر الدين قباوة، ط حلب 1969م.
- ✔ شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات- ابن الانباري: أبو بكر محمد بن القاسم (328هـ) تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف مصر 1963م.
- ✔ شرح المعلقات السبع- الزوزني: أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 486م) ط صادر بيروت 1958م.
- ✔ شرح المعلقات التسع- النحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النصري (ت 338هـ) مخطوط في دار الكتب المصرية رقم 460 وطبع بتحقيق أحمد خطاب، بغداد 1973م.
- ✔ شعراء النصرانية –لويس شيخو اليسوعي (ت 1927م) ط الآباء اليسوعيين، بيروت 1927م.
- ✔ الشعر الجاهلي- فؤاد افرام البستاني –سليلة الروائع. ط الكاثوليكية. بيروت 1927 وط الرابعة 1958م.
- ✔ الشعر الجاهلي –محمد النويهي ط الدار القومية، القاهرة بدون تاريخ.
- ✔ شعر مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي –ابتسام مرهون الصفار، ط الارشاد، بغداد 1968م.
- ✔ شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه –يحيى الجبوري، ط مكتبة النهضة بغداد 1964م.

- ✓ الشعر والشعراء –ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ) تحقيق أحمد شاكر، ط دار المعارف مصر 66- 1967م.
- ✓ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي- يوسف خليف. ط دار المعارف. مصر 1959م.
- ✓ شعر الوقوف على الاطلال –عزة حسن، ط الترقي، دمشق 1968م.
- ✓ الشعر المفتعل الموضوع عند ابن سلام –علي جواد الطاهر بحث في مجلة الأداب عدد 12 كانون أول 1965 بيروت.
- ✓ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)- الجوهري: أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت 368هـ) تحقيق عبد الغفور عطار، ط مصر 1956م.
- ✓ صحيح البخاري –البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت 256هـ) ط أوربا.
- ✓ صحيح مسلم- مسلم: ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط مصر 1955م.
- ✓ صفة جزيرة العرب - الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد (ت 334 هـ) نشر محمد النجدي، ط السعادة مصر 1953م.
- ✓ الصناعتين- العسكري: ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395هـ) تحقيق البجاوي وأبو الفضل، ط الحلبي مصر 1952م.
- ✓ طبقات الأمم –صاعد الاندلسي: القاضي أبو القاسم صاعد بن احمد (ت 462هـ) ط السعادة مصر.
- ✓ طبقات فحول الشعراء- الجمحي: محمد بن سلام (ت 231هـ) تحقيق محمود شاكر، ط دار المعارف مصر 1952م.
- ✓ الطبقات الكبرى- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت 230هـ) تحقيق سخو، ط ليدن 1322هـ.
- ✓ الطرائف الأدبية- تحقيق عبد العزيز الميمني. ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1937م.

- العرب قبل الإسلام- جرجي زيدان، ط بعناية حسين مؤنس، دار الهلال مصر.
- العصر الجاهلي- سوقي ضيف، ط دار المعارف، مصر 1960م.
- العقد الفريد- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الاندلسي (ت 328هـ) تحقيق أحمد امين والزين والابياري، ط لجنة التأليف مصر 48-1950م العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين- الوارد ط ليدن.
- العمدة- ابن رشيق: الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456هـ) نشر محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة مصر 1955م.
- عيون الأخبار- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (276هـ) ط دار الكتب المصرية 1925م.
- الغزل في العصر الجاهلي –أحمد محمد الحوفي، ط الثانية نهضة مصر 1961م.
- الفائق في غريب الحديث والاثر- الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ) تحقيق البجاوي وأبي الفضل، ط القاهرة 1945م.
- فتوح البلدان- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ). ط المصرية 1932م.
- فجر الإسلام- أحمد أمين، ط السابعة، مط النهضة مصر.
- فقه اللغة- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت 429هـ) نشر سليجمان، ط اوربية.
- فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب- ايليا حاوي، ط دار الثقافة، بيروت بدون تاريخ.
- الفهرست- ابن النديم: محمد بن اسحاق بن يعقوب (ت 385هـ) ط التجارية مصر 1348هـ، ط لا يبزك 1871م.
- في الأدب الجاهلي –طه حسين، طه الحلبي مصر 1937م.

- في الشعر العربي القديم ونقده- عبد الجبار المطلبي. بحث في مجلة كلية الآداب، بغداد نيسان 1964م.
- الكامل في التاريخ -ابن الاثير: علي بن محمد بن الجزري (ت 630هـ). ط المنيرية مصر 1349هـ.
- الكامل في اللغة والأدب- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد الثمالي الازدي (ت 285هـ) تحقيق زكي مبارك ثم احمد شاكر، ط الحلبي مصر 1937م.
- كتاب المطر (ضمن البلغة في شذور اللغة)- ابو زيد الانصاري: سعيد بن اوس بن ثابت (ت 215هـ). ط لويس شيخو، بيروت 1908م.
- القاموس المحيط- الفيروزابادي: محمد بن يعقوب (ت 816هـ) ط الثانية، مصر بدون تاريخ.
- كتاب الأشربة- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ) تحقيق محمد كرد علي، ط دمشق 1947م.
- كتاب الانواء في مواسم العرب- ابن قتيبة: تحقيق شالك بيلا. ط الند 1956م.
- كشف الظنون- حاجي خليفتك مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت 1066هـ) ط مصر 1274هـ.
- الكواكب السائرة- نجم الدين الغزي، ط بيروت 1945م.
- لبيد بن ربيعة العامري- يحيى الجبوري. ط بيروت 1970م.
- لسان العرب -ابن منظور: محمد بن المكرم الأنصاري (ت 711 هـ) ط الاميرية بولاق 1300 هـ.
- المثل السائر- ابن الاثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني (ت 637هـ). تحقيق الحوفي وطبانة، ط نهضة مصر 1962م.
- مجمع الامثال -الميداني: احمد بن محمد النيسابوري (ت 518هـ) نشر محيي الدين عبد الحميد. ط السعادة مصر 1959م.

- ✓ محاضرات في تاريخ العرب- صالح احمد العلي، ط بغداد 1964م.
- ✓ المحبر- محمد بن حبيب (ت 245هـ) ط الهند 1942م.
- ✓ مختصر الدول- ابن العبري: ابو الفرج غريغوريوس بن هارون المالطي (ت 685هـ) ط بيروت.
- ✓ المختصر في أخبار البشر- ابو الفداء: عماد الدين اسماعيل صاحب حماة (ت 732هـ) ط الحسينية مصر.
- ✓ مختصر كتاب البلدان- ابن الفقيه: احمد بن محمد الهمذاني (ت 365هـ) نشر دي غويه، ط ليدن 1885م.
- ✓ المرأة في الشعر الجاهلي- احمد محمد الحوفي ط نهضة مصر 1954م.
- ✓ مراتب النحويين- أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي الحلبي (ت 351 م) تحقيق أبي الفضل ابراهيم. ط نهضة مصر 1955م.
- ✓ مروج الذهب –المسعودي: علي بن الحسين (ت 345 هـ) ط محيي الدين عبد الحميد مصر.
- ✓ المزهر –السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ) تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبي الفضل. ط الحلبي بدون تاريخ.
- ✓ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية –ناصر الدين الأسد، ط دار المعارف. مصر 1956م.
- ✓ المعارف- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ) دار الكتب المصرية، مصر 1960م.
- ✓ معلقات العرب- بدوي أحمد طبانة، ط الرسالة، مصر 1958م.
- ✓ معجم الادباء- ياقوت: ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ) تحقيق مجليوث. ط هندسية مصر 23- 1925م.
- ✓ معجم البلدان- يقاوت ط لا يبزك 1866م .
- ✓ معجم الشعراء –المرزباني: أبو عبيد محمد بن عمران (ت 384هـ) تحقيق عبد الستار فراج، ط مصر 1960م.

✓ معجم ما استعجم –البكري: ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ) تحقيق مصطفى السقا، مصر 1945م.
✓ معجم المطبوعات العربية والمعربة- سركيس: يوسف اليان، ط مصر 1928م، المغازي (مغازي رسول الله)- الواقدي: محمد بن عمر (ت207هـ) ط السعادة، مصر 1367هـ
✓ المفضليات –الضبي: المضل بن محمد (ت 178هـ) تحقيق لايل، ط اوكسفورد 1920م. وتحقيق شاكر وهارون. ط دار المعارف مصر 1964.
✓ مقدمة ابن خلدون- عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت 808 هـ) ط مصطفى محمد بدون تاريخ.
✓ الملل والنحل- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ) نشر محمد بدران، القاهرة 1947م.
✓ المنتظم –ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي (ت 567هـ) ط حيدر آباد 1359هـ
✓ المتصفات –جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي. ط دمشق 1967م.
✓ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء- المرزباني: أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، ط نهضة مصر 1965م.
✓ حبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد- محمد الجزائري، الأهلية. بيروت 1326هـ.
✓ نزهة الألباء- ابن الأنباري: أبو البركات كما الدين عبد الرحمن بن محمد(ت 577هـ) تحقيق ابراهيم السامرائي، ط بيروت 1970م.
✓ نسب قريش –المصعب الزبيري: أبو عبيد الله المصعب بن عبد الله (ت 236م) تحقيق ليفي بروفنسال، ط دار المعارف مصر 1953م
✓ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي- عبد الحميد لمسلوت، ط مصر

بدون تاريخ النقائض- أبو عبيدة: معمر بن المثنى (ت 210هـ) تحقيق بيفان، ط ليدن 1905م.

- ✓ نقد الشعر –قدامة بن جعفر (ت 310هـ) نشر كمال مصطفى، ط مصر 1948، وط بريل.
- ✓ نهاية الأرب- النويري: أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ) ط دار الكتب المصرية، مصر 1929م.
- ✓ النهاية في غريب الحديث والأثر- ابن الاثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت 606 هـ) ط حجر.
- ✓ الوحشيات –أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ) تحقيق عبد العزيز الميمني. ط دار المعارف، مصر 1963م.
- ✓ الوساطة بين المتنبي وخصومه- الجرجاني: علي بن عبد العزيز (ت 366هـ) ط دار إحياء الكتب العربية، مصر 1945م.
- ✓ وفيات الأعيان- ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ) تحقيق احسان عباس، ط دار الثقافة بيروت.
- ✓ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية- محمد محمد حسين. ط الآداب، الاسكندرية 1947م.
- ✓ Duda Bukhsh: Contributions to the History of Islam Civilization Calcute 1930.
- ✓ Nicholson (R.A): A Literary History of the Arabs. Lonodon. 1941.
- ✓ O'leary (De Lacy): Arabia before Mohammad 1927.
- ✓ R.Smith: Kinship and Marriage in old Arabia.
- ✓ Sayce (A.H): Early Israel.
- ✓ Von Kremer: Ueber die Cedichte Des Labyd. Wien 1880.
- ✓ Perceval (Cossin de): Essai sur L'Historie des Arabes. 1849. Encyclopaedia of Islam.

الكتب الصادرة للمحقق

الأستاذ الدكتور يحيى الجبوري

(1) الإسلام والشعر، مكتبة النهضة، بغداد 1964.

(2) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مكتبة النهضة، بغداد 1964، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، 1983، 1998.

(3) ديوان العباس بن مرداس السلمي، وزارة الإعلام، بغداد 1968، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.

(4) الجاهلية، (مقدمة في الحياة العربية لدراسة الشعر الجاهلي)، مطبعة المعارف، بغداد، 1968.

(5) شعر النعمان بن بشير الأنصاري، مطبعة المعارف، بغداد، 1968، دار القلم، الكويت 1985.

(6) شعر عروة بن أذينة، مكتبة الأندلس، بغداد، 1970، دار القلم، الكويت 1981، 1983.

(7) لبيد بن ربيعة العامري، مكتبة الأندلس، بغداد، 1970، دار القلم، الكويت 1981.

(8) شعر المتوكل الليثي، مكتبة الأندلس، بغداد، 1971.

(9) شعر الحارث بن خالد المخزومي، مطبعة النعمان، النجف 1973، دار القلم، الكويت 1983

(10) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، دار التربية، بغداد 1972، مؤسسة الرسالة بيروت، 1997، 1982، 1985، 1990، 1995، 2000، جامعة قاريونس، بنغازي 1993.

(11) شعر عبدة بن الطبيب، دار التربية، بغداد، 1972.

(12) شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، وزارة الإعلام، بغداد 1974.

(13) شعر بن حية النميري، وزارة الثقافة، دمشق 1995.

(14) شعر عمرو بن شأس الأسدي، مطبعة الآداب، النجف 1976، دار القلم، الكويت 1983.

(15) شعر عمرو بن لجأ التيمي، مطبعة الحكومة، بغداد 1976، دار القلم، الكويت 1981.

(16) الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العرب، (ترجمة عن الإنجليزية)، منشورات جامعة بغداد، 1976.

(17) ديوان الطغرائي (بالاشتراك)، مطبعة الحكومة، بغداد 1976. دار القلم، الكويت 1983.

(18) شعر هدبة بن الخشرم العذري، وزارة الثقافة، دمشق 1976، دار القلم، الكويت 1985.

(19) أصول الشعر العربي، د. س. مرجليوث (ترجمة عن الانجليزية)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978، 1988، 1981، جامعة قار يونس، بنغاري 1994.

(20) عبد الله بن الزبعري حياته وتحقيق شعره، معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1978، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981.

(21) كتاب المحن لأبي العرب التميمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (تحقيق)، 1983 الطبعة الثانية، 1988، الطبعة الثالثة 2006.

(22) ديوان أحمد بن يوسف الجابر، (بالاشتراك) دراسة وتحقيق، مركز الوثائق، جامعة قطر، 1984.

(23) الزينة في الشعر الجاهلي، دار القلم، الكويت 1984

(24) قصائد جاهلية نادرة، (دراسة وتحقيق)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982، 1988.

(25) شعر خداش بن زهير العامري، (دراسة وتحقيق)، مجمع اللغة العربية، دمشق 1976.

(26) الأقوال الكافية والفصول الشافية، (في الخيل) للملك الرسولي (تحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

(27) الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.

(28) كتاب الردة للواقدي، (تحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

(29) كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل للوشاء، (تحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.

(30) منهج البحث وتحقيق النصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

(31) الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

(32) أمالي المرزوقي، (تحقيق) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

(33) المستشرقون والشعر الجاهلي (بين الشك والتوثيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

(34) الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

(35) كتاب المنتخل للميكالي، (تحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

(36) محمد بن عبد الملك الزيات، سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه، دار البشير، عمان 2002.

(37) المحاضرات والمحاورات للسيوطي، (تحقيق) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

(38) محن الشعراء والأدباء وما أصابهم من السجن والتعذيب والقتل والبلاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.

(39) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، لأحمد بن فضل الله العمري (تحقيق)، الإمارات العربية المتحدة، المجلد العاشر 2003.

(40) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، لأحمد بن فضل الله العمري (تحقيق)، الإمارات العربية المتحدة، المجلد الرابع والعشرون، 2004.

(41) الشعر الإسلامي والأموي، دار البشير عمان 2005.

(42) الغزل العذري، دار البشير عمان 2005

(43) المجموع اللفيف للقاضي الأفطسي الحسيني، (تحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2005.

(44) مجالس العلماء والأدباء والخلفاء، مرآة للحضارة العربية الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006.

(45) بين الحكمة ودَور العلم في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006.

(46) الحنين والغربة في الشعر العربي، دار مجدلاوي – عمان 2007.

(47) مؤسس الوحدة لابن الأثير، تحقيق، دار مجدلاوي – عمان 2008.

(48) كتاب التحف والأنوار من البلاغات والأشعار، للثعالبي، دار مجدلاوي – عمان 2008.

(49) مع المخطوطات العربية، دار مجدلاوي – عمان 2009.

(50) في رحاب التراث، دار مجدلاوي – عمان 2009.

(51) أخبار وأشعار وآداب ونوادر وحكم، دار مجدلاوي – عمان 2010.

(52) النساء الحاكمات، دار مجدلاوي – عمان 2010.

(53) كتاب الآداب لابن شمس الخلافة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 2011

(54) رياض الألباب بمحاسن الآداب، للسيوطي/ ط دار مجدلاوي، عمان 2012.

(55) كتاب الشعر لابن شمس الخلافة، دار الفكر، عمان 2011، ساحة الجامع الحسيني، سوق البتراء.

(56) كتاب المعاني والاشتقاق لأسامة بن منقذ، دار مجدلاوي، 2011.

(57) المنتخب المختار من نوادر الأشعار، دار مجدلاوي، عمان 2013.

(58) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، دار مجدلاوي، عمان 2014.

كتب صادرة للمؤلف

























دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص.ب : ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الأردن



Dar Majdalawi Pub.& Dis
Telefax : 5349497 - 5349499
P.O.Box : 1758 Code 11941
Amman - Jordan

www.majdalawibooks.com
E-mail:customer@majdalawibooks.com